الجمهوريّة الجزائرية الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية: أصول الدين
قسم: الكتاب والسنة

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

البعد القيمي للقرآن
-دراسة لقيمة العدل-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية

تخصص: الكتاب والسنة

إعداد الباحثة:

منى بن عطية

إشراف الأستاذ الدكتور:

الجمعي شبايكي

لجنة المناقشة

أ.د.هدى حراق	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	رئيسا
أ.د. الجمعي شبايكي	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	مقررا
د.هشام شوقي	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية	عضوا
أ.د.نورة بن لحسن	أستاذة	جامعة الحاج لخضر-باتنة1	عضوا
أ.د.عيسى بوعكاز	أستاذ	جامعة الحاج لخضر-باتنة1	عضوا
أ.د.محيي الدين بن عمار	أستاذ	جامعة الحاج لخضر-باتنة1	عضوا

السنة الدراسية: 1444-1445هـ /2023-2024 م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

الإسراء: 9.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الروم: 30.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

الحديد: 25.

الإهداء

إلى كل مجاهد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

إلى والدتي نوارة حياتي.

إلى والدي وإخوتي.

إلى صديقاتي.

إلى كل من دعمني ودعا لي بظهر الغيب.

أهدي هذا العمل سائلة المولى تعالى أن يجعله في ميزان حسناتي وأن ينفع به المؤمنين.

الباحثة

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أتقدّم بالشّكر لأستاذي الفاضل أ.د. الجمعي شبايكي لقبوله الإشراف على هذه الأطروحة، ولتوجيهه ودعمه وكرمه.

وأشكر كل من ساعدني ووقف إلى جانبي طيلة فترة بحثي ودراستي.

كما أتقدّم بالشكر لأعضاء اللجنة الذين تكفلوا بالاطلاع على الأطروحة ومناقشتها.

الباحثة

مقدّمة

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين وبعد:

يتفق عامة الناس وأهل العلم على أهمية القيم ودورها الفعال في بناء الإنسان والمساهمة في تكوين المجتمعات من خلال تشكيل السلوك البشري ومختلف أنماطه الحياتية، بالنسبة للمسلمين يمثل القرآن الكريم منبع ومصدر القيم إضافة إلى تأثير قيم حضارات وأمم أخرى لطبيعة التدافع الحضاري والمشترك الإنسانيّ.

إنّ القيم بالنسبة للفرد تمثّل موجهات داخلية ومعايير ذاتية يحكم ويميز على أساسها بين الحق والباطل، وبالنسبة للمجتمع تكون متضمّنة أيضا في العلاقات التي يرتبط بها الأفراد فيما بينهم، وبهذا الفهم يميّز بين القيم الفعالة وبين التي قد تكون بين عناصر النسق القيمي المعلن دون أن تترجم إلى سلوك حقيقيّ.

وهناك اعتراف ضمني عند الجميع بأن القيم لا يمكن إلا أن تكون ذاتية، قد يتشاركها عدد كبير، ولن ينفع تشارك القيم في جعلها موضوعية إلا إن توفر سبيل واضح لتحديد النموذج الإنساني الأمثل وصفاته، وكذا السبيل لتبصر تجلياته في مختلف الظروف، ولطالما كان هذا مثار جدل ونقاش فلن ينتهي بالحوار على الأقل.ثم هل هذا النموذج قابل للتعميم أم أنه ينحصر لدى من يستأهلون تجسيده، أي هل هي قيم جماعية أم تتجه أكثر لتكون نخبويّة؟

المهوسون برسم القيم وتلوينها يطيب لهم كثيرا التظاهر بسلوك الحوار والتفكير سبيلا إلى نشوئها واعتمادها؛ أي الانتصار لها. لكن الاعتراف الضمني بذاتيتها يجعلهم يتوسلون بكل شيء إلى ذلك، حتى لو ناقض في ذاته قيمهم التي يدعون إليها.

تحاول الدراسة أن تكون وفق الترابط بين جزئيّات القرآن وكلياته التي هي قوام معقوليّة كتاب الله وروحه تمشّيا مع الوقائع المفروضة لتحقيق التدبّر الموصى به، فالنصوص متناهية والوقائع والأحداث متجدّدة والتشريع المستمدّ من القرآن أصل الأصول ينزع منزع المثاليّة والواقعيّة في آن واحد، لذا كان التّركيز على الواقع الاجتماعي ذو أهميّة كبرى في الموضوع لإعطاء البعد الواقعي.

والقرآن الكريم هو المرجع والمصدر الأول للقيم، ولكن لطبيعة العصر والتغيرات التي ما فتئت تتطوّر صار ينظر للقيم على أنها ذاتية، وقد يسهل تبريرها – تبرير قيم ما والانتصار لها- على حسب براعة وبلاغة المعني بتحقيقها، لذا فالرجوع دائما إلى الكتاب كله- الذي يصدق بعضه بعضا- واجب لمراجعة القيم.

إشكاليّة الدراسة:

في ضوء ما سبق نقول أن القيم ستؤول في نهايتها إلى اللّذة والألم، والتصورات المختلفة بشأنهما. وحتى لو تجاوزنا التباين الشّديد لهذين الشعورين من إنسان لآخر، ومن مجتمع لآخر؛ فإن ارتباطهما بالوهم أو لنقل بالمشاعر والتصورات النفسية الوجدانية الخاصة، والتي تتغير وتتطور عند الفرد الواحد بحسب تجاربه الفكرية والوجدانية وما يطرأ عليها من الخارج، فإن هذا يعمق ويؤكد قولنا بذاتية القيم، بل بعدم ثباتها.

في النقطة الأخيرة هذه يمكن رصد إشكال حمل الناس على الاقتناع بقيم خاصّة، بمعنى: كيف يقبل الناس ويستعدّون للتغير بوعي وبغير وعي، بالاتكاء على التصورات الواهمة للذة والألم التي هي وهم كبير وجزء منه قابل للتحقّق فعلا؟ بل مجرّد قيام الوهم يولد معه لذّة وألما، أي قيما.

لذا تأتي هذه الدراسة للإجابة على الإشكالية الرئيسة الآتية:

باعتبار النص القرآني إلـهي المصدر متعاليا عن الذاتية الإنسانية، وفي نفس الوقت مقوّما لموضوعه المركزي – الإنسان- معرفيّا وسلوكيّا؛ كيف تناول تحويل قيم الإنسان الأصيلة إلى ممارسات واقعية ترسم عبر الزمن نموذجا أو نماذج حضاريّة؟

وهي تنضوي على الأسئلة الفرعية الآتية:

هل هناك قيم أصلية، حقة، مرجعية، مطلقة، عامة لجميع الأنواع والأفراد من منظور إنساني؟

هل توجد بحيث تولد حسب اختلاف الظروف قيما مكيفة ومتأقلمة؟

وحديثنا عن الظروف: أيكون مبعثه إلحاح موضوعي ينكره من ضعف إدراكه لعمق تأثيرها وشدّة تباينها، أم أنه لا يعدو أن يكون مدخلا ومبررا متاحا أمام من يريد الاقتراب من نماذج فكريّة – حياتية والتشبّه بها، لوقوعها موقعا حسنا في نفسه، هيأته ظروف نفسية خاصّة كانت نتيجة تأثير تلك النماذج أو جوانب منها بشكل ذاتي (فردي أو جماعي)؟

وقبل النظر في تلك القيم المنبثقة عن القيم الأصلية، ما الذي تقوم (أي تتحقق) من خلاله القيم؟ وهل يمكن من خلال زاوية نظر عملية واقعية أن تتحقق معا دون اضطرار إلى منح إحداها الأولوية، أو التضحية بإحداها أو إرجائها – أخص القيم الأصلية المفترضة والتي لا تعارض أو تناقض بينها نظريا، بل تبدو منسجمة

ومتعاضدة- والحديث هنا بإفاضة عن قيمة العدل لشدة ارتباط النصوص القرآنية والجانب الهدائي فيها بهذه القيمة التي بها قوام الأعمال كلها.

ما هو البعد الأخلاقي للعدل في القرآن؟ وبوصفه قيمة معرفية للنصوص القرآنية ما هو أثره في استنباط الأحكام وفي البعد الهدائي للقرآن؟

أهميّة الدراسة:

تكمن أهميّة هذا البحث:

– أولا في دراسة القرآن وقضاياه بنظرته القيمية المتكاملة وباعتباره أصل الأدلّة الشّرعيّة لأجل تحديد الأداة المعرفيّة في التعامل مع هداية الوحي والخروج من النّظرة الجزئيّة إلى الكليّة التي تحفظ نظام الأمّة ومستقبلها.

– تبيان ضرورة تحقيق الجانب القيمي للقرآن وأحكامه، وخطر إهماله أو تعطيله.

– البحث في العدل كقيمة مرتبطة بنظام القرآن الهدائي وسننه التاريخية والاجتماعية لما له من تأثير على الجانب المعرفيّ الفكريّ.

أهداف الدراسة:

تتميز هذه الدراسة عن غيرها من الدراسات التي تناولت القيم في القرآن بالتطرّق للآليّة التي يكتسب بها الإنسان قيمه ويختار على أساسها أو يتبع قيما ما دون غيرها، مع الاهتمام بتسليط الضّوء على الظروف التي أدّت إلى انحراف التمثّل القيمي عند المسلم – لقيم القرآن- وأيضا انحراف الإنسان عموما عن الفطرة السويّة التي خلقه المولى تعالى عليها.

سلوك سبيل التعليل القيمي للاسترشاد به في فهم النصوص وتحديد نطاق تطبيقها على أساسه.

ربط القيم القرآنية بالواقع في إطار التواصل الثقافي والحضاري العالمي تمشيا مع صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

دراسة العدل من منظورين: كخلق إنساني، وكقيمة معرفيّة للنّصوص القرآنيّة.

منهج الدراسة:

إن طبيعة البحث تستلزم اتباع المنهج الاستقرائي الكلي لاستقراء القرآن الكريم واستخراج الآيات المتعلقة بالموضوع ثم اختيار ما يكفي منها، وبعد ذلك اتباع المنهج الوصفي التحليلي لتأسيس الموضوع، ورصد الصلات بين النصوص القرآنية والواقع، أما منهج الاستنباط فيستعمل في استخراج الدلالات والحكم استنادا إلى اعتبار المآلات والموازنات وما تسفر عنه من مقتضيات.

الدِّراسات السّابقة:

تطرّقت عديد الدّراسات إلى القيم في القرآن، ولكنها في عمومها –على ما وسعه اطّلاعي وبحثي– لم تربطها بعلوم العصر التي تجلّي تمثلاتها على أرض الواقع وتعين على فهم الأدوار المنوطة بالسلطة التي لها على الأفراد والمجتمعات، السلطة التي اكتسبتها قيم لا تنتمي إلى مرجعيّة المسلمين ولكنها مع ذلك أقحمت فيها ليكون لها القول الفصل في تفاصيل خفيّة توجّه حيوات النّاس، ولا تكاد بسبب ذلك تنهض بهم قيمهم الأصيلة ليعودوا للفطرة السليمة وليصدّوا الغزو الحضاري الذي اجتاحهم.

من أهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع "دستور الأخلاق في القرآن" الذي قارن فيه مؤلفه عبد الله دراز نظام الأخلاق في القرآن ببعض النظريات الغربية، وقد بين كيف ربط القرآن بين تعاليمه والقيم الأخلاقية التي تأسست عليها، وحرص على إبراز إعجاز النظام الأخلاقي في تغطية النشاط الإنساني كله حيث يجد المسلم ما يشبع حاجته في مجال الأخلاق العملية.

الصعوبات:

ككل الدّراسات والبحوث لا تخلو هذه الدراسة من مصاعب وعراقيل واجهتها، أولاها سعة الموضوع وعمقه، وثقله في الساحة الفكريّة كما مختلف الجوانب الاجتماعية والأخلاقية...إلخ، وأما ثانيها فمشاكل شخصية كانت تلقي بثقلها على السير الحسن للدراسة ما تسبب في التعطّل مرات كثيرة في إخراجها بصفتها النهائيّة.

تقسيم الدراسة:

توزعت الدراسة على ثلاثة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة وعدد من الفهارس.

يأتي الفصل الأول وعنوانه: في مفهوم القيم ودورها في البناء الحضاري. وتمّ تقسيمه إلى ثلاث مباحث:

المبحث الأول عن مفهوم القيم في القرآن والفلسفة، وعن مصادر هذه القيم.

المبحث الثاني بعنوان المعادلة المعرفية للقيم. وفيه جاء الحديث عن القيم في: الفلسفة القديمة والحديثة وفي المرجعيّة الإسلاميّة.

أما المبحث الثالث فجاء عن دور القيم في البناء الحضاري عند الفلاسفة الغربيين والمسلمين.

بعدها يأتي الفصل الثاني وعنوانه: البعد القيمي للقرآن. وقد قسم إلى ثلاث مباحث:

المبحث الأول يتطرّق لقيم الميزان وقيم التطرف في المجتمعات. واختيرت قيم الواحدية والشرك، وقيم الفطرة والتطرّف.

المبحث الثاني: الهدي القرآني والتّشريع. وقد تناول هدي القرآن الكريم، وعلاقة التشريع بالقيم.

والثالث جاء بعنوان: القيم في القرآن، من خلال شقين: مصطلح القيم في القرآن، وأنواع القيم القرآنية.

والفصل الأخير تناول البعد القيمي لقيمة العدل، من خلال مبحثين:

المبحث الأول: العدل بوصفه خلقا إنسانيا في القرآن. وقد جاء فيه البعد الأخلاقي للعدل وأثره الاجتماعي والاقتصادي.

المبحث الثاني: العدل بوصفه قيمة معرفية للنصوص القرآنية. مقسما إلى ثلاث مطالب: العدل كمرجع معرفي، وقيمة العدل في استنباط الأحكام وفي عملية الترجيح، وثالثا قيمة العدل في البعد الهدائي للقرآن.

طريقة العمل:

1- اعتمدت في هذه الدّراسة على التّفاسير القديمة والمعاصرة، وقمت بتحليل الآيات واستنباط الدروس الحكم منها بما يناسب المبحث المدروس.

2- الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة والحسنة.

4- اتباع قواعد البحث العلمي والتّوثيق والالتزام بها.

5- توضيح معاني المفردات التي تحتاج الشّرح.

6- ترجمة الأعلام المذكورة مع استثناء المشهورين.

7- أذكر المعلومات كاملة عن الكتاب عند أوّل ذكر له، ثمّ أكتفي باسم المؤلِّف والمؤلَّف عند تجدّد ذكره.

8- أتبعت الدّراسة بفهارس مساعدة وهي:

أ- فهرس الآيات القرآنيّة.

ب- فهرس الأحاديث.

ت- فهرس الأعلام المترجم لهم،رتبته على أحرف الهجاء ولم آخذ بعين الاعتبار لفظ أبو وأم والألف واللام في بداية الكلمة.

ث- ثبت المصادر والمراجع، رتبته على أحرف الهجاء ولم آخذ بعين الاعتبار لفظ ابن وأبو والألف واللام في بداية الكلمة.

ج- فهرس الموضوعات.

في الختام أؤكّد على أن القيم في القرآن من موجهات السلوك البشري التي تحتاج دراسات معمقة وبآليات ووسائل التدبر من القرآن، والاهتمام بها وبإقامتها هو اهتمام بسير الحياة السير الصحيح من تحقيق الإنسانية والاستخلاف في الأرض وعمارتها والذي من سبل تحقيقه البحث والاجتهاد في فتح أبواب العلم فأشكر الله تعالى وأحمده حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه على توفيقه لي في إتمام إنجاز هاته الأطروحة، كما أشكر أستاذي الدكتور الجمعي شبايكي وكل من كان له فضل في إنجازي من قريب أو بعيد.

الفصل الأول:

في مفهوم القيم ودورها في البناء الحضاري

الفصل الأول:

في مفهوم القيم ودورها في البناء الحضاري

المبحث الأول: مفهوم القيم.

المطلب الأول: مفهوم القيم في القرآن.

المطلب الثاني: المفهوم الفلسفي للقيم.

المطلب الثالث: مصادر القيم.

المبحث الثاني: المعادلة المعرفية للقيم.

المطلب الأول: القيم في الفلسفة القديمة.

المطلب الثاني: القيم في المرجعية الإسلامية.

المطلب الثالث: القيم في الفلسفة الحديثة.

المبحث الثالث: دور القيم في البناء الحضاري .

المطلب الأول: دور القيم في البناء الحضاري عند الفلاسفة الغربيين.

المطلب الثاني: دور القيم في البناء الحضاري عند الفلاسفة المسلمين.

المبحث الأول: مفهوم القيم

المطلب الأول: مفهوم القيم في القرآن.

المطلب الثاني: المفهوم الفلسفي للقيم.

المطلب الثالث: مصادر القيم.

المبحث الأول: مفهوم القيم

المطلب الأول: مفهوم القيم في القرآن

1. مفهوم القيم لغة:

جاءت معاني القيم في المعاجم اللغوية كما يلي:

– القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم. والآخر على انتصاب أو عزم[1].

– "والقيمة واحدة القيم وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء. والقيمة ثمن الشيء بالتقويم تقول تقاوموه فيما بينهم.

– الدين القيم أي: المستقيم الذي لا زيغ فيه ولا ميل عن الحق، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ البينة: 3، أي مستقيمة تبين الحق من الباطل على استواء وبرهان"[2].

– القيمة: ثبات الشيء ودوامه. جاء في أساس البلاغة: "وماء قائم: دائم. وقام على الأمر: دام وثبت. وأقام الشيء: أدامه. وما لفلان قيمة: ثبات ودوام على الأمر. وهو الحيّ القيّوم: الدّائم الباقي"[3] و"القائم الحافظ لكل شيء والمعطي له ما به قوامه"[4].

– " ومعنى القيام العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ الجن: 19، أي لما عزم.

– "وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح.ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية– النساء: 34.

– ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات. ومنه قامت الدابة إذا وقفت عن السير، وقام عندهم الحق أي ثبت ولم يبرح. ومنه قولهم أقام بالمكان هو بمعنى الثبات، وقام الشيء واستقام اعتدل واستوى.

والقيم الاستقامة والاستقامة اعتدال الشيء واستواؤه. والقوام بالكسر نظام الأمر وعماده وملاكه"[5].

---

[1]– معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، دار الفكر، تحقيق عبد السلام هارون، 1399هـ، 43/5.

[2]– لسان العرب: ابن منظور، دار صبح، بيروت، ط1– 1427هـ ، 326/11-327.

[3]– أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1– 1419هـ ، 111/2.

[4]– المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة– بيروت، ص417.

[5]– لسان العرب: ابن منظور، 323/11-324.

– " وإقامة الشيء توفية حقه، ولم يأمر تعالى بالصلاة حيثما أمر ولا مدح به حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة تنبيها أن المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها، نحو: **{ أقيموا الصلاة}** في غير موضع، وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾النساء: 142، فإن هذا من القيام لا من الإقامة"[1].

إجمالا فإن مفهوم القيم لغة يدور حول معاني الاستقامة، الثبات والدوام، وما يقوم به الشيء.

2. مفهوم القيم في القرآن:

الجذر(قوم) في القرآن:

وردت القيم ومشتقاتها – وجذرها قوم- في القرآن الكريم ستمائة وستين مرّة، منها قام وأقام وقيام وقائم وقيوم وقِيَم وقَيِّم وقوام وتقويم في مائة وإحدى وستين مرّة، واستقام ومستقيم في سبع وأربعين مرة، وقيامة في سبعين مرّة، وقوم في ثلاثمائة واثنتين وثمانين مرّة[2].

ومن خلال المعجم المفهرس للقرآن الكريم يمكن رصد عدة اشتقاقات للجذر قوم[3]:

•الاستجابة لله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الروم: 25.

•اتباع التعاليم والعمل بها: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾المائدة: 66. ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ المائدة: 68. ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ الشورى: 13.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ البقرة: 229.

•إقامة العدل: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ النساء: 127.

•تحقيق العدل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾المائدة: 8.

---

[1]– المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص418.

[2]– معجم كلمات القرآن : محمد زكي خضر، ط2– 2012م،ص178.

[3]– معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربيّة، مصر، 1409هـ، ص930–940.

•الأداء الكامل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ البقرة: 277، والصّادق أيضا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ الطلاق: 2.

•سلوك الطريق القويم: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ الجن: 16.

•الاستقرار: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾النحل: 80

•أعدل وأضبط: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ النساء: 46.

•تعديل وإزالة عوج: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾التين: 4.

•أمة قائمة: ثابتة على الحقّ: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾آل عمران: 113.

•ثابت باق: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾هود: 100.

•ملازم له: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ ﴾ آل عمران: 75.

•قائمون: مؤدّون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾المعارج: 33.

•القائمون: المعتكفون: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾الحج: 26.

•الرعاية والقيام بالمصالح: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ النساء: 34.

•أمر تقوم به الحياة: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ النساء: 5. و: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾المائدة: 97.

•مستقيم لا عوج فيه: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ الأنعام: 161.

•مستقيم لا عوج فيه ومقوّم لأمور الناس: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ يوسف: 40.

•ذات قيمة: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾البينة: 3.

•المستقيمة المعتدلة: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾البينة: 5.

•مستو لا عوج فيه: ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾المائدة: 16.

•الميزان العادل: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾الشعراء: 182.

•باق ماثل للعيان: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾الحجر: 76.

إنّ الدّلالات العامّة لمجمل الألفاظ القرآنيّة ذات العلاقة بجذر القيم تدور حول معاني إقامة أمر الله بالاستجابة له والثبات عليه، النظام والعماد، الرعاية والقيام على الأمر، والاستقامة وسلوك طريق الله.

والملاحظ على كلمة "قوم" أنها مساوية لجذر القيمة الذي هو "قوم"، وكأنّ القوم وهم الجماعة من النّاس إنّما صاروا كذلك لقيم مشتركة بينهم أو لقيم تجمعهم فامتازوا بها عن غيرهم، وكان تجمّعهم أهمّ عامل للقيام والثّبات على قيمهم الخاصّة بهم، فكون الفرد وحيدا في قيمه لا يهيّء له ما تهيّء المجموعة لأفرادها من التّعاون والقوّة، سواء أكانت تلك القيم ذات مردود سلبي أو إيجابي، كذلك فإنّ المولى تعالى هيّأ للإنسان منظومة كاملة من القيم يشدّ بعضها بعضا وتتكامل فيها قواه العقلية، النفسية، والروحية فتنتج إنسانا متّزنا سويّا.

3. محدّدات القيمة:

القارئ لما سبق يدرك أن مادّة قوم التي يتشكّل منها المصطلح الذي نحن بصدد دراسته تدور حول مصدر القيمة ومسلكها وامتدادها وأثرها وصفاتها، فالمصدر: هو الله القيوم، والمسلك: طريق مستقيم لاعوج فيه، والامتداد: في الحياة والكون كلّه، والأثر: في نفس الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض، والذي ميّزه بحسن التّركيب وحسن التّعديل في الهيئة، وأمره بحسن التدبير والتسيير في التعامل مع المخلوقات المسخّرة له عبادة وطاعة للخالق، وصفات الثبات والدوام والإطلاق وعدم التغيير التي

تكتسبها القيم التي زرعها الله في الإنسان حين نفخ فيه من روحه.وعليه فإن مصطلح القيم لا ينفكّ عن هذا المحيط من المعارف الكاملة المتكاملة[1].

ولأنّ المصدر هو المولى تبارك وتعالى فمعناه أنّ كتابه الذي ضمّنه ما به صلاح العباد في العاجل والآجل؛ منه تستمدّ باقي التصوّرات والأنظمة. إنّه كتاب شريعة وأخلاق ومعاملات يجمعها الدّين.

ولأنّ المصدر هو الله فالمسلك من دون ريب مستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الأنعام: 153. ولكنّه يحتاج القيام بالدّين والثبات عليه.

من خصائص القيم الإسلامية الواقعيّة، وهي تتدخّل مباشرة في التّأثير عليها، فعلى الرّغم من أن الله عزّ وجلّ هو مصدرها إلاّ أنّه تعالى لم يطلب من البشر مطلق الكمال في تمثّل هـٰته القيم، قال عزّ وجلّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ الطلاق: 7، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ البقرة: 286.كما أنّه لم يترك للإنسان تمثّل ما يشاء منها كيفما شاء، بل جاء كلّ ذلك بمقدار، فلها منظومة متكاملة تحقّق الاتّزان وتوفّر الأمان النّفسي والاجتماعيّ؛ والذي يتحوصل من الأمان في مختلف مناحي الحياة، ولهذا فإنّ "فصل الحديث في القيم، يتطلب تأسيس خطاب هادف، يحدد مبدئيا مفهوم القيم قصد توحيد المصطلح الذي يتم التعامل بموجبه في كل استراتيجية لبناء الأنسقة القيمية"[2].

قال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم : " **إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**"[3]. فلا يتصوّر أحد أنّ الإسلام جاء بما يخالف الأديان الحنيفيّة التي سبقته بل جاء متمّما ممّا يحقّق للإنسان أيّ إنسان التّوازن في كلّ شيء بما يتّفق مع جلب المصالح وتحقيقها ودرء المفاسد ومقاومتها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنما بعثت لأتمم**

[1]– ينظر القيم الإسلامية في المناهج الدراسية: خالد الصّمدي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو،1429هـ، ص9.

[2]–مفهوم القيم: مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء.

[3]– أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلّى الله عليه وسلّم، ح 3342.

صالح الأخلاق"[1]. ويبقى على هذا الإنسان السّعي للاهتداء لهذه الطّرق بما حباه المولى تعالى من عقل يفكّر به ويدرك، وقد أنزل في كتابه الكريم ما يضمن استمراريّة الحياة الكريمة المتّفقة مع الفطرة التي خلقه عليها.

– القيم مصدرها الأحكام الشخصية بناء على حاجة الشخص إليها، أو منفعته، أو ما تلبيه لديه من ميولات ورغبات، وهي قائمة بالإنسان توجهه من الباطن والداخل فتقيمه أي تثبته على أمر ما فيحتمل في سبيله ويضحّي من أجله بما لا يفعل اتجاه أمر آخر غيره. لذا كانت " **إدراكا معرفيا وإرادة نفسية تستند إلى مرجعيّة محدّدة** ".

وتجلّيها هو السّلوك العملي القولي أو الفعلي أو الوجداني الدالّ على مستوى وجود أو عدم وجود القيمة في واقع الفرد أو المجموعة أو الجماعة أو الضّمير العالمي. واكتشاف تطوّرها في الوجدان يتوقف على ظهور مؤشّرات خارجيّة متكرّرة في مواقف مختلفة، فالمؤشرات الظاهرة القابلة للملاحظة والقياس تشكل دليلا على قيام القيمة بمستوى من المستويات، فكلما كثرت المؤشرات وظهرت في مواقف مختلفة ومتكررة، كلما قام ذلك دليلا على وجود مستوى متطور من القيمة لدى الشخص، والعكس صحيح[2].

المطلب الثاني: المفهوم الفلسفي للقيم

1. الاختلاف في تحديد مفهوم القيم:

تدلّ كلمة قيمة على معان متعددة تعدّد الجوانب والميادين الدالّة عليها والخادمة لها، فمنها الجانب الروحي، ومنها ما له علاقة بالميدان الاجتماعي، ومنها القيمة التي تبلور مفهومها تبعا للجانب المادّي... وهي بذلك تؤثّر وتتأثّر بكلّ هـٰته الجوانب، ولكن ما تستوي فيه قيام أفراد المجتمع بحمايتها وصيانتها إن كانت مصلحة لهم، وقيامهم بنبذها وهجرها إن كانت بالضدّ من ذلك.

ولكن من المعلوم أيضا أنّ منظومة القيم أصابها الخلل، فالمعايير والمقاييس التي تخدم الأهواء والشّهوات طغت، كما وانحرفت مقاصد الإنسان فأصابها الفساد الاجتماعي والطغيان المالي والاستبداد السياسي والدّيني، وتبعا لعلاقة التّأثير والتأثّر بين هذه الحقول والمجتمعات وما أفرزته من موروثات فكريّة وسلوكات وأعراف تغيّرت رؤى الناس للقيم.

---

[1]– أخرجه أحمد في مسنده، 512/14، ح 8952.

[2]– انظر القيم الإسلامية في المنظومة التربوية: خالد الصمدي، ص39–40.

كذلك فإنّ الاختلاف في مفهوم القيمة يمكن إرجاعه إلى التّباين في النّظر إلى مصدر القيم؛ هل هو الدّين أم الفرد أم المجتمع، وكيفيات تجلّياتها؛ هل هي قبلية من خلال الأحكام والتفضيلات التي يقوم بها الفرد، أم هي بعدية عن طريق سلوكيّاته[1].

جاء في موسوعة لالاند:

قيمة- valeur[2]

تستعمل هذه الكلمة في كل مفاهيمها سواء بالمعنى المجرّد(ذو قيمة، له شيء من القيمة) أم بالمعنى العيني (يكون قيمة) هذا الاستعمال الأخير أكثر حداثة.

أ. ذاتيّا: طابع الأشياء الكامن في كونها مقدّرة أو مرغوبة نسبيّا لدى شخص، أو عموما لدى جماعة أشخاص معيّنين.

ب. موضوعيّا وعلى سبيل الحمل: سمات الأشياء القائمة على ما تستحقّ من تقدير نسبي.

ج. موضوعيّا، لكن بصفة شرطيّة: سمة الأشياء الكامنة في أنّها تشبع غرضا معيّنا.

د. خصوصا من الزاوية الاقتصاديّة: سمة الأشياء الكامنة في كونها قابلة للتّبادل، في جماعة معيّنة وفي لحظة محدّدة مقابل سلعة محدودة تعتمد وحدة للتّبادل. بهذا المعنى تعني القيمة السّعر المتداول عموما. وبهذا المعنى يقال غالبا قيمة تبادليّة مقابل القيمة الاستعماليّة.

2. مدلولها في اللغات اللاتينيّة:

لمفهوم القيمة في اللغات الأجنبية دلالات تلامس دلالات هذا المفهوم في اللغة العربية حيث:

يقال في اللغة اللاتينية"valeres"؛

ويقال في اللغة الفرنسية" valeurs "؛ويقال في اللغة الإنجليزية " values "؛ ويقال في اللغة الألمانية"werte".

وترجع كلمة valeur في أصلها الاشتقاقي إلى الفعل اللاتينيvaleo ويعني: أنا قوي، وأنا في صحة جيدة، كما تدل على الشجاعة والبسالة والصلابة والقوة، وهو معنى يتضمن فكرة المقاومة والصلابة والتأثير والفعالية وترك بصمات قوية على الأشياء[3].

---

[1]- أثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكيات لدى الشّباب: السعيد بومعيزة، أطروحة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، 2005-2006م، ص150.

[2]- موسوعة لالاند الفلسفية: أندريه لالاند، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات: بيروت- باريس، ط2- 2001م، ص1522.

[3]- الرابطة المحمدية للعلماء: مفهوم القيم، مركز دراسات القيم، المغرب. عن: JOHN. Laird, The idea of value, 1929.

ومع مضيّ الزّمن انتقل استعمالها إلى مختلف العلوم والميادين: "إنّها كلمة يستعملها أصحاب الاختصاصات المختلفة من لغويّين وموسيقيين، ورياضيين واقتصاديين وفلاسفة وغيرهم... وعلماء الاقتصاد يدلون بها على الصّفة التي تجعل شيئا ممكن الاستبدال بشيء آخر. وهذه القيمة هي قيمة المبادلة التي تمتاز عن قيمة الاستعمال المرادفة للمنفعة، وهي في هذا المجال معنى ذاتي تماما لا وجود له إلاّ بالشّخص. ومع هذا فإنّ كثيرين من علماء الاقتصاد حاولوا أن يحدّدوا معيارا لقيمة المبادلة... ومهما يكن من أمر هذه البحوث فإنّه يبدو من المستحيل في الواقع وجود معيار مقبول لقيمة المبادلة في شيء واحد مثل العمل، وحتى في مؤلف من عناصر متعدّدة مثل المنفعة والندرة والعمل لا يمكن أن تحدّد أهميّتها النسبيّة تحديدا دقيقا.

وهذه المشاكل هي التي دفعت كثيرين من علماء الاقتصاد إلى الانصراف عن تحليل قيمة المبادلة التي هي تصوّر غامض وإلى الاستعاضة عنها بفكرة الثمن التي يمكن درسها دراسة عميقة"[1].

3. انتقال مدلول القيمة إلى الفلسفة:

استعمل الفلاسفة كلمة القيمة في مجالات متعدّدة وأولوها عناية خاصّة، حتّى إنّهم أسّسوا لها نظريّة أو فلسفة بأكملها هي "فلسفة القيم".

و"تكون القيمة كلمة من اللغة الدّارجة، بكلّ مفاهيمها، لكن الاستعمال التقني الأول لهذه الكلمة(باستثناء الرياضيات) كان استعمالا في الاقتصاد السياسي. فمن هناك جرى نقلها إلى اللسان الفلسفي المعاصر، حيث حلّت في عدد كبير من الاستعمالات محلّ تعبير Bien القديم. ولقد أسهم نيتشه[2] إسهاما كبيرا في هذا النّشر.

المعنى الدّقيق لقيمة يصعب تحديده بدقّة لأنّ هذه الكلمة تمثّل في الغالب مفهوما متحرّكا انتقالا من الواقع إلى القانون، من المرغوب فيه إلى الرّغوب"[3].

---

[1]- نظريّة القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقيّة: الرّبيع ميمون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص29-31.

[2]- فيلسوف ألماني، مؤسس فلسفة القوة، ومن أعظم الفلاسفة تأثيرا في القرن العشرين. ولد عام 1844م لقس، وتوفي سنة 1900م. ارتبط اسمه بنقد جذري للدين، وللفلسفة، وللتعلم وللأخلاق. يتجلى نيتشه مليئا بالعقل، لكنه أيضا مسلح بكل ألوان المكر والدهاء المستورة التي هي من شيمة كاتب الرسائل الهجومية، وهو في ذلك يستخدم كل الأسلحة التي تحت تصرّفه: تحليله النفسي الدقيق، سخريته اللاذعة، حماسته وخصوصا أسلوبه. انظر موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط1-1984م، 2/508-509.

[3]- موسوعة لالاند الفلسفية: لالاند، ص1524.

3.1. مفهوم القيمة الفلسفي:

تفيد القيمة " المعنى الخلقي الذي يستحقّ أن يتطلّع إليه المرء بكليّة ويجتهد في الإتيان بأفعاله على مقتضاه"، أي أنّه المعنى الذي يجمع بين استحقاقين اثنين:

استحقاق التوجّه إليه واستحقاق التّطبيق له؛ وبناء على هذا التّحديد الفلسفي الإجمالي لكلمة قيمة يجوز أن نستعمل لفظين آخرين يسدّان مسدّهما، أحدهما اختصّ به الفلاسفة، وهو لفظ المثال أو قل المثال الأعلى؛ ونذكر من المُـثُـل التي اشتغل بها هؤلاء قديما: الخير والحقّ والجمال، ومن تلك التي يشتغلون بها حديثا: الحريّة والمساواة والعدْل، أمّا اللفظ الثاني فقد اختصّ به علماء الأصول، وهو لفظ المصلحة[1].

وهي بذا ما يُتشوّف إلى تمثّله وتحقيقه لفضله المتحقّق معنويا أو مادّيا،والفلاسفة منذ القدم؛ اهتموا بالقيمة ونظروا إليها بمناظير مختلفة، فمعالجتهم لها مرّت عبر مراحل اختلفت فيها آراؤهم وتباينت، سواء انتموا لنفس العصر أم لم ينتموا. واهتموا بها من خلال اهتمامهم بمختلف الجوانب الحياتية العقلية والاقتصاديّة والفنيّة...إلخ. "والثابت في الأمر أن الفلسفات الكبرى، كل الفلسفات، تتكشّف عن أنها فلسفات قيمة مادامت كل واحدة منها تدعي تقديم قواعد للفكر ذاته وقواعد للعمل والسّلوك. إنها من جهة أولى تسعى لتحديد طبيعة الحقيقة، وتسعى من جهة أخرى لتحديد خاصّة الحكمة"[2].

3.2. تداول الفلاسفة لمدلول القيمة:

يقسّم الباحثون المراحل الكبرى في تطور الفكر البشري استنادا إلى وجهة النظر الغربية، وهي العصر القديم الذي يبدأ بنشأة الفكر الفلسفي في اليونان، ثم العصر الوسيط، وأخيرا العصر الحديث في القرن السابع عشر الذي يستمر إلى الآن[3].

في العصر القديم بدت القيمة في نظر مفكّريه، أول ما بدت، على أنها إعراب عن مثل أعلى إنساني محدّد باعتبار علاقة الطبيعة بالعقل، وقد ذهب هؤلاء المفكرون، بوجه عامّ، إلى أنّ على المرء أن يحيا بحسب الطبيعة، لذا كان عليه تمثّل الاعتدال والسيطرة على الذّات[4].

---

[1]- تعدّدية القيم: طه عبد الرحمان، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية- مراكش، ط1- 2001م، ص11.

[2]- العمدة في فلسفة القيم: عادل عوا، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- دمشق، ط1-1986م، ص48.

[3]- انظر المصدر نفسه، ص55.

[4]- انظر المصدر نفسه، ص101.

وفيه برز اتجاهان قام بينهما صراع، يمثلهما بروتاغوراس[1] الذي يتخذ الإنسان مقياس كلّ شيء، وأفلاطون[2] الذي يرى أنّ المثل الأعلى، أو الله، أو القيمة، مقياس الأشياء كلّها[3]. وبروتاغوراس هو رائد فكرة حديثة تقول بأنّ لكلّ إنسان حقيقته إنما يضمر في الواقع إيمانا بأن الحقيقة لا بدّ وأن تخضع لقيمة، هي قيمة الحقيقة، وإن كانت القيمة بذاتها واقعا ذاتيا، بدل أن تكون كامنة في المثل الأعلى الأفلاطوني، وإذ ذاك تكون حقيقة القيمة، وقيمة الحقيقة واقعا واحدا، واقعا كليا أو موضوعيّا[4].

وفي العصر الوسيط نفذ الفكر المسيحي إلى الفلسفة القديمة، وانتهى إلى إخضاع مشكلة الوجود لمشكلة القيمة، ولهذا كان مفكرو هذا العصر يعنون بالتوفيق بين الفلسفة والمسيحيّة، فالإيمان هو الينبوع الأسمى للكائن وللقيمة معا[5].وعلى هذا النّحو تمّت الاستعاضة عن المثل الأعلى الإغريقي القائل بالاعتدال وبالسيطرة على الذات بمثل أعلى مسيحي يتعالى على النفس البشرية ويهبها حركة لا نهائيّة[6] فمعاني القيمة كانت تنتقل مع تصوّر الفلاسفة للإنسان وللوجود، فإن كان الإنسان هو مركز الكون كانت القيمة تابعة له، وإن كان الوجود كانت القيمة فيه، والإنسان تابع له.. ما فتئ المفكرون والفلاسفة تتمخّض عقولهم عن رؤى متباينة للإنسان والواقع والتّفاعل بينهما وإخضاع أحدهما للآخر ومع هذا الثّراء الفكريّ أو السفسطة العقليّة كانت القيمة بما تحمله من معنى تتبع أفكارهم واجتهاداتهم التي تنزل على واقعهم وصراعهم، كلّ مفكّر يرى القيمة في موضوع وفلسفة مغيرة لمن يخالفه. وفي العصر الحديث تبدّى الإنسان الذي يسعى إلى السّيطرة على الطّبيعة وعلى الخيرات المتاحة فيها وتسخيرها لصالحه، فاتخذ "الواقع موضوعا يحاول تسخيره لمآربه والسيطرة عليه باستثمار معرفة قوانينه. أمّا القيمة فإنها تتمثّل في ممارسة هذه السّيطرة، وهي تتحقّق بالعمل العقلي في المجال النّظري، وبالفعل الأخلاقي في المجال العمليّ"[7].

---

[1]- فيلسوف يوناني، ولد حوالي 485 ق.م وتوفي عام 411 ق.م. انظر معجم الفلاسفة: جورج طرابيشي، دار الطليعة- بيروت، 1987م، ص153.

[2]- فيلسوف يوناني. ولد في أثينا عام 428 ق.م. تتلمذ لسقراط. قضى حياته يفكر في السياسة ويمهد لها بالفلسفة، ولم تكن له قط مشاركة عملية فيها. له: المحاورات. انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم،لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ، ص75-76. وموسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 154/1.

[3]- انظر المصدر نفسه، ص58-59.

[4]- انظر المصدر نفسه، ص58-59.

[5]- انظر المصدر نفسه، ص75.

[6]- انظر المصدر نفسه، ص103.

[7]- المصدر نفسه، ص105.

إنّ هذا التحوّل في مسار القيم من التأثّر إلى التّأثير ومن التكوّن إلى التّكوين يأتي من تقييم المجتمع وأفراده في البداية، ثمّ يرقى إلى قيم عليا ينشدها أولئك الأفراد ويقيمون سلوكاتهم وأفعالهم تبعا لها انطلاقا من المصادر التي تنبع منها وتتأسّس عليها ليس قيم معيّنة فقط بل منظومة كاملة من القيم.

المطلب الثالث: مصادر القيم

هناك ثلاث مصادر رئيسة للقيم؛ وهي: الدّين، العقل، والثّقافة. إلاّ أنّه لا تتّفق كلّ المذاهب الفلسفية والملل عليها مجتمعة، فنجد من يعلي من شأن العقل ويجعله المبدع الوحيد للقيم والحاكم عليها بالحسن أو القبح، أمّا من يعتبر الدّين أوّل وأهمّ أو المصدر الوحيد للقيم فلقدسيّة مصدره ولأنّه هو الموجّه للعقل والحامي له من الانحراف والجهل. وبالنّسبة للثّقافة فهي مزيج من الرّصيد الذي يتهيّأ للمجتمع من العادات والتّقاليد والسّلوكات، ولا يخفى ما تتلقّاه المجتمعات على تنوّع هويّاتها وحضاراتها من قيم من مجتمعات وشعوب أخرى بواسطة التّواصل الثّقافي الذي تخلّل كلّ الميادين الاجتماعية، والاقتصادية والأدبيّة...إلخ.

1. الدين:

هو أوّل مصادر القيم وهو الحكم الفيصل على الأشياء بالحسن والقبح، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾الجاثية: 18. ويقول تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: 30.

وتأتي أهميّة إيراده بشيء من التّفصيل لبيان السّلطة التي له على حياة الإنسان والمجالات التي يمسّها؛ ولتبيين النّظرة الخاطئة عن تقليص دوره التي يتبنّاها معظم النّاس عن وعي أو غير وعي، وأمّا أهمّ نقطة ينبغي تسجيلها فهي إلصاق الملحدين وغير المسلمين(المنتمين إلى الديانات السّماوية المحرّفة) بدين الإسلام ما بدا لهم منتميا إلى خانة "الممنوع"، في حين أنّهم هم يدينون ويخضعون لقوانين وضعيّة أو مذاهب لها قوانينها وأسسها، لذا كان من الواجب دراسة مفهوم الدّين دراسة موضوعيّة بعيدا عن العقليّات المتحجّرة التي لا تفتأ تزيد وتنقص من الدّين من دون معايير واضحة ومنطقيّة.

1.1. مفهوم الدين:

لغة: الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنس من الانقياد والذل.

فالدين: الطاعة، يقال دان له يدين دينا، إذا أصحب وانقاد وطاع. وقوم دين، أي مطيعون منقادون. والمدينة كأنها مفعلة، سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر. والمدينة: الأمة. والعبد مدين، كأنهما أذلهما العمل.

فأما قوله جل ثناؤه: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾يوسف: 76. فيقال: في طاعته، ويقال في حكمه.

ومنه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾الفاتحة 4، أي يوم الحكم. وقال قوم: الحساب والجزاء. وأي ذلك كان فهو أمر ينقاد له[1].

والدين: العادة والشأن. تقول العرب: ما زال ذلك ديني وديدني أي عادتي[2].

1-2-المعاني التي تدور حولها كلمة دين[3]:

كلمة دين تؤخذ تارة من فعل متعدّ بنفسه: " دانه يدينه"، وتارة من فعل متعدّ باللام: " دان له"، وتارة من فعل متعدّ بالباء: " دان به" وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصّيغة.

- فإذا قلنا دانه دينا؛ عنينا بذلك أنه ملكه، وحكمه وساسه، ودبره وقهره، وحاسبه، وقضى في شأنه، وجازاه وكافأه. فالدين في هذا الاستعمال يدلّ على معنى الملك والتصرّف بما هو من شأن الملوك من السياسة والتّدبير، والحكم والقهر، والمحاسبة والمجازاة. و"الديّان" الحكم القاضي.

- وإذا قلنا دان له أردنا أنه أطاعه، وخضع له. فالدين هنا هو الخضوع والطّاعة، والعبادة والورع. وكلمة "الدين لله" يصحّ أن منها كلا المعنيين: الحكم لله، أو الخضوع لله.

- وإذا قلنا دان بالشيء كان معناه أنه اتخذه دينا ومذهبا، أي اعتقده أو اعتاده أو تخلق به. فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظريا أو عمليا. فالعملي لكل امرئ هو عادته وسيرته. والنظري هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه.

---

[1]- معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 319/2.

[2]- لسان العرب: ابن منظور، 164/13.

[3]- الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)-: محمد عبد الله دراز، دار القلم- الكويت- ص30.

وجملة القول أن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد فإن الاستعمال الأول الدين هو إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد وفي الاستعمال الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له.

1-3-الاختلاف حول مفهوم الدين:

الكثير من التّضاربات أثيرت حول العناصر التي تدخل في مسمّى الدّين، فما بالك بإعطائه مفهوما متقاربا، مع ما لكل دين من اعتبارات عقديّة وتاريخيّة خاصّة به.

بالرجوع إلى الاستعمالات اللغوية للدّين يقول درّاز: "إن الذي يعنينا من كل هذه الاستعمالات هو الاستعمالان الأخيران، وعلى الأخص الاستعمال الثالث. فكلمة الدين التي تستعمل في تاريخ الأديان لها معنيان لا غير. أحدهما هذه الحالة النفسية التي نسميها التديّن. والآخر تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها في العادات الخارجية أو الآثار الخالدة، أو الروايات المأثورة، ومعناها جملة المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم، اعتقادا أو عملا. وهذا المعنى أكثر وأغلب"[1].

فيبدو أن الإشكال في تعريف الدين يكمن في اختلاف التصورات حول العناصر التي تدخل في مسمى الدين، كذلك يرجع إلى الزاوية التي ينظر من خلالها صاحب التعريف، فهناك من يعرفه باعتباره أمرا شخصيا ذاتيا، ومن يعرفه باعتباره أمرا موضوعيا بالنظر إليه على أنه حقيقة خارجية، لإيمانه بوجود ذات حقيقية هي الله أو الآلهة أو الكائنات محل التقديس، أو من يحاول أن يمثل لسان معتنقي الدين وينوب عنهم دون أن يعتقد بما يعتقدونه إلى غير ذلك من الحالات[2].

هذا إضافة إلى طبيعة الدّين التي هي علاقة بين طرفين وعلم الإنسان ينحصر في الطّرف الذي يمثّله هو، وتفاعلاته اتجاه هذه العلاقة هي أهم ما يبحث فيه علماء الدين، وتتعلّق بهذه الانفعالات- أو هذه الخبرة- عقيدة كما تتعلّق بها شعائر خاصّة تجاه القوى الإلـهيّة[3]. هذا فضلا عن أنّ أي نظم اجتماعية يعتورها التطور والتشعب والتفريع، ولا شكّ أن هذا التحول الدينامي في الوضعية الدينية قد يبعدها عن أصلها في نقائها وصفاء جوهرها[4].

---

[1]- الدين: دراز، ص32.

[2]- انظر عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، مذكّرة ماجستير، قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر، 1439هـ، ص 75-76.

[3]- انظر ثقافة سياسيّة: ماهر كامل- أمين صالح، مكتبة الأنجلو المصرية،1957م، 265/1.

[4]- الاجتماع الديني: أحمد الخشّاب، مكتبة القاهرة الحديثة، ط3- 1970م، ص70.

1-4-إطلاقات الدين في القرآن:

يقول المودودي[1]: " إن كانت السلطة التي يستند إليها المرء لاتباعه قانونا من القوانين أو نظاما من النظم سلطة الله تعالى؛ فالمرء لاشكّ في دين الله عزّ وجلّ، وأما إن كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك؛ فالمرء في دين الملك، وإن كانت سلطة المشايخ والقسوس فهو في دينهم. وكذلك إن كانت تلك السّلطة سلطة العائلة أو العشيرة أو جماهير الأمة، فالمرء لا جرم في دين هؤلاء. وموجز القول أن من يتّخذ المرء سنده أعلى الأسناد وحكمه منتهى الأحكام ثم يتبع طريقا بعينه بموجب ذلك فإنه لا شكّ بدينه يدين"[2].

وإذا تأمّلنا المذاهب والأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة نجد أنها ليست مجرّد مذهب اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي وإنما هو تصوّر اعتقادي أيضا. فالعلمانية مثلا نظام سياسي صادر عن تصوّر اعتقادي بأن الدين لله والوطن للجميع ولا ضرورة لتدخّل الدين في شؤون الدّولة[3].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ غافر: 26.

هذا و"بملاحظة جميع ما ورد في القرآن من تفاصيل لقصة موسى عليه السلام وفرعون، لا يبقى من شكّ في أن كلمة الدين لم ترد في تلك الآيات بمعنى النحلة والديانة فحسب، أريد بها الدولة ونظام المدنية أيضا. فكان مما يخشاه فرعون ويعلنه أنه إن نجح موسى عليه السلام في دعوته فإن الدولة ستزول وإن نظام الحياة القائم على حاكميّة الفراعنة والقوانين والتقاليد الرّائجة سيقتلع من أصله. ثمّ إما أن يقوم مقامه نظام آخر على أسس مختلفة جدّا، وإما ألا يقوم بعده أي نظام بل يعمّ كلّ المملكة الفوضى والاختلال"[4].

قال تعالى:

1. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران: 19.

---

[1]- المودودي: من بلاد أفغان، ولد عام 1903م، وتوفي سنة 1979م، داعية ومفسر. أسس حركة إسلامية.من مؤلفاته: المصطلحات الأربعة في القرآن، الحجاب. انظر الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم: أليف الدين ترابي، رسالة ماجستير، مكة، 1403هـ، ص122 وما بعدها.

[2]- المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى المودودي، دار القلم- الكويت، ط5-1391هـ، ص125.

[3]- انظر علم الاجتماع الديني: عبد الله الخريجي، رامتان- جدة، ط2-1410هـ، ص36.

[4]- المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى المودودي، ص128.

2. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: 85.
3. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: 33.
4. ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: 39.
5. ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ سورة النصر.

المراد بالدين في جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها من الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية، فقد قال الله تعالى في الآيتين الأولين إن نظام الحياة الصحيح المرضي عند الله هو النظام المبني على إطاعة الله وعبديته، وأما ما سواه من النظم المبنية على إطاعة السلطة المفروضة من دون الله فإنه مردود عنده. وقال في الآية الثالثة أنه قد أرسل رسوله صلّى الله عليه وسلّم بذلك النظام الحقّ الصّحيح للحياة الإنسانيّة – أي الإسلام– وغاية رسالته أن يظهره على سائر النظم الحياتيّة. وفي الرابعة قد أمر الله المؤمنين بدين الإسلام أن يقاتلوا من في الأرض ولا يكفّوا عن ذلك حتّى تمّحي الفتنة، وبعبارة أخرى حتّى يمّحي جميع النّظم القائمة على أساس البغي على الله، وحتّى يخلص لله تعالى نظام الإطاعة والعبديّة كلّه.وفي الآية الخامسة قد خاطب الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم حين تمّ الانقلاب الإسلامي بعد الجهد والكفاح المستمرّ مدّة ثلاث وعشرين سنة، وقام الإسلام بالفعل بجميع أجزائه وتفاصيله نظاما للعقيدة والفكر والخلق والتعليم والمدنية والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وجعلت وفود العرب تتتابع من نواحي القطر وتدخل في حظيرة هذا النّظام[1].

لذلك كانت كلمة الدين في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله يتركّب من أجزاء أربعة هي:

1. الحاكمية والسلطة العليا.
2. الإطاعة والإذعان لتلك الحاكميّة والسّلطة.
3. النّظام الفكري والعملي المتكوّن تحت سلطان تلك الحاكميّة.
4. المكافأة التي تكافؤها تلك السلطة العليا على اتباع ذلك النّظام والإخلاص له أو على التمرّد عليه والعصيان له.

[1]– المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى المودودي، ص 128–130.

ويطلق القرآن كلمة الدين على معنييها الأول والثاني تارة، وعلى المعنى الثالث أخرى وعلى الرابع ثالثة، وطورا يستعمل كلمة الدين ويريد بها ذلك النظام الكامل بأجزائه الأربعة في آن واحد[1].

الخلاصة:

تبيّنت إلى هذا الحدّ المعاني التي استعملها القرآن الكريم عند حديثه عن الدّين، بوصفه مصطلحا جامعا شاملا يراد به نظام للحياة، وفي الآية التالية قد استعمل الدين بصفة هذا المصطلح الجامع:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: 29.

الدين الحق في هذه الآية كلمة اصطلاحية قد شرح معانيها واضع الاصطلاح نفسه عزّ وجلّ، ثم عبّر عن مجموعها بكلمة (الدين الحقّ)[2].

الدّين بذا هو المصدر الأوّل للقيم والحاكم عليها أيضا بالخيريّة أو الصّواب، وبه تقاس وعلى أساسه، لأنه النظام الشامل لكلّ حياة الإنسان ومنذ ولادته.

1-5-المعنى الخاصّ للدين في القرآن

معلوم أنّ الدّيانات التي ظهرت من القديم إلى الآن قد سمّيت بأسماء أخذتها من انتسابها إلى مؤسّسها أو حتّى إلى رجل أتى بعده، أو من الأمّة التي قامت فيها تلك الديانة، أو إلى الشّيء أو الكائن الذي تعبده وتدين له، فالمسيحية مثلا أخذت اسمها من السيد المسيح، واليهودية ظهرت في قبيلة تعرف بيهوذا فسميت باليهودية... إلا أنّ دين الإسلام لا ينتسب إلى رجل ما، ولا أمة مخصوصة، وإنما جاء اسمه من المعنى الذي يتضمّنه، وكما مرّ في عنصر سابق فإنّ كلّ من دخل في دين الله – الذي أرسل به الرسّل ودعا إليه الأنبياء– الذي ارتضاه للبشر فهو مسلم، من لدن آدم عليه السّلام إلى سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم حتّى تقوم السّاعة. فما هو معنى هذا الإسلام الذي جمعت دلالته كلّ الأديان تحته؟

مفهوم الإسلام:

الإسلام في اللغة الانقياد، لأنه من يسلم، من الإباء والامتناع[3]، أما تسمية الدّين بالإسلام فلأنّه يحمل معنى الخضوع لله تعالى مع تسليمٍ تامّ له من غير سخط ولا اعتراض، بل الرّضا بما شرعه والاطمئنان

[1]- المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى المودودي، ص120.

[2]- انظر المصدر نفسه، ص126-127.

[3]- معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 90/3.

في الالتزام به.

وهذا التّسليم والخضوع يسري على كلّ المخلوقات من الحيوانات والجمادات من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، الكلّ يُسيّر بالقانون الذي وضعه المولى تعالى ووفقا له.

تكفّل الله الكريم بهداية الصّالحين والباحثين عن الطّريق الحقّ؛ تكفّل بهدايتهم الصّراط المستقيم: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾الأنعام: 161، إذا ما اتبعوا الدين الذي يكفل مصالحهم في العاجلة والآجلة؛ مع توفّر جوهر التديّن؛ ألا وهو الإخلاص لله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام : 162-163. الدّين والإسلام يفسران بعضهما بعضا في كتاب الله، قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ النساء: 125، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: 19، فهو الدّين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: 85.

2. العقل:

في اعتبار العقل مصدرا من مصادر القيم تفاوت وأيضا تصادم، فهناك من يعدّه المصدر الوحيد بقوانينه والمبادئ التي تحكمه، وهناك من يقول بأنّه هو؛ ولكن بردّ أصوله وخيريّته إلى إرادة الله، ومن قائل بأنّ هذا العقل باتّباعه المنهج السّليم يساهم في إنتاج القيم المولّدة عن القيم المطلقة والفطريّة.

إنّ الاتّجاهات العقلانيّة ترجع حقيقة القيم الخلقية إلى العقل؛ أي إلى حركة العقل طبقا لحقيقة بديهيّة ثابتة موجودة في ماهية كلّ كائن، وماهية الشّيء هي التي تفسّر قيمته، وهذه الماهية ثابتة لا تتأثّر بالزّمان لأنّها مطلقة. فهي صادرة عن مبادئ عامّة ويقينيّة لخلوّها من كلّ مرمى أو منفعة ذاتية أو اجتماعية[1].

ما هو هذا العقل؟ وهل هو حقّا ما يميّز الإنسان عن الحيوان؟ وما مدى صدق سلامة قراراته وقوانينه؟

إنّ العقل، عقل الإنسان الذي ميّزه الله به على سائر المخلوقات هو الأداة التي بها ينشد تحقيق الخيريّة في الدّنيا مطيّة الآخرة انطلاقا من التدبّر الحكيم للقرآن الكريم، فشروط سلامته مرهونة باستمداده

[1]- إشكاليات فلسفية: حسين بن عبد السلام، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية-الجزائر، 2007م، ص131.

أنواره من الوحي الكريم، بعيدا عن هدايات القرآن الكريم هو لا يملك أسباب النّجاة لأنّه يخدم نفسا ذات فجور وتقوى إذا لا ضمانات لسلامة القيم والمقاصد التي ينشؤها ويولّدها.

"المقاربة الأرسطية تعتبر أن العقل هو المولّد للمعرفة، في حين أنّ العلوم الإسلاميّة تأسّست انطلاقا من النّقلة الكبيرة التي في الوحي، والّتي تعرض العقل باعتباره مكتشفا لهذه المعرفة ومستنبطا لها، وليس مولّدا لها. وشتّان بين المقاربتين: مقاربة التوليد ومقاربة الاكتشاف والاستنباط"[1]. والذين يقولون بأنّ العقل هو المصدر الأوّل للقيم فلقدرته على تصوّر المصالح وجلبها والمفاسد ودرئها، ومن ثمّ تبنّي أو إبداع القيم.

2-1-مفهوم العقل:

يعطي النّاس كل هذا الاهتمام الكبير للعقل ويولونه عناية خاصّة وينسبون إليه الرقيّ والمظاهر الفاضلة للحضارة أو ما يعتقد أنّها كذلك لما يروّج لهذا العقل من أن له السيادة الغالبة على النّوازع الإنسانيّة التي تصدّ صاحبها عن الممارسات الخيّرة والقيّمة، ومعنى العقل اللغوي يدلّ بوضوح على ذلك فهو ما يحبس عن القول والفعل السيّئين.

العقل لغة:

العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة. من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل[2]. فالعقل والإمساك والضبط والحفظ ونحو ذلك ضد الإرسال والإطلاق والإهمال والتسييب ونحو ذلك[3].

وأمّا مفهوم العقل عند العلماء فواجب الوقوف عليه لنستبين هذه الماهية التي تعتبر أصل القبول والرفض.

العقل عند العلماء:

جاء الحديث في موسوعة لالاند عن العقل بوصفه ملكة وبوصفه موضوع معرفة:

- بوصفه ملكة:

أ. ملكة الاستدلال نظريا بالعقل، ملكة تركيب المفاهيم والقضايا والعبارات والمقترحات.

ب. ملكة الحكم السليم، أي ملكة تمييز الخير والشرّ، الصحيح والفاسد بشعور داخلي، فطري وتلقائي.

---

[1]- أحمد عبادي: العلوم الإسلاميّة: الاستيعاب والتّجديد، مجلّة الإحياء، العدد 29، 1430هـ- 2009م، ص 77.

[2]- معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 69/4.

[3]- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية: ابن تيمية، تحقيق موسى الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ط1- 1408هـ، ص250.

ج. معرفة طبيعة، طالما أنها تتعارض مع المعرفة المنزّلة، وهي موضوع الإيمان.

د. منظومة مبادئ قبلية، لا تتوقف حقيقتها على التجربة، يمكن صوغها منطقيا، ونحن نعرفها معرفة عقلية. إن معرفة الحقائق الضرورية والأزلية هي ما تميزنا من البهائم العادية وتجعلنا نملك العقل والعلوم، وذلك برفعنا إلى معرفة أنفسنا ومعرفة الله.

— -بوصفه موضوع معرفة:

أ. علاقة. عقل أوسط أو أقصى. عقل متوالية.

ب. مبدأ تفسيري، بالمعنى النظري، ما يحيط بنتيجة. بهذا المعنى، يعارض العقل، إما مع السببية الفعالة البسيطة، وإما مع البرهان المنطقي الذي يلزم بالموافقة، لكن دون تنوير الفكر.

ج. بالمعنى المعياري، سبب أو دافع شرعيّ، تبرير أو تسويغ. وتاليا، حجة ترمي إلى البرهان على أن المرء محقّ حتى إن لم تكن هذه الحجة صالحة[1].

عند علماء المسلمين:

يرى كثير من الأصوليين والفقهاء وعلماء الكلام "ومنهم أحمد بن حنبل، والحارث المحاسبي[2]، وابن تيمية، وأبو حامد الغزالي أنّ العقل عَرَض من أعراض النّفس الإنسانيّة، ولكنّه ليس هو العلم؛ لأنّه إنّما ينشأ عنه وإنّما هو غريزة أو وصف أو قوّة للنّفس. وأقرب التّعريفات التي تمثّل هذا الاتّجاه تعريفهم إيّاه بأنّه (غريزة يتوصل بها إلى المعرفة) وهو تعريف للمحاسبي"[3].

جاء في المستصفى: "اسم العقل مشترك يطلق على عدة معان إذ يطلق على بعض العلوم الضرورية ويطلق على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية. ويطلق على العلوم المستفادة من التجربة، حتى إن من لم تحنكه التجارب بهذا الاعتبار لا يسمى عاقلا.

ويطلق على من له وقار وهيبة وسكينة في جلوسه وكلامه، وهو عبارة عن الهدوء.

وقد يطلق على من جمع العمل إلى العلم حتى أن المفسد وإن كان في غاية من الكياسة يمنع عن تسميته عاقلا،فلا يقال للكافر عاقل وإن كان محيطا بجملة العلوم الطبية والهندسية، بل إما فاضل وإما داه"[4].

---

[1]- موسوعة لالاند: لالاند، ص1159-1163.

[2]- أبو عبد الله الحارث المحاسبي البصري الأصل الزاهد المشهور. له كتب في الزهد والأصول، وكتاب الرعاية له. توفي سنة243هـ. انظر وفيات وأنباء أبناء الزمان: شمس الدين بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر-بيروت، 1900م، 2/57-58.

[3]- العقل وعلاقته بالنصّ الشّرعي: محمد نعيم ياسين، مجلّة الشريعة والقانون، العدد41، محرم 1431هـ ، ص39.

[4]- انظر المستصفى من علم الأصول: أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 1413هـ، ص70.

تتعدّد معاني العقل واستعمالاته، حتّى أنّه كما جاء في موسوعة لالاند يطلق على الدافع الذي ألصقت به صفة الشّرعي لأنّه يملك الحجة الأقوى لكن ليست الأصوب، وبذا فهو يعارض العقل بالمعنى أ و ب. فالعقل قد يستعمل بمعنى ضدّ معناه المتعارف عليه. وهذا ما يطرح التساؤل حول مدى موضوعيّة العقل وسلامة قراراته.

2-2-موضوعيّة العقل:

في القرن الذي تطوّرت فيه العلوم في أروبا وصل الأمر بالنّاس إلى جعل العقل وقوانينه ومبادئه بمثابة قانون أعلى مقدّس، وما يصدر عنه من اكتشافات وإبداعات- خاصّة ما يتعلّق بالتّقانة والعلوم- أهمّ ما يقوّمون به حيواتهم، فمع التشنّج السّائر إلى فقدان الإحساس بالحياة الرّوحيّة النّاجم عن العلاقة المعروفة مع الكنيسة والدّيانة النّصرانيّة المحرّفة؛ ساد وطغى الجوّ المليء بنبذ وهجر كلّ ما يمتّ للدّين بصلة حتّى الأخلاق! ولكن لم يتعامل مع هذا العقل بموضوعيّة، فمن جهة تمّ الوثوق به ورفع مكانته، ومن جهة أخرى أُريد لهذا العقل ألاّ يخطو خطواته ما وراء المادّة وقانون الأسباب لأنّ من المبادئ الملازمة للعقل السّببيّة، والغائيّة، وعدم التّناقض، والتي إن تخلّفت عنه فالواجب اعتبار أنّ ما ينتجه أو يتوصّل إليه ليس من قبيل المعرفة والعلم الموضوعيّين، لذا كان من الغريب أن لا يولي ضمير البشريّة هذا الموضوع الاهتمام اللاّئق به!بل على العكس من ذلك كان التوجّه السّائد ولا يزال التوقّف عن البحث عن السبب والغاية النّهائية للموجودات، وقد يتبنى كثر من الباحثين فرضيّات تقودهم إلى الإلحاد وإنكار قوّة عليا.

إنّ العقل الذي يسوّى بينه وبين البداهة السّديدة يعني الاعتراف بأنّ لدى كلّ امرئ سويّ قدرة حقيقيّة (أو عينية) على إدراك أنّ قضايا معيّنة صائبة أو خاطئة، وتقدير فروق الاحتمالات، وتمييز الأفضل والأسوأ في مجال الفعل والإنتاج[1]. وهذا ما لا يؤكّده الواقع، لذا كان فقدان الثّقة فيما يتوصّل إليه العقل الذي يبحث ويطمح للمعرفة والعلم نتيجة حتميّة، وكونه مصدرا من مصادر القيم لم يعطه الأهليّة في الحكم عليها.

3. الثّقافة:

3-1-مفهوم الثقافة:

لغة:

ثقف حاذق فهم، ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم. ثقفت الشيء: حذقته وثقفته إذا ظفرت به، قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأنفال: 57.

[1]- انظر العقل والمعايير: أندريه لالاند، ترجمة نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص5.

وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقا خفيفا[1].

اصطلاحا:

تطوّر مفهوم الثّقافة عبر مراحل زمنيّة متباعدة إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن. ابتداء برز مفهوم الثقافة في عصر النّهضة، عندما شهدت أوربا في القرن السادس عشر ازدهارا في الفنّ وفي الأدب وفي الفكر.

إنّ المجالات المختلفة للثّقافة التي نلحظها في حياتنا ونعتبرها من مكوّناتها تبيّن التّفاعلات والتّأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع من جهة، وبين الفرد والمجتمع وواقع الحياة من جهة أخرى"فالثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظريّة في المعرفة"[2].

وهي إذن تتعرّف بصورة عمليّة على أنها " مجموعة من الصّفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثّر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه" فهي على هذا التّعريف المحيطُ الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيّته[3].

أمّا معناها في التّاريخ فهو الوسط الذي تتشكّل فيه جميع خصائص المجتمع المتحضّر، وهي الوسط الذي تتشكّل فيه كلّ جزئيّة من جزئيّاته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، وهكذا يتركّب التّاريخ. إنّها تلك الكتلة نفسها بما تتضمّنه من عادات متجانسة، وعبقريّات متقاربة وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة[4].

وابتداءً تتشكّل الثّقافة من رصيد المجتمع التّاريخي؛ من لغته، دينه، عاداته، ومعارفه. ويتدخّل التّفاعل مع الوارد من مكوّنات الثّقافات الأخرى والمغايرة التي تهدّد بتغيير القيم الأصيلة للمجتمع. والقيم ترتبط أكثر ما ترتبط بكلّ ما له شأن وقيمة في حياتنا ورغباتنا سواء أكان له مصلحة بعديّة أم مفسدة، أي سواء أكان حسنا أم سيّئا تبعا لما يترتّب عنه من نتائج، فإن كان أساس المجتمع صلبا بقيمه الحضاريّة وهويّته فستكون اختياراته وتطبّعاته الجديدة والمتجدّدة تصبّ في مصلحته وتراعي مستقبله، أمّا إن أصاب أرضيّته الوهن فستؤول به اختياراته وقيمه إلى الفوضى الفكريّة ومن بعدها الفوضى الأخلاقيّة والمجتمعيّة كما

[1]- لسان العرب: ابن منظور، 19/9.

[2]- مشكلة القافة: مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4-2000م، ص73.

[3]- المصدر نفسه، ص47.

[4]- انظر المصدر نفسه، ص77.

تطوّرت الأحداث في الكثير من البلدان التي طردت محتلّها، ولكنّها بقيت مهزومة ومصابة بكبت عميق نحو مظاهر الآخر التقدّميّة التي أسفرت عن تطوّره وما نتج عنه من مظاهر الرّفاهيّة لمواطنيه.

تسهم مختلف العوامل الثقافية في بيئتنا الفكرية والطبيعيّة في تبنّينا بوعي أو بغير وعي للكثير من القيم التي نحيا بها أو التي نضطرّ لاختيارها. فكلّ مجتمع عبر الثّقافة السّائدة فيه ينشؤ في الغالب الأحكام الذّاتية التي يصدرها الأفراد والمتعلّقة باللّذة والألم، والفرح والسّعادة، والمصلحة والمفسدة، وتأتي سلطة هذه القوّة للثّقافة على العقول والسّلوكات والاختيارات ممّا نَعْرفه بعمليّة التّربية –وفقا للثّقافة السّائدة أو المتبنّاة– أي تحديد مسبق لأسلوب الحياة، "فكلّ واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيّز التنفيذ ولو أنّنا حلّلنا واقعا اجتماعيا فسنجد فيه في وضعه الراهن، أو في اطراد تطوّره عناصر أساسية أربعة: المنهج الأخلاقي والذوق الجمالي والصناعة والمنطق العملي"[1].

3-2-المقاربة التفاعلية للثقافة:

مع الامتصاص الثقافي الواحد من الثّقافات الأخرى المتعدّدة وبفعل طبيعة ثورة الاتّصالات والعلمانية لا ينبغي إهمال التطرّق إلى ما يمكن تسميته بثقافة كونيّة،فما من ثقافة توجد على حال صافية مماثلة لذاتها منذ الأزل، من دون أن يمسّها أيّ أثر خارجي.كلّ ثقافة هي صيرورة دائمة من البناء والهدم وإعادة البناء، وربّما توجّب استبدال كلمة ثقافة بكلمة تثقّف، وهي متضمّنة بعد في كلمة تثاقف للتّأكيد على بعد الثّقافة الدّيناميكي هذا. وبفعل ظاهرة التّماس الثقافي الكونيّة، التي هي ثقافات مزيج بدرجات متباينة تصنعها الاستمرارات والتقطّعات، غالبا ما يكون هناك استمرار بين ثقافتين في تماسّ موصول أكثر ممّا يكون بين حالات مختلفة تنتمي إلى النّسق الثقافي نفسه[2] بسبب الخبرات الجديدة للجنس البشريّ، وبسبب كلّ هذه المعلومات التي يتلقّاها المرء باستمرار، والأنماط الحياتيّة وتفاصيلها والتطوّرات التي تطرأ عليها. ومع مختلف التغيّرات العالميّة صارت الأنظار تتّجه صوب منابع هذه التغيّرات وتتفاعل معها ضمن تخطيط عالميّ مسبق، وكلّ ما سيتمخّض عن هذه الأحداث سيكون له ردّ فعل من المتلقّين له. لذلك كانت الثقافة مصدرا وفاعلا قويّا في القيم.

[1]– مشكلة القافة: مالك بن نبي، ص104.

[2]– انظر مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دنيس كوش، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، ط1-2007م، ص112-115.

4. العلاقة بين مصادر القيم الثّلاث:

كما مرّ فإنّ الدّين والعقل والثّقافة كلّها تغذّي وتولّد القيم التي يحيا بها النّاس. إنها تحدّد نشاطاتهم وميولاتهم من خلال القيم المبثوثة في ثقافتهم ومحيطهم، وبما أنّ القيم تطال معنيين: التقييم المعيّن للشّيء، وتحديد المعايير والمقاييس المستعملة لإصدار الحكم؛ فهناك تأثير متبادل وتفاعل مستمرّ بين المصادر الثّلاث. في المستوى الأوّل يحكم الدّين ويقيّم من خلال سلطته، ثمّ يأتي دور العقل بتفعيل النّظر في الموازنة بين المصالح والتّفضيلات، وتوليد قيم جديدة من رحم الواقع ومتطلّباته.

هذا الحقل المشترك بين التّداخل والتأثّر المتبادل والتّمازج يجتمع في تطبّع أفراد منتمين إلى نفس نسق الثقافة. هناك جملة من "الاستعدادات المكتسبة ومخطّطات الإدراك والتقييم والفعل التي غرسها المحيط الاجتماعي داخل الفرد في زمان ومكان محدّدين. ويتوسّط التطبّع العلاقات الاجتماعية الخارجية وألوان السلوك الفرديّة فهو استبطان الشروط الخارجية الموضوعية، وهو بدوره شرط ضروري لكلّ ممارسة يقوم بها الفرد وفقا لهذا اللاوعي الثقافي. ويقوم الأفراد بأفعالهم كما ينظمونها وينسقونها في جميع ميادين حياتهم دون أن يكون ذلك نتيجة لطاعة واعية لقواعد أخلاقية أو أدبية أو فنيّة من خلال هذه الاستعدادات. وفي صميم تلقائية السلوك المعتاد وعفويّته الحرّة يبدي الأفراد بعض المعايير والقيم المضمرة. كما أنّ التطبّع في حالات قويّة يمنع ويحظر كلّ أنماط أخرى للرّغبة والسّلوك باعتبارها خارج نطاق التفكير"[1]. وعلى حسب التأثير والتغيير من مصادر القيم ومن مكونات الثقافة تتهيّأ شخصيّات جديدة في المجتمع.

[1]– قواعد الفنّ: بيير بورديو، ترجمة إبراهيم فتحي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 2013م، ص11.

المبحث الثاني: المعادلة المعرفية للقيم.

المطلب الأول: القيم في الفلسفة القديمة.

المطلب الثاني: القيم في المرجعية الإسلامية.

المطلب الثالث: القيم في الفلسفة الحديثة.

المبحث الثاني: المعادلة المعرفية للقيم

المطلب الأول: القيم في الفلسفة القديمة

كان الإنسان ولا يزال أهمّ فاعل في هذا الكون، هو الذي يفكّر ويشخّص المشكلات ويضع الحلول، وحتّى يخلق المشكلات لتحقيق غايات في نفسه. وأفكاره تتمحور حول ما يتّصل بعالمه الذي يراه وبنفسه، ما الغاية من خلقه وحياته؟ ما أهمّ القضايا التي عليه أن يسعى لتحقيقها، ما واجباته وحقوقه في مجتمعه وعالمه؟

إنّ الاختلاف حول معالجات هذه الأسئلة وأجوبتها أفرز منذ القدم مدارس فكريّة مختلفة، وحتّى حضارات مختلفة، ومن أهمّ القضايا التي تحكّمت ولا تزال في اتّجاهات سير المدارس الفكريّة؛ مصدر المعرفة ومدى صدقها واحتمالها الصّواب والخطأ، أهو العقل، أم الوحي الإلـهيّ، أم الحسّ الذي يأتي قبل العقل، أم كلّ واحدة من هذه لها نصيب في المعرفة؟ وقد جرّ هذا الاختلاف اختلافا آخر حول القيم وفلسفتها وتفسيرها.

يقرّ علماء الاجتماع بأنّ الأديان كانت مصاحبة للمجتمعات البشريّة منذ القدم، "وإذا نحن أحصينا ضروب المعرفة الإنسانية على كثرة اختلافها وفرط تنوّعها وجدنا من بينها ضربا يجري مع الأديان في مجال ويكاد يعد من عصبتها أو من ذوي رحمها الأقربين، ولا نجد ضربا آخر يزاحمه أو يدانيه في هذا النّسب؛ذلك ما اصطلح العلماء على تسميته باسم العلم الأعلى أو الفلسفة العامّة، فمطلب الفلسفة هو معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية في العاجل والآجل. هذان هما موضوعا الفلسفة بقسميها العلمي والعملي، وهما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع"[1]. وموضوعات الفلسفة الكبرى هي:

- نظريّة الوجود، الأنطولوجيا: تبحث حقيقة الموجودات وأدلّة الوجود. وتنتمي إليها الميتافيزيقا: تبحث في الغيبيّات وطبيعة الحقيقة النّهائيّة.
- نظريّة المعرفة، الإبستمولوجيا: وهي تتناول طبيعة المعرفة ومصادرها، كما تبحث عن العلاقة بين المعرفة والإيمان، وكيف نميّز المعرفة الصّادقة عن الكاذبة.
- نظريّة القيم، الإكسيولوجيا: وهي تتناول: علم المنطق: مواضيع الصّحيح والخاطئ، علم الأخلاق: مواضيع الخير والشرّ، علم الجمال: الجميل والقبيح.

[1]- الدين: محمد عبد الله درّاز، ص59.

1. أهميّة استعراض القيم في الفلسفة الغربيّة :

قد يقلل البعض من أهميّة الفلسفة في فهم العالم اليوم بجانب كلّ المعارف والعلوم التي تميّزه، ولكن هذا الفهم لا بدّ وأن يصاحبه فقه التيّارات الفلسفيّة والفكريّة التي تحكمه، "فمهما بدا في الظّاهر من عدم جدوى الفلسفة إلا أن الفلسفة في الواقع قوّة تاريخية مؤثرة وقادرة، فالذي يغيّر مسار الإنسانيّة هو الفكر"[1]. وقد يبدو أنّ طرح بحث القيم في الفلسفة بجانب القرآن ليس على أهميّة كبيرة، ولكنّه يكتسي أهميّته القويّة بسبب أنّ فهم القرآن صار وقراءته متأثّرين لا محالة بالأيديولوجيات التي فرضت نفسها بقوّة العلم والإعلام، وغالبا ما نجد خطّا غالبا في الدّراسات القرآنيّة يتمحور أو يكاد حول حشد الشواهد من القرآن الكريم والسنة الشريفة مع أقوال المفسرين لهما، فلا يكادون يقدّمون بهذا الطّرح والعرض الجديدَ مقارنة بمن سبقهم، ولطالما بيّنتْ عديد النّظريّات والأفكار الفلسفيّة التي سادت لفترات زمنيّة طويلة أنّ "ما ينفع في إثبات الحقّ ليس هو البناء النظري المتّسق بقدر ما هو تحصيل الاقتناع لدى المخاطب"[2].

كما من الهامّ جدّا أن يبيّن كلّ منتم إلى ديانة ما بغضّ النّظر عن الفروقات وأوجه التّشابه مع الشّرائع الأخرى أو الفلسفات، أن يقدّم ويبيّن ما يقوم عليه دينه من نظام الاعتقاد والقيم بيانا بيّنا وافيا، فلا يكفي البتّة أن يقدّم كلّ دين نظام صلاحه وشرعيّته وهو في ذلك مهمل غير متصدّ للدّيانات والمذاهب الأخرى، فلا يغني متبارزا في الميدان أن يزعم لنفسه الأفضليّة دون لقاء يجمعه مع منافسيه. قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾ يوسف: 39-40.

وقد اختلفت القواعد الأخلاقيّة والنظريات العلمية في الأزمنة المختلفة إلى حدّ يكاد لا يصدّقه العقل، وبالنّظر إلى هذا الاختلاف لا نستطيع أن نقول أنّ تصرّفات من نوع معيّن صواب وأنّ أخرى خطأ إلاّ إذا وجدنا أوّلا طريقة تحدّد أن نظما بذاتها خير من الأخرى... إلاّ أنّه عندما تدّعي عدّة نظم مختلفة أنّ أصلها

[1]- انظر الفلسفة المعاصرة في أوربا: إ.م. بوشنسكي، ترجمة د. عزّت قرني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، 1992م، ص16.

[2]- انظر العمل الديني وتجديد العقل: طه عبد الرحمـٰن، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط2-1997م، ص 29.

جميعا مقدّس بدرجة متساوية، فإنّ الفيلسوف لا يستطيع أن يقبل أيّ نظام إلاّ إذا كانت هناك حجج في صالحه لا تتوفَّر للنّظم الأخرى[1].

2. القيمة في الفلسفة القديمة:

إنّ القيمة بما تنطوي عليه من معنى الخيريّة أو الحسن أو الصّواب – وليس بالضّرورة أن يتّفق الجميع على هذا الصّواب أو الحسن– ليعني بوضوح تامّ أنّ تكوّن القيم وتأثيرها في الأفراد والجماعات لازم الإنسان منذ القدم وتطوّر عبر امتداد الزّمن، وهي الآن وجود بمعنى جديد، فكلّ فلسفة تنطوي على مسعى قيميّ.

يقول لافيل[2]: " إنّنا نشعر أحيانا بأنّ مشكلة القيمة مشكلة جديدة، ولكن ليس من جديد سوى الاسم، أو على الأقلّ التصوّر العامّ الذي يعتنقه الباحثون اليوم"[3]. ذلك أنّ " مفهوم القيمة مفهوم نشاط ذهني يتصوّر أمرا ذا شأو ويسمّيه قيمة، وهذا التصوّر الفكري متّصل أشدّ الاتّصال بالفعل، وما الفعل الواعي إلاّ استبصار واختيار. ونحن ما إن نتّخذ قرارا بتفضيل إمكان على إمكان حتّى يتمّ صنع الفكر، أي صنع اختيار القيمة وتحديدها، فيصبح من شأن تاريخ حياة الفرد، ومن ثمّ، حياة المجتمع، أن يعرّف هذا النّشاط الذّهني الحيّ، ويلمّ بمعرفته على نحو ما يجري في الواقع النّفسي لدى فرد أو أفراد، ويترجم هذه المعرفة بلغة التّواصل الاجتماعي فتنتج مشكلة القيمة "[4]. وسيتّضح أنّ الفلسفات المختلفة هي فلسفات قيمة مادامت مهتمّة بما له قيمة من خلال إقامة تسلسل قيميّ بين مختلف أشكال الفكر والفعل لأجل تقديم قواعد عامّة لهما.

إنّ مشكلة القيمة لم تظهر بهذا الاسم فيما سبق الفلسفة الحديثة، كما لم تظهر الحاجة لتخصيص مشكلة مسمّاة بمشكلة القيمة فقد كان الكائن أو الوجود بمثابة القيمة، أو القيمة العليا. ومع تقدّم الزّمن كان التطوّر القيمي المصاحب له يعمل على إضافة تجليّات جديدة للقيمة. فعقب التّفكير القيمي المصاغ في شكل أساطير وشرائع وحكم، جاء دور التّفكير في فلسفة القيم بمعناها القديم عندما "كفّ النّظر إلى

---

[1]– انظر المجتمع البشري في الأخلاق والسّياسة: برتراند راسل، ترجمة عبد الكريم أحمد، مكتبة الأنجلو مصرية– القاهرة، ص29–30.

[2]– فيلسوف فرنسي ذو نزعة روحية وجودية. ولد بفرنسا عام 1883، وتوفي عام 1951م. انظر موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 343/2.

[3]– العمدة في فلسفة القيم: عادل العوا، ص44 نقلا عن: المطوّل في القيم: لوي لافيل، باريس، 1951–1955، 158/1.

[4]– المصدر نفسه، ص44.

هذا التّراث التقليدي على أنّه مقدّس، وبدأ التّساؤل عن سنده وأساسه، وعارضه الشّعور بخواطر مغايرة، وآراء طريفة، صارت ملاذ الحكم على ذاك التّراث"[1].

3. أهم الفلاسفة القدماء

ومن أهمّ الفلاسفة الذين ذاع صيتهم في الفلسفة القديمة وقدّموا لمجال القيم والأخلاق:

3.1. سقراط:

انحصرت الفلسفة عند سقراط[2] في دائرة الأخلاق،فحوّل النّظر من الفلك والعناصر إلى النّفس لعدم اهتمامه بالنظريّات العلميّة. موقفه لم يختلف كثيرا عن موقف السفسطائيّين الذين رأوا في الطّبيعة الإنسانيّة شهوة وهوى، وأنّ القوانين وضعها المشرّعون لقهر الطّبيعة، وأنّها متغيّرة بتغيّر العرف والظّروف فهي نسبيّة غير واجبة الاحترام لذاتها، ومن حقّ الرّجل القويّ بالعصبيّة أو بالمال أو بالبأس أو بالدّهاء أو بالجدل أن يستخفّ بها أو ينسخها، فقال سقراط بل الإنسان روح وعقل يسيطر على الحسّ ويدبّره، والقوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطّبيعة الحقّة وهي صورة من قوانين غير مكتوبة رسمها الآلهة في قلوب البشر. وقد حاول الوصول إلى كاشف يستطيع بآن واحد أن يكون شاملا وأن يحظى بقبول الناس أجمعين[3].

3.2. أفلاطون:

مضى أفلاطون إلى تعميق محاولة سقراط، وقد جعل وحدة الصّفة الداخلية والصفة الكليّة للقيمة مملكة الفكر الذي يعلو على الشّعور، وهذه المملكة هي عالم الفكرة أو المثل الأعلى حيث يلتقي الكائن بالقيمة. وهي الواقع الأسمى، الواقع المطلق، عالم المثل، وفيه تكون الفكرة أنموذج الشّيء الرّاهن، والعامل الفاعل في إبداعه وخلقه. إنّ الخير الأعلى هو المبدأ الذي يشمل المبادئ كلّها، وفيه تلتقي أنواع الكمال جميعا، وهو موجود يكفي ذاته بذاته، إنّه هو الله، فإذا أدرك العقل والقلب الخير الأسمى أو الله وجب عليه أن يثبّت فيه أنظاره، ويقيس بمقياسه أفعال الإنسان وأعماله. وهذا الخير الأسمى يشغل المحلّ الأوّل في تسلسل المثل العليا التي تؤلّف النّماذج السّرمديّة للعالم، وإنّ مثل الخير الأعلى هو الله وما الفلسفة، وهي فضيلة الإنسان، إلاّ التشبّه بالله[4].

---

[1]- العمدة في فلسفة القيم: عادل العوا، ص66-67.

[2]- فيلسوف يوناني ولد حوالي عام 470 ق.م في أثينا، حكم عليه بالإعدام لاتهامه بالإلحاد. وكان أثره من القوة حيث يشطر اسمه الفلسفة اليونانية شطرين: ما قبله وما بعده. انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص287. وموسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 576/1.

[3]- انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص67-68.

[4]- انظر العمدة في فلسفة القيم: عادل العوا، ص 68-69.

وعنده كلّ شيء يقوم بالنّظام والتّناسب، النّافع ما يجلب الخير، والضارّ ما يجلب الشّر، فإذا اختلّ النّظام فقد الشّيء قيمته وفضيلته. وكما أنّ الكيفيّة التي تحدث في الجسم عن النّظام والتّناسب تدعى الصّحة والقوّة، فإنّ النّظام والتناسب في النّفس يسمّيان القانون والفضيلة. وإذا ما قامت فضائل الحكمة والعفة والشجاعة تحقّق في النّفس النّظام والتّناسب، ويسمّي أفلاطون حالة التّناسب هذه بالعدالة باعتبار أنّ العدالة بوجه عامّ إعطاء كلّ شيء حقّه، أمّا العدالة الاجتماعيّة فهي تحقيق مثل هذا النّظام في علاقات الأفراد.

3.3. أرسطو:

انتقد أرسطو[1] نظريّة أستاذه في المثل واعتبرها فرضيّة زائدة لا يمكن البرهان عليها. وقد حاول تجاوز ثنائيّة القيمة والواقع الأفلاطونيّة، ورأى أنّ درب تحقّق القيمة هو عين درب إنتاج الطّبيعة ذاتها بذاتها. والتسلسل الطّبيعي يمتدّ داخل النّفس ويفسح المجال أمام الارتقاء من فاعليّة تمتزج بالمادّة إلى فاعليّة الرّوح المحضة التي تتجلّى في فضيلة عقليّة أو فلسفيّة قوامها التأمّل وهو الخير الأقصى أي الكمال الأتمّ، وبه تتّحد النّفس البشريّة بالعقل الإلـهيّ[2].

3.4. أبيقوروس:

كان أبيقوروس[3] يهتمّ بالعلم الذي يتّصل بالأخلاق ويعود بفائدة من هذه الجهة، فكانت الأخلاق عنده محور الفلسفة وغايتها، يخدمها العلم القانوني؛ أي المنطق والعلم الطّبيعي، وكان تعريفه الفلسفة أنّها الحكمة العمليّة التي توفّر السّعادة بالأدلّة والأفكار[4]. كانت نظرته الخاصّة هي أن ليس للعلم الطّبيعي قيمة ذاتيّة ولا يعتبر مطابقا لحقيقة الوجود، وإنّما هو، مع استقلاله بقضاياه وبراهينه؛ مرتب لعلم الأخلاق، ذلك لأنّ الظّاهرة الطّبيعيّة قد تحدث عن أكثر من علّة؛ فهي لذلك تحتمل أكثر من تفسير، والغرض من العلم الطّبيعي على كلّ حال تخليص البشر من خوف الظّواهر الجويّة والموت، فالتّفسيرات سواء مادامت تفي بهذا الغرض. ولاحاجة كذلك لاستقصاء تفاصيل العالم؛ فإنّ نظرة إجماليّة تكفي، إذ ليس العلم مطلوبا لذاته بل لعلم الأخلاق وبالقدر اللاّزم له فحسب. وهذا موقف له مثيله في العصر الحاضر مع تقدّم العلوم

---

[1]- ولد أرسطو عام 385 ق.م في أسطاغيرا، تتلمذ لأفلاطون، وقد سمّاه العقل لتميّزه. انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص141.

[2]- انظر العمدة في فلسفة القيم: عادل عوا، ص 69-70.

[3]- ولد سنة 341ق.م من أسرة أثينية، وتوفي عام 270 ق.م. تذكر له كتابات كثيرة، منها: "في الطبيعة" و"القانون". انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص 287.

[4]- انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص287.

واستكمال آلاتها؛ فإنّ كثيرين من فلاسفتنا وعلمائنا يرون القوانين العلميّة نسبيّة أو فروضا نافعة، ويظنّون أنّ هذه النسبيّة هي الطّريقة الوحيدة لتخليص الإنسان من سيطرة الضّرورة المطلقة وإقامة الأخلاق[1].

والسّعادة عنده هي اللّذة الجسميّة فهو لا يعترف بغير المادّة، ويؤول بهاته اللذة إلى السّعادة الرّوحيّة ويستبقي الفضائل المعروفة ويستبعد الرّذائل. والطّبيعة في هذا هي التي تفرض حكمها لا العقل لأنّه لا يستطيع ذلك بسبب أنّ أفكارنا ترجع إلى إحساسات ومن ثمة إلى لذّات وآلام. ومتى تقرّر أنّ اللّذة غاية لزم أنّ الوسيلة إليها فضيلة، والعقل والعلم والحكمة هي التي تقود إلى الغاية المنشودة، وهي الحياة السّعيدة.

يظهر من مذهب أبيقوريس أنّ وظيفة المنطق والعلم هي خدمة الأخلاق التي تدور الفلسفة بدورها حولها، فالعلم يبحث فيما يكفل ويحقّق للإنسان توازن جسمه ففي النّهاية الأفكار هي التي تحكمنا، وهذه الأفكار تصل بنا إمّا إلى اللّذة أو إلى الألم، وفي سبيل تحقيق المنفعة قد يتحمّل الألم الذي يجرّ وراءه لذّة أعظم. وهذه المنفعة أولويّتها في الارتباط بالأخلاق التي تضمن السّعادة، وأبيقوريس وإن كان مبدأه قائما على اللّذة الجسميّة فإنّه يصل به إلى تحقيق السّعادة الرّوحيّة التي لا تستكمل بغيرها راحة وطمأنينة الجسد.

إلى جانب المدرسة الأبيقوريّة ظهرت الفلسفة الرواقيّة التي تطلّعت إلى تحرير الإنسان من أهوائه وشهواته عن غير طريق اللذّة الفاضلة، بل بطريق الفضيلة الحازمة. والقيمة في نظر الرّواقيين تجثم في العقل لا في اللّذة، والعقل يدبّر الطّبيعة مثلما يوجّه النّفس البشريّة، ولذا فإنّ السّلوك الجيّد سلوك تقيّد بالطّبيعة، وإنّ مصدر الألم والأسى يرجع إلى أفكارنا، بل إلى أحكامنا على الأمور، والغاية التي تسعى إليها كل فلسفة في نظرهم، هي أن تضع قوانين للسلوك الإنساني الخيّر، لذا فموضوع الفلسفة هو الفضيلة[2].

يلاحظ بأنّ الحديث عن القيم في الفلسفة القديمة متعلّق في الأساس بالميزات الأساسيّة للحضارات التي قامت آنذاك،وهي تعرف وتستخلص من المظاهر المميّزة لكلّ حضارة، التي بدورها كانت نتاجا للغايات التي رسمتها كلّ واحدة منها وأنتجت تصوّرها للوجود.

والتّاريخ يؤكّد لنا نقطتين مهمّتين هنا:

1. كلّ حضارة قامت وازدهرت كان المحرّك الأوّل لها روحيّا، وحتّى حضارة الغرب الحاليّة التي تتّسم بالتقدّم التقني.يقول مالك بن نبي: "أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنيّة الغربيّة أنّنا ننظر إلى منتجاتها

[1]- تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص290-291.

[2]- انظر العمدة في فلسفة القيم: عادل عوا، ص71-72. وموسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 528/1.

وكأنّها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أنّ ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعيّة خاصّة لا تتصوّر هذه الفنون والصّناعات بدونها، فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنيّة الغربيّة في علومه وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون[...]. ولسوف نصل في النّهاية – إذا ما تتبّعنا كلّ مدني من مظاهر الحضارة الغربيّة- إلى الرّوابط الدينيّة الأولى التي بعثت الحضارة، وهذه حقيقة كلّ عصر وحضارة"[1].

2. كلّ حضارة إذا أهملت الأخلاق ومن ورائها الجانب الدّيني فيها فإنّ مصيرها إلى الاندثار والزّوال إذا ما قامت الحضارة التي تردّها عن طغيانها.

المطلب الثاني: القيم في المرجعية الإسلامية

إنّ المرجعيّة هي التي تحدّد الإطار الفكري العامّ لمعالجة القيم في أيّ دين أو فلسفة أو مذهب فكريّ، كما وتحدّد القيمة النّهائيّة التي تنتهي إليها سائر القيم، هذا مع البرهان والدّليل على سلّم القيم لديها الذي تشكّل استنادا إليها، وباعتبار الجانب المعرفيّ والنّظري الذي يتحكّم في الجانب العمليّ والسّلوكي فإنّه "دونما الكشف عن الأبعاد والبنيات المعرفيّة والإدراكيّة المشكّلة للعقل النّظري لا يمكننا أن نفهم المستويات العمليّة سواء القيميّة- الأخلاقيّة أو السياسيّة. فكلّ سلوك بشريّ هو مرتبط بمرجعيّة نهائيّة نظريّة أو معياريّة، بمعنى منظومة اعتقاديّة موجّهة للتصوّرات وللسّلوكات وللعلاقات"[2].

فما هي المرجعيّة التي تستند إليها القيم الإسلاميّة؟ وهل من الممكن أن يكون هناك قدر مشترك في مرجعيّات مختلفة لقيم مجتمعات لا تربطها نفس اللغة ولا نفس الدّين ولكن تربطها الإنسانيّة والعقل الإنسانيّ المتّزن، خاصّة في العصر الرّاهن الذي أضعفت فيه العلمانيّة الكثير من خصوصيّات المجتمعات البشريّة وهويّاتهم!؟

1. جدليّة القيم والمرجعيّات:

إنّ هناك قيما يجمع عليها كلّ النّاس كالعدل، حتّى أنّ هناك من يرى إمكانيّة ألا تستند القيم إلى أيّ مرجعيّة باعتبارها قيما إنسانيّة مشتركة لا مجال للحديث عن الاختلاف فيها، وأنّ بناء منظومة قيمية بغضّ النّظر عن أيّ مرجعيّة هو الكفيل بتحقيق أقصى قدر من الاندماج بين الأمم والشّعوب وإزالة

[1]- مشكلة الثّقافة: مالك بن نبيّ، ص80.

[2]- الحداثة والسياسة والدين وسؤال القيم: عزّ الدين عزماني، مجلّة الإحياء، العددان 32-33، رمضان1431هـ، ص122.

الحواجز، فهل المرجعيّات الحضاريّة المتنوّعة التي تنتمي إليها مختلف الشّعوب يجب أن تراجع هامش الخصوصية فيها لتجعله ملائما مع حقوق الإنسان ومبادئها الكونية كقيم مشتركة؟

من هذا المنطلق تنادي المنظّمات الدولية على اختلاف مرجعيّاتها بضرورة ترسيخ قيم كالحريّة والتّسامح والتّعايش والكرامة وغيرها، معتبرة أنّها قيم إنسانيّة كونيّة لا خلاف فيها. "ولكن سؤال المرجعيّة يبقى مطروحا للنقاش بين داع إلى الاستناد إلى المرجعيّة التي تحكم كل بلد وتنظّم عقد قوانينه في جميع المجالات استنادا إلى الخصوصيّات الحضاريّة التي تميّزه عن غيره من بلدان العالم، بل وينظر إلى هذه الخصوصيّات باعتبارها نموذجا مختلفا يسهم في تعزيز ثقافة الحوار والتعايش والتفاهم. ولكن هل هناك عقل واحد وفكر واحد أنشأ حقوق الإنسان؟ أو هل هناك إجماع على حقوق الإنسان كما هي مصوغة من قبل كلّ الدّيانات والفلسفات؟ الأكيد لا، فمن يملك القوّة والسّلطة وكيّف تلك الحقوق والقيم التي يدّعى أنّها عالميّة هو من دون شكّ الذي يدعو إلى تحقيق أقصى قدر ممكن من الاندماج بين الشّعوب.

إن المرجعيّة والخصوصيّات الحضاريّة لكلّ أمّة ومجتمع تجد نفسها حاضرة بقوّة في تحديد مفهوم القيمة وليس في القيمة ذاتها، فالحريّة قيمة كونيّة بلا خلاف لكنّها تتداول في الخطاب بمفاهيم مختلفة، فيصبح التدخّل في الشّؤون الدّاخليّة للدّول دفاعا عن الحريّة وتكريسا لها في عرف الغازي، وظلما وقهرا وكتما للأنفاس في عرف المغزوّ، ويصبح تناول المخدّرات حقّا من حقوق الإنسان باعتبار حريّة التصرّف في الجسد في عرف من يتناولها، وهي جرم في حقّ النّفس والمجتمع في عرف من يرى فيها ضررا على النّسيج الصحّي والاجتماعيّ، وقس على ذلك.

ومن هنا يبدو أنّ حضور المرجعيّة مركزيّ في بناء منظومة القيم ولا يتناقض مع طبيعة القيم الكونيّة فالمرجعيّة تحدّد المفهوم، وفي نفس الوقت تعمل على ترسيخه في المجتمع"[1].

2. حضور القيم في التراث الإسلاميّ:

رغم ورود المادّة اللغويّة للقيم في القرآن الكريم مئات المرّات إلاّ أنّ المواضيع التي درست من خلالها كانت تلك المتعلّقة بتزكية النّفس والأخلاق، والتي تعرّض فيها الفقهاء إلى جانب المفسّرين والمحدّثين لبيان الحِكم المتضمّنة في الأحكام الفقهيّة حيث ربطوها بمقاصدها ومآلاتها التي تنتهي إلى قيم سامية

[1]- انظر القيم الإسلاميّة في المنظومة التّربويّة- دراسة للقيم الإسلاميّة وآليّات تعزيزها: خالد الصّمدي، منشورات المنظّمة الإسلامية للتّربية والعلوم والثّقافة- إيسيسكو- 1429هـ، ص13-14.

علّلت بها النّصوص القرآنيّة في مواضع كثيرة من كتاب الله، كمثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: 183. فجعلت التّقوى بامتثال أمر الله غاية سامية تتحقّق بالصّوم.

إنّ اهتمام العرب بمكارم الأخلاق في الجاهليّة واعتزازهم بها، ودعوة النبيﷺ إليها بعد تكليفه بالرّسالة يظهر عناية الإسلام الكبيرة بالأخلاق، عن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ؛ قالت: "كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: 4 "الحديث[1]. ولذلك برزت المؤلّفات فيها في وقت مبكر[2]، كيف لا والقرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة حافلان بما يؤسّس الحياة الدّنيا على كلّ خلق جميل وفضيلة، فكان دين الإسلام بحقّ الدّين الذي يلامس فطرة الإنسان، والتاريخ لا يزال يشهد دخول الخلق الكثيرين حبّا فيما جاء في هذا الديّن من القيم والآداب.

إنّ مراجعة التّراث الإسلاميّ تكشف عن غياب مصطلح القيم بالدّلالة المعاصرة لهذا اللّفظ. ويصدُق ذلك على تراث الفقه والأصول، وتراث التاريخ والرّجال، وتراث التّربية والتّصوّف، وغير ذلك. لقد استعمل العلماء مصطلحات تشتمل على ما يصنّف اليوم تحت عنوان القيم، فمصطلحات الفضائل والشّمائل والأخلاق كانت تغطّي مساحات كبيرة من خصائص السّلوك البشريّ. أمّا دوافع هذا السّلوك فكانت ترتبط بأركان الإسلام وأركان الإيمان، ومفاهيم التقوى والعبادة والجزاء، وكلّ ذلك جعل موضوعات القيم هي موضوعات الإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة ونظام حياة، ينظّم شؤون الفرد والمجتمع، وتتكامل فيه متطلّبات العمل للدّنيا والآخرة. وتتداخل مفاهيم القيم، والمثل العليا، والأخلاق، والفضائل، والاتجاهات النفسيّة والانفعاليّة فيما بينها إلى حدّ كبير[3].

---

[1]- أخرجه أحمد في مسنده، ح24601 ، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

[2]- منها على سبيل المثال: الزهد لابن المبارك(ت 181هـ)، مؤلفات الجاحظ (255هـ) الكثيرة في الأخلاق منها الحيوان والبيان والتبيين، الأدب المفرد للبخاري(ت256هـ)، إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي(505هـ)، الكبائر للذهبي(748هـ)، أيضا من مؤلفات ابن قيم الجوزية (751هـ): الفوائد، مدارج السالكين، الداء والدواء. وفي عصرنا ألّف الغزالي خلق المسلم ، ومحمد عبد الله دراز دستور الأخلاق في القرآن الكريم، هذا بالإضافة إلى البحوث الأكاديمية الكثيرة في الأخلاق والقيم.

[3]- انظر التأصيل الإسلامي لمفهوم القيم: فتحي ملكاوي، ص8-9.

3. نشوء الاهتمام بالقيم:

شكّل الاهتمام المتزايد بالمصطلحات وتطوّرها والتّركيز على دلالاتها دافعا قويّا جعل دراسة القيم تطفو إلى السّطح مجبرة، خاصّة بعد الاهتمام المتصاعد والجادّ بالقيم وفلسفة القيم في الفكر الغربيّ، كما ساعد التطوّر الحاصل في علوم النّفس وتحليل السّلوك وعلوم الإعلام والاتّصال في الارتقاء بالقيم أو فلسفة القيم.

وكان لزاما على الباحثين المسلمين الاهتمام بهذا الموضوع – خاصّة لارتباطه القويّ بالتّربية التي تعدّ في جوهرها عمليّة قيميّة– لخطره ومساسه بمرتكزات ومبادئ دين الإسلام بعد أن صارت قيم الفكر الغربي الذي يخالف الفطرة ويقهر الطبيعة هو السّائد سواء بقوّة المال أو قوّة المعرفة، ولتراجع تأسيس المسلمين قيمهم على مرجعيّتهم.

4. مفهوم المرجعيّة:

تعني المرجعيّة الفكرة الجوهريّة التي تشكّل أساس كلّ الأفكار في نموذج معيّن، والرّكيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها، فهي ميتافيزيقا النموذج. والمبدأ الواحد الذي تردّ إليه كلّ الأشياء وتنسب إليه ولا يردّ هو أو ينسب إليها[1].

والنموذج: بنية فكرية تصورية يجردها العقل الإنساني من كم هائل من العلاقات والتفاصيل فيختار بعضها ثمّ يرتبها ترتيبا خاصا، أو ينسقها تنسيقا خاصا، بحيث تصبح مترابطة بعضها ببعض ترابطا يتميز بالاعتماد المتبادل، وتشكل وحدة متماسكة يقال عنها أحيانا عضويّة[2]. أما المعرفي فيوصف بأنه ما يتعامل مع الظاهرة من منظور كلي ونهائيّ[3].

كما ويحمل النموذج المعرفي حسب الفاروقي[4] رؤى الإنسان الفيزيقية والميتافيزيقية، ونظامه القيمي وعلاقاته المعيارية، ومصادر تشكيل معرفته، وإطاره المرجعي، وهذا يجعل النموذج أداة تحليلية يمكن من خلالها

---

[1]– العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: عبد الوهاب المسيري،دار الشروق– القاهرة، ط1– 2002م، 453/2.

[2]– المصدر نفسه، 444/2.

[3]– انظر المصدر نفسه، 445/2.

[4]– ولد إسماعيل الفاروقي في فلسطين عام م1921، وانتقل فيما بعد إلى أميركا، وتوفي عام 1986م. ألف عددا من الكتب الموسوعيّة المتميزة في تاريخ الأديان والأديان المقارنة وفلسفة الأديان، منها الأطلس التاريخي لديانات العالم، كما له بحوث كثيرة منشورة في الدوريات العلميّة. انظر إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر– تحرير: حسن ملكاوي، رائد عكاشة، عبد الرحمان أبو صعيليك، المعهد العالمي للفكر الإسلامي– الو. م.أ، ط1– 1435، ص25.

إدراك جوهر الظاهرة وفروعها، ويساهم في عملية التفسير بصورة أساسيّة[1].

إنّ المعايير الداخلية التي تتكون من معتقدات وفروض ومسلمات وإجابات عن أسئلة كلية ونهائية هي التي تقف خلف النموذج وتشكل جذوره الكامنة وأساسه العميق، وتزوده ببعده الغائيّ، وهي جوهره والقيمة الحاكمة التي تحدّ حلاله وحرامه، وما هو مطلق وما هو نسبي من منظوره. إنها باختصار مسلّمات النموذج الكلية أو مرجعيّته التي تجيب على الأسئلة الكلية والنهائيّة، ما الهدف والغاية من الوجود في الكون؟ هل الإنسان مادّة وحسب، أم مادّة وروح؟ أين يوجد مركز الكون: أيكون كامنا فيه أم مفارقا له؟[2].

إن دين الله هو إذن مرجعيّة المسلمين، بما هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها من الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية. ولكن الفرد أو مجموعة الأفراد قد يتبنّون قيما ولدت من مرجعيّة بذاتها وإن انتموا لمرجعيّة أخرى، فهي تهيّؤهم لاستبطان وتمثّل قيمها بما حازته من تفوّق وسيطرة، حتّى وإن ادّعوا انتماءهم لمرجعيّتهم، والواقع هو الذي يصدّق ذلك الانتماء أو يكذّبه.

المطلب الثالث: القيم في الفلسفة الحديثة

قبل الخوض في القيمة في الفلسفة الحديثة لا بدّ من إيراد أثر الفلسفة العربيّة في الغربيّة، لأنّ هـٰته الأخيرة تعدّ امتدادا لفلسفة العصر الوسيط الذي تأثّر بالفلسفة العربيّة وبمناهج علمائها ومفكّريها في البحث، والنّاظر بدقّة في التطوّرات والمراحل التي مرّت بها الفلسفة الغربيّة يلحظ أنّها لم تكد تخرج من ثوب العربيّة.

1. أثر الفلسفة العربيّة في الفلسفة الغربيّة:

لم تكن الفلسفة في العالم الإسلامي من عمل الحكماء دون غيرهم، بل كانت عملا مشاعا بين كثير من المتعلمين وأشباه المتعلّمين، لذلك دعت الحاجة إلى المناظرات في مجالس الخاصّة وكتابة الرّسائل في المساجلات والرّدود، ممّا لم يسبق له نظير بين اليونان ومعاصريهم في الزّمن القديم.

وفتحت الفلسفة – أو الفلسفة الصّوفية على الخصوص- الطّريق لبروز آثار التّفكير الجديد في العالم المسيحي وفي العقائد الأوربية على الإجمال، وربّما دلّت على مصدر هذه الآثار نظرة واحدة في أرقام السنين التي ازدهر فيها اللاّهوت المسيحي، ونجحت فيها دعوة الإصلاح الديني واشتدّت فيها الحملة على الرّهبانيّة،

[1]- إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر- تحرير: حسن ملكاوي، رائد عكاشة، عبد الرحمان أبو صعيليك، ص193.

[2]- انظر العالم من منظور غربي: عبد الوهاب المسيري، دار الهلال- القاهرة، كتاب الهلال، عدد206، 2001م، ص20-21.

فلم يحدث شيء من ذلك كلّه قبل احتكاك أروبا بالحضارة العربيّة، تارة في الأندلس وتارة في أثناء الحروب الصّليبيّة. ولبثت المشكلات العقليّة والدّينيّة وما يرتبط بها من المشكلات الاجتماعيّة- كامنة في البلاد الأروبيّة لا تتّسع لها فسحة للظّهور والتماس العلاج والتّعديل، فلمّا توالى الاحتكاك بين المجتمعين العربي والأروبي؛ بين العقول والعقائد، توالى كذلك ظهور الفهم الجديد والنّزعة الجديدة إلى التّفسير والإصلاح على نمط غير النّمط الأروبي العتيق، وجاء الباحثون الأروبيون بما يوافق الفلسفة العربية أحيانا ويخالفها أحيانا أخرى، ولكن المخالفة لا تنفي مصدر التّنبيه ولا تدحض الباعث على التّفكير الجديد[1].

وليس العجب أن تثبت هذه العلاقة التي يستلزمها المنطق والتاريخ، ولكن العجب أن ينفيها من يعلم أنّ العرب أقاموا في الأندلس عدّة قرون، وأنّ دروسهم حضرها رجال الدّين والدّنيا هناك، وأنّ كتبهم قرأها الباحثون في الأديرة والجامعات، وأنّ النّهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة قبل هذا الاحتكاك بينهم وبين الأوربيين[2].

لم تبلغ الكهانة الأوربية مبلغ العراقة من الكهانة المصريّة أو البابليّة، إذ كانت تعدّ أعوامها بالعشرات أو المئات القليلة وقد غبرت على الكهانات القديمة ألوف من الأعوام بعد ألوف. والإغريق لم يتحرّكوا للبحث في الأسرار الإلهيّة والعلوم الطّبيعيّة إلاّ بهداية من أمم الكهانات التي سبقتهم إلى التديّن وعبادة الخالق العظيم، يوم كانوا يجهلون قدرة الخلق ولا يعرفون أنّها صفة لإله العالم بأسره كما عرفها الموحّدون أو المعدّدون في ظلّ الإله الواحد العظيم[3].

لذلك لطالما شكّلت العقيدة والدّين الأرض التي تنبت فيها جذور الفكر الفلسفيّ، ، حتّى أن الفلسفة تظهر على هيئة حلزونيّة بحسب تفاعل عقل الإنسان مع بيئته الفكرية لتشابه عقول البشر والمبادئ التي تحكمها.

2. الفلسفة المعاصرة:

يظهر التتبّع التاريخي للفكر الفلسفي طبيعة القيم التي كانت سائدة من خلال تمثّل غاياتها كما مرّ في المبحث السابق، هذا في الفلسفة القديمة؛ أمّا الفلسفة الحديثة فقد تنامى الاهتمام فيها بالقيم حتّى نشأ فرع للقيم من فروع الفلسفة قائم بذاته.ظهرت عديد النظريّات التي تبحث في طبيعة القيم، إلاّ أنّ تأصيلها لم يتمّ إلاّ في القرن التاسع عشر باعتبارها من المواضيع الفلسفية الأصيلة التي شغلت منزلة الصّدارة بين موضوعات الفلسفة، وكانت بداياتها مع نيتشه الذي دعا إلى إعادة تقييم القيم، لذلك فهو يعدّ الأب الرّوحي لفلسفة القيم.

[1]- انظر أثر العرب في الحضارة الأوربية: عباس محمود العقّاد، دار الكتاب اللبناني- لبنان، ط1- 1978، ص82.

[2]- المصدر نفسه، ص84.

[3]- انظر المصدر نفسه، ص71-72.

والفلسفة الحديثة من المصطلحات التي تُفرّق بين الفلسفة الناشئة في أروبا مُنذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وبين المدارس والأفكار الفلسفيّة السّابقة عليها. كما أنّ هناك من المفكّرين من يفرّق بين الفلسفة المعاصرة وفلسفة الحداثة وما بعدها. ولكن تطور الحياة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كان العامل الأبرز في ظهور الفلسفة المعاصرة، فلقد كانت المشكلة الفلسفيّة في العصور القديمة تنحصر في الإنسان وما وراء الطبيعة[1]، ثمّ صارت مرتبطة بالدين في العصور الوسطى الأوروبية التي عانت من بطش الكنيسة، وبعدها جاءت النهضة الصناعية في أروبا الغربية والاكتشافات العلميّة لتسود النزعات العقلانية والتّجريبية.

3. فلسفة نيتشه:

كان نيتشه فيلسوف واقع إن صحّ التّعبير، لم يكن همّه مناقشة ما يجول بخواطر الفلاسفة غيره كيما يجلب إلى مذهبه مريدين أو مناصرين... لقد أفرز مذهبه تأثيرات عميقة في التّوجّه نحو إرادة القوّة واستعمالها، وبان أيضا صدق تصوّراته وتوقّعاته بشأن تفاعل ما يطلق عليهم السّادة الأقوياء والعبيد الضّعفاء في المواجهات بينهما على المستويات السياسية والاجتماعيّة وأيضا الدّينيّة.

إنّ تميّز نيتشه في كتاباته يأتي من نظرته للواقع نظرة عميقة، وفي ماضيه، وتوقّعاته بشأن مستقبله، لم يحاب الدّين أو العقل أو الأخلاق السّائدة في عصره والتي فرضت نفسها بقوّة المجتمع والأعراف، لقد كانت كتاباته وفلسفته مصبوغة بقوّة الكلمة كما قوّة إرادة الحياة المزدهرة حسب تصوّره، لا مداهنة أو نفاق فيها لتوافق مذهبا اجتماعيّا سائدا.

ويبدو أنّ فهم فلسفة نيتشه يغني عن الكثير من الفلسفات التي كتبت في القيمة وبحثت فيها، فتناوله للقيم يتميّز بالجديّة، التّرابط المنطقيّ، وقوّة أسلوبه وكلماته تنمّ عن الفهم العميق للمواضيع التي يكتب فيها.فهو"أديب مطبوع حشر في زمرة الفلاسفة لأنّه فكّر وكتب في الإنسان ومصيره والأخلاق وقيمتها، وفكّر تفكير الأديب وكتب كتابة الأديب أو النبيّ الملهم"[2].

يتألّف مذهبه من قسمين: أحدهما سلبي والآخر إيجابي. القسم السلبي نقد عنيف للقيم الأخلاقيّة ولثقافة القرن التّاسع عشر أو حضارته وهو يلخّص في كلمة " العدمية الأوربية". يقول إنّ كلّ ثقافة فهي تفترض "جدول قيم" أي عددا من الخيرات تعتبر أعظم الخيرات ويتّجه إليها المجتمع اتّجاهه إلى مثل عليا. وهذا

[1]- ذلك بسبب قربها من فطرة التديّن في تلك الفترة.

[2]- انظر تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، دار المعارف-القاهرة، ط5، ص405.

الجدول يجيء دائما صورة لخلق النّاس الذي يصطفونه، بل صورة لمزاجهم البدينّ، ومن هنا نشأت ثقافتان كبيرتان: إحداهما ثقافة المنحطّين المستضعفين، والأخرى ثقافة الأقوياء السّادة. وجميع القيم التي اصطنعتها حضارتنا ترجع إلى ثقافة المنحطّين وتعود بأصلها إلى الشّعب اليهودي الذي هو شعب عبيد، وتتمثّل في فوز المسيحيّة وانتشار عقائدها، وتؤكّد- المسيحيّة- بنوع خاصّ عقيدة الخطيئة الصّادرة عن إرادة حرّة، والحريّة وهم، وتأمر بالتّكفير عن الخطيئة بالصّبر والتّسليم والطّاعة والاتّضاع، وهي مظاهر انحطاط يبديها القساوسة فضائل ليحتفظوا بسيادتهم على جمهور المساكين، وحتّى العلماء المحدثون الذين يرفضون المسيحيّة يحترمون هذه القيم، فتجد من ينكر العناية الإلهيّة ثمّ يؤمن بالتّقدّم المحتوم وبالتّوافق الضّروريّ بين أفعال الطّبيعة والنّزعات الإنسانيّة، فيستبقي الانسجامات المسيحيّة في عالم خلوّ من الله، وخذ فلاسفة وعلماء كثيرين تجدهم يقنعون بأن يضعوا العلم موضع الله، ثمّ يمجّدون الحريّة والدّيمقراطيّة ويسوّغون طلب الثّراء والرّخاء، وكلّ أولئك علامات انحطاط كانحطاط الإنسان الدّيني سواء بسواء، فيجب تحطيم جدول القيم هذا لأنّه لا يلائم سوى المساكين[1].

إن هذا التناقض في المواقف بين الكفر بالله، وبين اتخاذ آلهة أخرى كالعلم والنصرانية وأخلاقيّة الواجب والدّمقراطية- وهي عندهقيم انحطاط تميل إلى الانطفاء- هو ما جعله يرى أنّ أشأم ما أنتج الرّعاع هو اختراعهم "مفهوم الله، وهو يضادّ الحياة، وعجنوا به خلائط مفزعة تضمّ العناصر الضارّة المؤذية كلّها، وتضمّ ضروب الوشاية والإساءة والحقد ممّا يمكن تكتيله ضدّ الوجود.. اخترعوا مفهوم الخطيئة وأشفعوه باختراع جهاز تعذيب إراديّ أسموه حريّة الاختيار حتّى يضلّوا الغرائز ويتّخذوا سوء الظنّ طبيعة ثانية!.."[2]فإذا كانت القيم التي يطرحها العبد هي بوجه من الوجوه إبداع من الدرجة الثانية، لأنها تصدر عن موقف سلبي منفعل، موقف أخذ لدى العبد الفاعل، فإنّ تلك التي يطرحها الأسياد- وهي تمثّل القسم الإيجابي- تخضع سائر الوظائف بدل أن تخضع لها، إنها إرادة السيطرة والنفوذ، وهي لا تعبّر عن نفسها في التّنازع التّعس من أجل البقاء، بل في إرادة القتال، إرادة القوّة والسّيطرة[3].

[1]- انظر تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، ص409.

[2]- العمدة في فلسفة القيم: عادل عوا، ص 126.

[3]- المصدر نفسه، ص128.

4. ابتعاد الفلسفة عن الدّين:

كان الدّين أظهر مظاهر المجتمعات والشّعوب، وقد كان النّبع الرّئيس للأخلاق والقيم وحتّى لكثير من العادات، كما أنّ الفلسفة لدى ظهورها كانت وطيدة الصّلة به، وكان من آثار اكتشاف الغرب لشعوب وأراضي جديدة في أواخر القرن السّادس عشر ظهور فكرة الدين الطبيعي والأخلاق الطبيعية، وهي"تعتمد على إحدى وجهتين للثقافة القديمة وتغفل عن الوجهة الأخرى؛ فقد كانت المدنية اليونانية والرومانية تقوم على علاقة وثيقة بين المواطنين والآلهة، وكانت العقول مشغولة بالقدر والغيب، وبقيت الأسرار ناشطة طول عهد الفلسفة، وتأثّر بها أعظم الفلاسفة، ويقال مثل هذا في جميع الشّعوب القديمة"[1]. ثمّ أتى وقت أفضى فيه التحرّر من سلطة الكنيسة التي بسطت سلطانها في العالم الغربي ردحا من الزّمن "إلى النّزعة الفرديّة حتّى إلى بلوغ حدّ الفوضويّة. فقد كان الانضباط العقلي والأخلاقي والسياسي يرتبط في أذهان النّاس في عصر النّهضة بالفلسفة المدرسيّة وبالحكومة الكنسيّة"[2].

أوجست كونت:

كان لأوجست كونت[3] دور كبير في ظهور الفلسفة الوضعيّة التي أنكرت الدّين. اتّسم العصر الذي عاش فيه كونت بالفوضى الفكرية، والغوغائية المذهبية، فقد ظلت الشعوب الغربية تعيش حالة من الكبت والحجر على الحريات لأكثر من ألف عام تقريباً. وكانت تلك الشعوب محصورة بين مطرقة رجال الكنيسة وفسادهم وبين سنديان الإقطاع والملوك الظلمة، حيث كان معظم رجال الدين يعيش حياة الترف والانغماس في الرذائل، كما امتلكت الكنيسة العقارات واستولت على أرواح الناس من خلال فرضها جملة من التشريعات جعلت النصارى بقبضة رجل الدين منذ ولادته إلى وفاته، وقد فرضت على العقول ألا تفكر في أمور الكون المادي وأن تلتزم بالتفسيرات الكنسية له، والعلماء الذي يخرجون بعلمهم عن مقررات الكنيسة فإن التعذيب والحرق بالنار مآلهم[4]. هذا من جانب، ومن جانب آخر مساندة الكنيسة للظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتمثل في الإقطاع والملوك الظلمة، فقد وقفت الكنيسة في صف الإقطاع تدافع عنه، وتتوعد الثائرين على

---

[1]- تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، دار المعارف، القاهرة، ط5، ص6.

[2]- تاريخ الفلسفة الغربيّة- الكتاب الثالث- الفلسفة الحديثة: برتراند راسل، ترجمة: محمد فتحي الشنيطى، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2002م،ص8.

[3]-مؤسس الوضعية، والمؤسس الحديث لعلم الاجتماع. ولد عام 1798جنوبي فرنسا من أسرة كاثوليكية، وتوفي سنة 1857م. تعلم في كلية الهندسة في باريس. له: محاضرات في الفلسفة الوضعيّة. انظر موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 2/311-312.

[4]- انظر مذاهب فكرية معاصرة: محمود مزروعة، مكتبة كنوز المعرفة- المملكة العربية السعودية، ط2-1427هـ، ص57-60-248.

ظلمه، تهدّدهم بقرارات اللعن والطرد من ملكوت الله، وحجب صكوك الغفران عنهم، فلما جاء الوقت الذي ثارت فيه الشعوب على ثنائي الجريمة واستنشقت نسيم الحرية لأول مرة منذ ألف عام، انطلق الناس كالسوائم[1] التي طال سجنها فأصابها ما يشبه السّعار[2]، فأخذوا يعبرون عن أنفسهم بأفكار وآراء على قدر كبير من الشذوذ، والكثير من هذه الآراء والأفكار تخطى عدوة العقل إلى عدوة الجنون، وليس من شك في أن أفكار كونت تعتبر أوضح مثال على ذلك.

وباعتبار أنّ القيم موجودة في مستوى الحياة الحسيّة، ومتأثّرة بالزّمان والمكان اللذين يحتويانها، فهي لا محالة تابعة في التطوّر لهما، والإنسان بتكوينيه الجسدي والروحي هو الفاعل الأوّل في هذا الكون، لذلك فأهميّة القيم نابعة من وجود الإنسان في هذا الكون لأنّه هو المعني الأوّل بأمر القيمة.

تمثّل حال كونت الدّينيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة خير مثال عن الذين يتملّصون ويستبدلون الدّين وقيمه بأهواء تخطر لهم كيفما كان... وقد وصل إلى حدّ اختراع دين. إنّه ينعت دينه بالواقعي، والحقيقة أنّ هذا الدّين يكاد يكون كلّه ثمرة العاطفة والخيال في تكوينه والإحساس به، فيقدّم العاطفة إلى المحلّ الأوّل ويطلب إليها إنارة العقل فينتهي إلى مثل الحالة اللاّهوتية التي اعتبرها طفولة النّوع الإنساني؛ حتّى إنّه يتبع في ذلك منهجا يخالف المنهج العلمي فينقطع عن كلّ جديد في العلم والأدب، ويتوفّر على الموسيقى والشّعر الإيطالي والإسباني.. اقتنع كونت بنسبيّة المعرفة، وبهره العلم التجريبيّ فحصر فيه كلّ الحقيقة وجاءت فلسفته الواقعيّة هي الفلسفة الماديّة بالرّغم من تحفّظه إذ أنّها تؤدّي إلى النتيجة نفسها وهي إنكار الميتافيزيقا[3].

ومسيرة الإنسان الغربيّ اتّخذت منحى جديدا بعد أن قطع صلته بالكنيسة، لأنّه بعد أن عانى الأمرّين من بطشها ورجال الدّين – على الرّغم من معرفته العميقة بأهميّة الدّين– إلاّ أنّه قد ترسّبت في نفسه عقد كثيرة منهما ظهرت في ردّ فعله بأن أظهر العداء لكلّ ما يمتّ إلى دين الكنيسة الفاسد بصلة، الدين الذي يهمل الحياة الدنيا ويلغي الوجود الإيجابي للإنسان[4]، كما وأورث لدى الإنسان الأروبي حقدا على الدّين، فكان أن أبدله بالعلم وقدّسه، ولمّا ظهر له أن لا إمكانيّة للعيش بطمأنينة بإهمال الجانب الرّوحي راح يخبط خبط عشواء في الالتجاء إلى أيّ دين بدا له أو فلسفة يقوم باختراعها،وبدأ يتدرّج في الابتعاد عن القيم

[1]– جمع سائمة، وهي كل إبل أو ماشية ترسل للرعي ولا تعلف انظر: المعجم الوسيط– إبراهيم أنيس وآخرون، دار الدعوة،465/1.

[2]– حر النار وشدة الجوع والتهاب العطش والجنون، انظر: المعجم الوسيط، 430/1.

[3]– انظر تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، ص327 وما بعدها.

[4]– انظر مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب، دار الشروق– القاهرة، ط9–1422هـ، ص458.

المرتبطة بخضوعه للدّين الذي ينتمي إليه.وصارت الفلسفة بعد أن ابتعدت عن تمحورها حول الدّين تقترب أكثر فأكثر من الارتباط بأهواء أصحابها في القضايا والمسائل الفكريّة التي يخوضونها.

5. الفلسفة والعلم:

يمشي الإنسان المعاصر على طريق الغرور والاستكبار بما حقّقه واكتسبه، ويظنّ أنّ تقدّمه واكتشافاته العلميّة تحقّق له مزيدا من الحريّة! فطغى بعلاقته بالعلم والتقنيّة واللّذين يستعملها كوسيلة لقهر كلّ صعب في هذا العالم –حسب ما يعتقد– وكلّ غامض بكشفه، هذا مع وجوب الإشارة إلى أنّ العلم التجريبي قد اضطر إلى أن يثبت تعليلات وتفسيرات وأسبابا غير مدركة بوسائله، لأنها ضرورية لاستكمال حلقات المعرفة.مثلا اضطرّ أن يثبت إلكترونات الذرة مع أن أحداً من العلماء لم يشهدها بوسائل العلم، واضطرّ أن يثبت قوى الجاذبية بين الكتل المادية، مع أن وسائل العلم المادي لم تدرك غير آثارها، فلا يعرف العلم التجريبي عن حقيقتها شيئا، إلى غير ذلك من غيبيات اضطُر لإثباتها.

والعلم والفلسفة لم يتعلّقا بدراسة موضوعات متميّزة عن بعضها، وهو والفلسفة فيما يشتركان فيه من حيث المبدأ في الأقلّ كليّ فيما يتعلّق بمادّة الموضوع، يهدف كلاهما إلى المعرفة والفهم، وحين تصير المعرفة النسقيّة أكثر تحصّنا بحيث نطمئنّ أنّها معرفة في مقابل مجرّد الرّأي، فنحن نميل إلى أن نسمّيها علما أكثر ممّا نميل إلى تسميتها فلسفة. ويهتمّ جزء كبير من الفلسفة بأسئلة لا نعرف كيف نجيب عنها بطريقة نسقيّة هي ما يميّز العلم، وكثير من نتائج الفلسفة هي جهود تبذل لمراجعة أسئلة للوصول بها إلى النّقطة التي تتحوّل عندها إلى أسئلة علميّة. وحالما نطمئنّ أنّنا صرنا نحوز على معرفة حقيقيّة وفهم صريح في حقل من الحقول حتّى نكفّ عن تسميته فلسفة، ونبدأ بتسميته علما، وحالما نحرز بعض التقدّم المحدّد نعتبر أنفسنا مدعوّين لأن نسمّيه تقدّما علميّا[1].

5.1. قيمة الفلسفة:

إنّ تاريخ الفلسفة إلى درجة كبيرة هو تاريخ تصادم معيّن لأمزجة إنسانيّة، وأيّا ما يكن مزاج الفيلسوف المحترف، فإنّه يحاول عندما يتفلسف أن يواري حقيقة مزاجه ويسترها. فالمزاج ليس من دواعي التعقّل التي يعترف بها العرف الدّارج، ومن ثمّ فهو يدفع بأسباب غير شخصيّة لتسويغ استنتاجاته فحسب. بيد أنّ مزاجه يعطيه تحاملا وانحيازا أقوى من أيّ فرض من فروضه الأكثر موضوعيّة. إنّه يعوّل على مزاجه ويثق به، ولكونه

[1] –انظر العقل واللغة والمجتمع– الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف– الجزائر، ط1– 1427هـ، ص230-231.

يريد عالما يتّفق ومزاجه، فهو مؤمن بأيّ تمثيل للكون يتّفق معه فعلا البراجماتية[1].

لذلك يعتبر الفيلسوف غيره ممّن لا يوافقونه الرّأي مجانبين له في ما اتّخذه لنفسه من مذهب ورأي، فترى الكثير من الفلاسفة لذلك ينافقون ويسعى المتمكّنون منهم من اللّغة إلى استمالة الغير بقوّة أسلوبهم، وتبعا لذلك تتبع القضايا المصيريّة هي أيضا هذا المزاج المتقلّب وغير الموضوعيّ، فمعظم الفلاسفة مزيج من عناصر متضاربة، وهم لا يكادون يعرفون تفضيلاتهم الذّاتية في المسائل التّجريبيّة، وبعضهم يعدل عنها بسهولة وينتهي باتباع الطراز السّائد أو الانسياق وراء معتقدات أكثر الفلاسفة وزنا وتأثيرا في الجيرة التي يعيش فيها، أيّا ما كان هذا الفيلسوف، وهذا الاحتكام القوي إلى المزاج أثّر ولا يزال في العقائد وما يطالها من تحريف[2].

5.2. قيمة العلم:

إنّ وهم التقدّم عن طريق التكنلوجيا كان قد بدأ يتّضح عقيب الحرب العالميّة الثّانية، إلاّ أنّ التّهويل من قيمة العلم وجعلها تبدو السّبيل الأوفر والأقدر في تحقيق السّعادة للإنسان قد عاد ليتفشّى في عصرنا.

في القرن التاسع عشر كان معظم فلاسفة الغرب يرون بأنّ نيوتن قد أعطى تصوّرا صادقا للعالم وواقعيّا حيث ينتهي تحليل كلّ شيء إلى اندفاعات الذرّات الماديّة والمواقف التي تنشأ عن ذلك(وهذا هو الاتجاه الميكانيكي).ولكن الآن ليس موضعا للشكّ أنّ المادّة ليست بسيطة، بل هي على العكس؛شديدة التّعقيد. إن التطور في النظريات والاكتشافات أدى إلى التشكك في عدد من النتائج كان ينظر إليها من قبل على أنها صحيحة صحة مطلقة ولكن اضطر الباحثون بالتقدم في بحوثهم واكتشافاتهم إلى إعلان نسبية نظريّاتهم.

لقد صار منهاج العلوم الطبيعية تحت المجهر ليس بسبب تطوّر العلوم ذاتها وحسب، بل شارك في خلقه عدد من المفكّرين. ويتّجه نقد العلم إلى الهجوم على قيمة الأفكار العلميّة ونظريّات العلم، وقد بيّنت التّحليلات التّفصيليّة والبحوث التّاريخيّة أنّ هذه الأفكار وتلك النّظريّات هي ذات طبيعة ذاتيّة في قسم كبير منها، فالعالم لا يشرح الواقع بطريقة تعسفيّة وحسب؛ أي تدخل فيها اختياراته وتفضيلاته، بل إنّه كذلك يقوم بعمله ابتداء من أفكار تخرج من ذهنه هو. أمّا عن النّظريّات العلميّة الكبرى، فإنّها، في نظر اتّجاه نقد العلم، لا تزيد في حقيقتها عن أدوات ملائمة مريحة لتفسير التّجربة، والنّظريات العلميّة لا هي بالصّحيحة ولا هي بالكاذبة، وإنّما هي مفيدة وحسب. والعلم أبعد ما يكون عن مثال العصمة من الخطأ الذي كان المفكّرون

[1]- انظر البراجماتية: وليم جيمس، ترجمة محمد علي العريان، المركز القومي للترجمة- القاهرة، 2008م، ص19-20.

[2]- انظر المصدر نفسه، ص21-22.

والعلماء ينسبونه إليه عادة في خلال القرن التاسع عشر الميلادي[1].

ترتهن الأهداف التي تكرّس لها البراعة العلميّة في الواقع الفعليّ إلى حدّ كبير بالصّدفة، فالرّجال الذين يرأسون المنظّمات الضّخمة التي تستلزمها يمكنهم، دون أن يتخطّوا الحدود، أن يوجّهوها على هذا النّحو أو ذاك حيثما طاب لهم. ويبدو أنّ العالم الحديث يتحرّك في الزّمن الحاضر نحو حلّ مماثل لحلّ العالم القديم؛ نظام اجتماعي تفرضه القوّة، يمثّل إرادة الرّجال الأقوياء أكثر ممّا يمثّل إرادة عامّة النّاس[2]. فما دعا إليه نيتشه من فلسفة القوّة هو الذي ساد، وصارت أوّل القيم على سلّم القيم العديدة هي قيمة القوّة؛ القوّة في إخضاع الغير ممّن هم مهيّأون لأخلاق العبيد.

6. الاتجاهات العامّة للفلسفة المعاصرة:

إنّ التّحديد الدّقيق للاتجاهات الفلسفية المعاصرة صعب إذ أنّ التّراث الفكري والفلسفي المتراكم على مدى كلّ الزّمن الذي يسبق الزّمن الحاضر ساهم في التّوالد وتوطّد القرابات بين مختلف المذاهب. فكانت هناك المنتصرة للعقل، والمنتصرة للعمل، والمنتصرة للرّوح... إلخ. وهناك التي برزت وكان تأثيرها أكبر من تأثير غيرها.

6-1-الفلسفة البراجماتية:

تعطي البراجماتيّة القيمة للفكرة وللعمل من أجل النّهوض بالعمل والإنتاجيّة، وقد تأثّرت بمناهج البحث العلميّة والاتّجاهات الواقعيّة المعاصرة.

يرجع معنى البراغماتيّة إلى اشتقاقها اليوناني بمعنى العمل الذي يفيد في العقل اليوناني "مزاولة" و"عمليّ"، أي ما هو ممكن التحقّق لغرض التّطبيق. فحتى ننشئ معنى فكرة، فكلّ ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أيّ سلوك تصلح لإنتاجه[3]. لذلك كانت المعاني تكتسب قوّتها ممّا تعود به من نفع في حياة الفرد وتأثيرها عليه. الحقيقة في البراجماتية هي ما هو الأفضل لاعتقادنا والتّمثيل الجيّد للواقع[4] وتقاس ليس بمدى تناسقها في عقولنا –كما يقول المثاليون– ولا بمدى تطابقها مع الواقع الخارجي–كما يقول الواقعيّون– إنّما حقيقة الفكرة تتمثّل في الممارسة العمليّة التي تدفعنا للقيام بها، وبمدى النّفع الذي سيعود علينا منها.وقد وجدت في النّظام الرّأسمالي الأمريكي خير تربة للنموّ والازدهار من خلال فهم الواقع لاستغلاله والسّيطرة عليه.

---

[1]– انظر الفلسفة المعاصرة في أوربا: بوشنسكي ، ص37.

[2]– انظر تاريخ الفلسفة الغربيّة– الكتاب الثالث– الفلسفة الحديثة: برتراند راسل، ص10.

[3]– انظر المنهج الفلسفي عند وليم جيمس: سفيان البطل، مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث، 9ديسمبر2016م، ص13-14.

[4]– انظر المصدر السابق، ص22.

6-2-الفلسفة الروحية:

ظهرت الرّوحيّة كردّ فعل قويّ ضدّ المنهج التّجريبي للعلوم الطّبيعيّة الذي امتدّ للعلوم الإنسانيّة وطال حتّى الإنسان، فكاد يفقد قيمته ككائن واعي وفاعل، كاد يصبح ظاهرة طبيعيّة، لقد فقد بذلك كيانه العقلي والروحي الذي ميّزه عن بقيّة الظّواهر الأخرى، وقد كان برجسون[1] أشهر الفلاسفة الذين مثّلوا الرّوحيّة.

6-3-الفلسفة التحليلية:

تميّز القرن العشرون بالتّحليل الذي كان من مقتضيات التقدّم العلميّ الحاصل، حيث أنّ تربته الماديّة التّحليليّة أدّت بالضّرورة إلى أن تكون ثمارها الفكريّة واقعيّة، من أجل هذا تعدّدت المذاهب الفلسفيّة المعاصرة التي تندرج تحت التحليلية.وأشهر من عبّر عن هذا الاتّجاه العامّ للفلسفة التّحليليّة المعاصرة هو برتراند راسل[2] الذي جمع في فلسفته أحدث التطوّرات الرّياضيّة وآخر الكشوف العلميّة الذريّة، وقد كان من الفلاسفة القلائل الذين غيّروا فلسفاتهم وطوّروها حسب تطوّر الكشوف الرياضيّة والعلميّة[3].

6-4-الفلسفة الوجودية:

ظهرت في مرحلة ما بعد الحربين العالميتين اللتين أخذتا معهما ملايين الأشخاص، جرّاء الرّغبة في السّيطرة وتوسيع مناطق النّفوذ، فتحتّم النّظر إلى الإنسان ومشكلاته الوجوديّة كالحياة والموت، فهو محور القيم التي يحيا بها ويتعايش معها لأنّه في المحصّلة هو الذي يتحمّل ما يتمخّض عن قراراته ورغباته، ولا يستطيع أحد أن يحلّ محلّه فيها.

إنّ الفلسفة الوجودية بوجه عامّ ثورة على نظريّة المعرفة، وردّ فعل قويّ ضدّ الأهميّة التي أضفتها عليها الفلسفات العقلانيّة، والإنسان في نظر الفلسفات الوجوديّة كائن يمزّقه التوتّر الباطنيّ على نحو شديد، لذا كان الكوجيتو بوجه عامّ معناه إثبات الوجود، الكوجيتو الملتحم مع المواقف أو هو بالأحرى ذلك السّابق على التأمّل العقلي. وإن كان الوجود البشريّ عندهم يتّصف بالاختيار الحرّ، لكن ليس معنى هذا أنّ حريّة الفرد عندهم مطلقة بل هي حريّة مقيّدة لا يوجد فيها الاختيار إلاّ مصاحبا لعدم الاختيار، وهذا الأخير يتمثّل لديهم في المقاومة التي تعترض فعل الإنسان عن طريق العقبات التي يلقاها، أو الظّروف الضّاغطة التي تحدّ من

---

[1]- فيلسوف فرنسي. ولد في باريس عام 1859م. من مؤلفاته: "بحث في المعطيات المباشرة للشعور" و"ينبوعا الأخلاق والدين". انظر موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 321/1.

[2]- فيلسوف وأحد أعلام المنطق الرياضي. ولد عام 1872 وتوفي سنة 1970م. له كتب في الفلسفة والسياسة والتربية، منها "تحليل الفكر"، و"تحليل المادة"، و"موجز الفلسفة". انظر تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، ص431.

[3]- المذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع محمد، مكتبة مدبولي، ط1- 1973م، ص77-79.

انطلاقاته، ذلك الوجود الجاهز الذي يجده الكائن البشريّ مرسوما أمامه ولا حيلة له إلاّ الانخراط فيه، ولهذا فإنّ الوجود البشريّ وجود مهدّد[1].

6-5-الفلسفة البنيوية

إنّ القيمة في الفلسفة البنيويّة تظهر في تحليل البناءات التي تكوّن الظاهرة الكلية أو الفكرة، ومن خلال تحليل تلك البناءات يمكن الوصول إلى الحقيقة، والمجتمع أيضا تمكن دراسته من خلال دارسةِ البناءات التي تكوّنه، وكذلك النصوص الأدبية واللغوية، لأنّ كلّ ظاهرة تتكوّن من طبقات متعدّدة من البناءات أو الظواهر التي تتصل كلّ منها بالأخرى.

وهي تمثّل فلسفة المجتمع الأوربي بعد أن نفض عن نفسه آثار الحرب وتطلّع للبناء. وهي تعني أنّ كلّ شيء في الوجود عامّة والإنسان خاصّة عبارة عن بناء متكامل يضمّ بين جنباته عدّة أبنية جزئيّة تقوم بينها علاقات محدّدة هي التي تعطي هذا الشّيء بناءه وتوضّح وظيفته، وتبيّن مكانه ضمن أبنية الوجود الأخرى. والأشياء التي يتكوّن منها البناء لا قيمة لها في حدّ ذاتها، إنّما قيمتها في العلاقات التي تربطها بعضها ببعض، وهي بهذا المعنى تكون منهجا للبحث والدراسة أكثر منها مذهبا فلسفيا جامدا أو علما ثابتا محدّدا، إنّها منهج يدرس العلاقات دون الأشياء، وذلك بهدف فهم حقيقتها ثمّ التحكّم فيها وإعادة ترتيبها من أجل إصلاحها والارتقاء بها[2].

6-6النّزعة الرومانسية:

هي حركة فلسفية ظهرت في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر كحركة مضادة للنّزعة العلمية التي اجتاحت أوربا منذ حوالي القرن السادس عشر، وكان لها تأثير كبير على مختلف أوجه النّشاط الإنساني من فن وأدب وفلسفة وسياسة.

اهتمّ المثقفون في فرنسا في القرن الثامن عشر بالشعور، وبالخصوص عاطفة المشاركة الوجدانية، فاعتبروا ما وصلت إليه البشريّة من العلم لا يمثّل الإنسان واهتماماته وميولاته أصدق تمثيل بل إنّه ابتعد عن طبيعته البشريّة. وهكذا وقفت النّزعة الرومانسيّة وجها لوجه أمام العلم النيوتوني لتجده غير وارد أكثر من أن تجده مغلوطا، والعالم في نظرهم أرحب ممّا يمكن أن تقدّمه لنا الفيزيقا، فانصرفوا إلى خبرة الإنسان بكلّ اتّساعها وشمولها بدلا من الاقتصار على العلم وحده. وهكذا نستطيع أن نصف النّزعة الرومانسيّة عموما بأنّها قد أحلّت المقاييس الجماليّة محلّ المقاييس النّفعيّة، إذ كانت لأخلاقها دوافع جماليّة منذ البداية، تشبّع أصحابها

[1]- انظر قصّة الفلسفة الغربيّة: يحي هويدي، دار الثقافة للنّشر والتّوزيع- القاهرة، 1993، ص122-123.

[2]- انظر المذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع محمد، ص135-136.

بأخلاق الفلاّحين بما يسود بينهم من تعاطف ومودّة[1].

6-7-المادّية الجدليّة:

يعدّ ماركس[2] مؤسّسها، وهو يقول بالمادّية الجدليّة في تفسيره كافّة حقائق الوجود والطّبيعة والإنسان، "فالمادّة هي الحقيقة الوحيدة في العالم، وقد تطوّرت في مراحل جدليّة لتظهر منها كل أشكال الوجود [...]فالمادّة أسبق من الفكرة وهي أصل وجودها"[3]. لذلك كان الوعي أو العقل عند الماركسيين تابعا للمادّة، والإنسان لا يمكنه الوصول إلى تحقيق وإنتاج ضرورات الحياة إلاّ من خلال المجتمع، ولكن أدوات الإنتاج تبقى هي الحاكمة والمسيّرة للعلاقات بين النّاس، فكل ما يريده الإنسان ويفكر به له علاقة بحاجاته الاقتصاديّة التي تحدّدها طرق الإنتاج والعلاقات الاجتماعيّة التي يخلقها هذا الإنتاج. وينتج عن هذا أنّ كلّ مضمون الوعي الإنسانيّ يحدّده المجتمع، ويتعدّل ويتغيّر بحسب التطوّر الاقتصاديّ. وهي تشابه المذهب البراجماتيّ في اعتبار العمل مقياسا ضروريا للنّجاح.

بقيت الفلسفات التي ذكرت تتطوّر وتنمو أفكارها الجديدة بحسب الحاجات والإلحاحات التي تطرأ على الإنسان، فكانت الفلسفة التي أعلت قيمة العمل وجعلتها الحاكمة على غيرها بما تحقّقه من منافع في نظر أصحابها، وهي في الغالب غير مراعية لمتطلبات الإنسان الأخرى، وهكذا الحال في التي ترى العقل ونتاجه هو المخرج لكل مشكل يواجه الإنسان...لقد تميّزت مختلف المذاهب بضعف كبير في بنيانها النظري، فلم تستطع أن تمثّل الإنسان وتهيّئ له التّوازن الذي يحتاجه حتّى لا يحيى تائها ومستغَلاّ أو مستغِلاّ لغيره.

إن كلّ فلسفة تتبنّى قيما وتولّد قيما خاصّة بها، ومع هذا الاختلاف في الأسس التي تستند إليها مختلف الفلسفات في الغرب في العصر الحديث قد يُتساءل إن طغى فكر فلسفي معيّن هيمن على سائر الفلسفات واجتاحت رؤاه مظاهر الحياة في الغرب، أو أن هناك تجاذبا بين عدّة فلسفات.

---

[1]- انظر مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة: محمد مهران رشوان، دار الثقافة للنشر والتوزيع- مصر، ط2-1984، ص25 وما بعدها.

[2]- مفكر اقتصادي، فيلسوف، وسياسي ألماني. ولد عام 1818م، وتوفي عام 1883م. من أهم مؤلفاته: "رأس المال"، "نقد الاقتصاد السياسي" و"بؤس الفلسفة". انظر الفلسفة المعاصرة في أروبا: بوشنسكي، ص92.

[3]- المذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع محمد، ص36.

المبحث الثالث: دور القيم في البناء الحضاري.

المطلب الأول: دور القيم في البناء الحضاري عند الفلاسفة الغربيين.

المطلبالثاني: دور القيم في البناء الحضاري عند الفلاسفة المسلمين.

المبحث الثالث: دور القيم في البناء الحضاري

قد يكون من المتفق عليه أنّ الحضارة التي تسمها مظاهر القوّة فهي التي تنتزع لنفسها الشهود الحضاريّ. في حين أن من الحضارات من تمتلك أسسا قوية وقيما تتيح لها أن تتصدر كل الحضارات، بينما من الحضارات من لا تمتلك هذه الأسس القوية نسبيا، بل وضدّها من الأسس والقيم التي هي كفيلة بإحداث التراجع الحضاري والانهيار، ولكن نراها في قوة متزايدة واستقطاب لمظاهر حضارتها، فهل يستقيم هذا؟ أو أن الأمر يبقى نسبيا؟ بمعنى أن حضارة ما إنما تبدو في مظهر قوة وتفوق بالمقارنة مع غيرها؟ أو مثلا هي تبدو حقا كذلك ولكنها آيلة إلى الزوال، أو أنّ هذا هو ناموس الحياة؛ إن تراجعت واحدة فستبرز أخرى؟

فما هي مظاهر الحضارة المتفوّقة حاليا، وما هي المعطيات الفاعلة فيها التي جعلت غيرها من الحضارات تنشد اتباع هديها؟ وقبل ذلك ما هو مفهوم الحضارة؟

1. مفهوم الحضارة:

تمثّل الحضارة وجه قيم المجتمع ومرآة فلسفته في الحياة، وقد زاد الاهتمام بالتغيّرات المتسارعة المميزة مختلف الحضارات لصالح تبني قيم مشتركة تكون الحضارة الأقوى هي المسطّرة لها. والحضارة هي " مجموعة ظواهر اجتماعيّة مركّبة، ذات طبيعة قابلة للتناقل، تتسم بسمة دينية، أخلاقيّة، جمالية فنية، تقنية أو علمية، ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض أو في عدّة مجتمعات مترابطة"[1]، كما تعرّف أيضا بـ "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره"[2]. حسب التعريفين فإنّ الحضارات سائرة إلى الذّوبان في الحضارة الأقوى التي أهمّ ما يميّزها العلمانيّة حيث أضحت فلسفتها وقيمها هي الحاكمة على غيرها.

ويميز في الغالب بين حضارتين، حضارة الشرق وحضارة الغرب، "وليس الغرب مقولة جغرافية ولا إثنية ولا دينية ولا لغوية، بل هو بالتحديد مقولة ثقافية، والأمر ذاته بالنسبة إلى الشرق حيث إنّ الغرب لم يخلق غربا ولا الشرق كذلك، فإن كلا المفهومين يخضعان لمراجعة تاريخية تلغي صفاتهما البنيوية وتعيد إليهما قراءتهما في إطار السياق التاريخي"[3]. ولكن مع الهيمنة الثقافيّة من الدّول الأقوى على الأضعف، وبتأثير من الترابط المتزايد بين المجتمعات العالمية والذي يتبع مختلف التطوّرات في العالم اليوم، فواقعنا على هذا الكوكب

[1]- موسوعة لالاند الفلسفية: لالاند، ص172.

[2]- مشكلة الأفكار: مالك بن نبي، دار الفكر، سورية، ط1- 1988، ص42.

[3]- انظر صدام القيم بين الغرب والإسلام: رضوان زيادة، بدون طبعة وبدون تاريخ، الكتاب مرفوع من الشبكة العنكبوتية.

عبارة عن متتالية متصّلة، والتركيب الاجتماعي والقيمي يمشي عليهما ما يمشي على باقي المجالات من التأثّر بحضارة الغالب.

2. تشكل القيمة ومساهمتها في البناء الحضاري:

إنّ أبعاد تقدير القيمة باعتبار الظّروف الملابسة لموضوع القيمة (أي الشّيء محلّ القيمة) تدور حول ما يملكه الإنسان وتقدّمه له القيمة ويعيشه في مزاجه الملابس لها في تلك اللحظة مع التّأثيرات التي مرّت به من قبل، مع ما يملكه حاليا. القيمة لأنها تختلف باختلاف وضعية الشيء بالنسبة لصاحبها؛ اختلاف الظرف النفسي، المادي... فهي صعبة التحديد لأنّها ليست فيه في حدّ ذاته وإنما تعلّقها القويّ بنظرة وتقييم الإنسان للشيء محلّ القيمة، أي في العلاقة بين الإنسان وبينه، لذلك تراعى في هذه العلاقة كلّ نواحيه النفسية، الاجتماعية، المادية... والمرتبطة بزمن معيّن، فالقيمة هي وعي بضرورة وأهميّة الشّيء بالنّسبة للإنسان، ومرتبطة في المقام الأول بوعي الإنسان لذاك الشّيء بالنسبة إليه في ظرفه الرّاهن. هناك جزء من القيمة المادّي، الرّمزي، المعنويّ، العاطفي... لذلك يعدّ الاعتناء بالإنسان وتربيته على سلوكات مخصوصة هي مساهمة في إنشاء وعيه وتطبيعه بما يريد المربّي. تبعا لهذا يمكن أن نجعل شيئا ذا قيمة عالية وبالغ الأهميّة ليس ذا قيمة، أو العكس؛ أن نجعل شيئا عديم القيمة ذا قيمة.

الوعي بالقيمة من أهمّ محدّدات القيمة، مثلا اعتقاد أن الشّيء حقيقي يجعلنا نتصرّف على أساس أنّه حقيقيّ، فاعتبار المجنون مثلا أنّ شخصا ما موجود بجانبه يجعله يتصرّف كما لو أنه موجود بجانبه لأن ذاك ما يعتقده حقّا، فهو بالنّسبة لنا يتوهّم ولكنّه يعيش حقيقة مع نفسه، وهذه نفس الفكرة بالنّسبة لما يشكّل عالمنا الخارجيّ.

إذن فللقيمة موجود داخلي وهو الوهم أو الظنّ أو ما يرتقي إلى درجة الاعتقاد، وموجود خارجيّ متحقّق بشكل مادّي. والإنسان أو الأطراف الفاعلون هم الذين يقفون على تحديد القيمة.

وإذا كانت هذه هي أبعاد القيمة على الإنسان، فما حاله مع قيم تتعدّى عليه وتفرض نفسها بالتكرار والقوّة حتّى أنّه تصيبه الحيرة والدّهشة حيالها وحيال سحرها وتزيّنها في قلبه، فلا يملك حيالها دفعا، ولا حتّى تلك القيم التي تكافئها في المواجهة أو تتغلّب عليها؟!

المطلب الأول: دور القيم في البناء الحضاريّ لدى الغرب

1. أبعاد قيم الفلسفة الحديثة على حضارة الغرب:

سبق وتناولت الدراسة القيم في الفلسفة الحديثة لدى الغرب، وكيف انسحبت قيم أصيلة لصالح قيم جديدة همّشت الإله وتعدّت على دور الإنسان وموقعه من هذا الكون، حيث "ظهر إسبينوزا[1] الّذي حوّل العالم إلى منظومة واحديّة رياضيّة مصمتة، الإله فيها هو الطّبيعة. ثمّ جاء نيتشه واكتشف أنّ العالم الذي يصبح فيه الإله قانونا طبيعيّا وتتحكّم فيه حركة المادّة هو عالم موت الإله، أي أنّه عالم مادّي تماما لا قداسة ولا ضمان فيه لأيّ شيء، عالم خال من المعنى، محايد، لا قيمة فيه ولا غاية ولا سبب ولا نتيجة، ومن ثمّ، لا يبقى سوى إرادة القوّة وعالم داروين[2] الذي يتجاوز الخير والشرّ، وفيه تحسم الأمور ببساطة البارود وسذاجته"[3].

لم يتغيّر الكثير في مفاهيم القوة وتطبيقاتها لدى الغرب في العصر الحديث ، فبعد أن كانت أو أريد لها أن تكون القوة التي تبطش وهي الكنيسة – ومن المهم الإشارة إلى أن هـٰته الكنيسة كانت محافظة على النظام العام، هذا من دون غضّ الطّرف عن حفاظها على الأخلاق التي كانت سائدة في العصور الوسطى وما بعدها إلى غاية وقت متأخّر من هيمنة الفكر التنويري، وقد شكّلت الروح الدينية البذرة التي نمت منها حضارة الغرب القائمة الآن. والتفكير الديني لم يزح، بل أخفي أو طمر، وهو مستعدّ للخروج متى سمحت له موازين القوة ذلك، أو متى صار لا بدّ من استعماله– انتقل ذلك لأصحاب القوة، أو مسطّري الإيديولوجيات في العالم الغربي فكان لهم التحكم أكثر فأكثر في أبسط تفاصيل حياة الأفراد وتوجيهها كيفما اتفق لهم أو اقتضت مصالحهم. وما يدعم هذا التوجّه في العالم الغربي هي مؤسسات تربوية ومناهج تعليمية وجهود حشود من المختصين يشكلون ما يشبه البناء الصلب، فحتى وإن تضاربت بعض آرائهم فذاك البناء يبقى قائما، وهذا هو الدور الذي تضطلع به الحضارة.

---

[1]– فيلسوف هولندي، ولد في أمستردام عام 1632م، وتوفي عام 1677م. ألف " رسالة صغيرة عن الله والإنسان وسلامة روحه"،"الأخلاق"، و"مبادئ فلسفة ديكارت". انظر موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 137/1.

[2]– عالم حيوان إنجليزي، اشتهر خصوصا بمذهب التطور. ولد في إنجلترا سنة 1809م، وتوفي سنة 1882م. من مؤلفاته المشهورة: أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي، تغير الحيوان والنبات تحت تأثير الاستئناس، التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوان. انظر موسوعة الفلسفة: بدوي، 473/1.

[3]– العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: عبد الوهاب المسيري،48/1.

1-1-العقلانيّة الماديّة:

ترى العقلانيّة الماديّة والتي يطلق عليها الاستنارة أن عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كلّ شيء أو معظم الأشياء، ويعمق فهمه للواقع ولذاته، وبالإمكان تسمية هذه الرّؤية الاستنارة المضيئة. وعندما يتحدّث معظم الدّارسين عن حركة الاستنارة فهم عادة ما يشيرون إلى هذا التيّار داخلها. ولكن ثمّة جوانب تفكيكيّة كامنة في الرّؤية العقلانيّة الماديّة، فإذا كانت تسري على الإنسان القوانين الماديّة التي تسري على كلّ الظّواهر الطّبيعيّة (أي أنّه ليس ذا أصول ربّانيّة متعالية متجاوزة) فلا يمكن الحديث إذن عن مركزيّة الإنسان في الكون، أو عن مقدرته على تجاوز ذاته الطّبيعيّة/ الماديّة، أو عن أنّ الإنسان خيّر بطبيعته واجتماعيّ بفطرته، أو عن أنّ الذّات الإنسانيّة مبدعة حرّة مستقلّة... إلخ.وقد تزايد إدراك الفكر الغربيّ الحديث لهذا. ولعلّ هوبز[1] أوّل مفكّر وضع يده على الأطروحات المظلمة في العقلانيّة الماديّة حين أعلن أنّ حالة الطّبيعة (وهي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون) هي حالة من حرب الجميع ضدّ الجميع، وسيتمّ التعاقد الاجتماعي بين البشر، لا بسبب فطرة خيّرة فيهم، وإنّما من فرط خوفهم وبسبب حبّ البقاء، فينصبون الدّولة التنّين حاكما عليهم. وكمحصلة تختفي الذّات الإنسانيّة الواعية الحرّة، ويختفي الكائن المسئول الملتزم بمنظومات معرفيّة وأخلاقيّة محدّدة.لقد ظهر التّشكيل الإمبريالي الغربي الذي رشّد الدّاخل الأوربي وافترس الخارج العالميّ، وظهرت العنصريّة الغربيّة، وبعد حربين غربيتين عالميّتين وتلوّث العالم البيئيّ والأخلاقيّ أصبح الحديث عن الاستنارة المضيئة أمرا صعبا تحيط به الشّبهات، واكتسبت الاستنارة المظلمة مصداقيّة عالية، لقد أنتجت إنسانا مرتبطا تماما بأنماطه الاستهلاكيّة، أو علاقاته الجنسيّة العابرة، أو الموضات الجديدة، أو تجربة من تجارب الميديا. أي أنّه أصبح شيئا مجرّدا من القداسة والسّمات الشخصيّة والإنسانيّة[2]. ولكن كيف يمكن تأسيس مجتمع يدور كلّ فرد فيه حول منفعته أو متعته الشّخصيّة؟! ومع هذا أسس هذا المجتمع والذي يدعم أساساته وبناءاته بالقوة في الحفاظ على القانون وإخضاع الجميع – نسبيا- له، ونجح في إعطاء الثقة للفرد المواطن بدولته وقدرتها وكفاءتها في حمايته وحفظ حياة عزيزة له...إلخ. والقوة هنا نسبية، فبالمقارنة مع دول المسلمين، هذه الغربية تبقى قوية، لأن الأخرى لا تكاد تقيم حتى حياة طبيعية نسبيا لمواطنيها! فمهما تحدّثنا عن البناء الحضاري ووصفناه بالهش والآيل إلى السقوط أو الزوال؛ فهو يسبق

[1]- فيلسوف إنجليزي. ولد في وستبورت سنة1588م، وتوفي سنة 1679م. من مؤلفاته: في الجسم، عناصر القانون. كان ماديا مغاليا في المادية. انظر موسوعة الفلسفة: بدوي، 2/ 554-556.

[2]- انظر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: عبد الوهاب المسيري، 1/181-185.

بمراحل وخطوات واسعة وكثيرة البناء الحضاري للمسلمين في العصر الحالي.

الغرب هو الذي صاغ معادلة العالم، وهو الذي يضيف إليها وينقص منها، والعلمانية التي أفرزها مسّت الخصائص الحضارية الخاصة بإنسان عصر ما بعد الحداثة، الغربي والشّرقي أيضا.

1-2-مفهوم العلمانيّة:

تتصدّر فكرة فصل الدين عن الدّولة مفهوم العلمانيّة لدى معظم النّاس، بينما هي –وفقا للواقع– تخلّلت أدقّ التفاصيل في حياة الأفراد الذين اتّبعوا فلسفة الغرب في الحياة. ما حدث بداية هو أنّها مسّت بعض الجوانب الحياتية لكن مع حفاظ المجتمع الغربيّ على تقاليد الأخلاق المسيحيّة– فهي لم تمّح تماما– بمعنى أنّ العلمانيّة كانت بدايةً جزئيّة، ثمّ توالت العلمانية الشّاملة لتهيمن على سائر مظاهر الحياة وتتغلغل إلى أدقّ التّفاصيل في حياة البشر. فـ"الواقع الإنساني يتكوّن من بنيتين (أو مستويين) البنية الظاهرة والبنية الكامنة، وعادة ما تكون البنية الظّاهرة تبديّا للكامنة. ويمكن القول بأنّ الأولى إن هي إلاّ مجرّد إجراءات وأفعال تشكّل تجليّا للثّانية، ولا يمكن فهمها حقّ الفهم إلاّ بالرّجوع إلى الدّائرة الأشمل لأنّها هي المرجعيّة النّهائيّة.

ويوجد في تصوّرنا [يقول المسيري[1]] علمانيّتان لا علمانيّة واحدة، الأولى جزئيّة ونعني بها العلمانيّة باعتبارها فصل الدّين عن الدّولة، والثانية شاملة ولا تعني فصل الدّين عن الدّولة وحسب، وإنّما فصل كلّ القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة والدّينيّة؛ لا عن الدّولة وحسب وإنّما عن الطّبيعة وعن حياة الإنسان في جانبيها العامّ والخاصّ، بحيث تنزع القداسة عن العالم ويتحوّل إلى مادّة استعماليّة يمكن توظيفها لصالح الأقوى"[2].

وكان يتوقّع أن تحقّق هذه العلمانيّة للإنسان الغربي الطّمأنينة والسّعادة، حتّى أنّه لمّا بدأ يعاين الظواهر السلبيّة لم يكن يوليها الاهتمام الذي يناسب خطرها. لقد سحرت المزايا الجديدة لها من التفوّق التقني والمزايا الاجتماعيّة المغرية بالتحرّر من المسؤوليّات؛ سحرت وزيّنت للإنسان ما وصل إليه من عادات اجتماعيّة جديدة ودينيّة. لذلك "استمرّ في تهميش الجوانب السّلبيّة وتهميش المصطلحات التي تشير إليها. وظلّت هذه المصطلحات، بمدلولها السلبي، خارج نطاق عمليّة تعريف –أو إعادة تعريف– العلمانيّة"[3].

---

[1]– مفكر ومؤلف عربي، ولد عام 1938 بمصر، وتوفي سنة 2008م. من أهمّ أعماله: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونيّة: نموذج تفسيري جديد. انظر elmessiri.com.

[2]– العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: عبد الوهاب المسيري، 16/1.

[3]– المصدر نفسه، 40/1.

نجحت العلمانيّة في أسر الإنسان بعد أن همّشت دور الدّين وقزّمته، وأعقبت ذلك بتقهقر الأواصر الاجتماعيّة وأبدلتها بعلاقات صاغتها هي؛تسحب الفرد بعيدا عن محيطه لتصيره مغتربا حتى وسط أسرته.

خلق المولى تعالى الإنسان وفيه غريزة التديّن والتوجّه بالعبادة لمن يعتقده ذا قوّة قادرة على كل شيء، أو قوة خارقة كمن يعتقد ذلك في الطّبيعة على سبيل المثال، أو حتّى ترجمة هذه الفطرة الموجودة فيه باختراع طقوس معيّنة تجعله يعيش حالة من التديّن والتوجّه لقوّة ما والخضوع لها. استغلّ الإنسان ذلك لمـّا أراد أن يوجّه الإنسان وأن يتحكّم به وأن يسير به في الطّريق التي يريد له أن يبلغها، وتعتمد هذه الفكرة في الأساس على التسلّط على الإنسان وجعله تابعا بصبغه بقيم مخصوصة عن طريق التّربية عليها،كما عن طريق نشر الجهل والفوضى الخلقية- عن طريق برامج تهيئة العقول لتحميلها بالقيم التي يراد تحميلها بها- فيجد نفسه ينقاد راضيا غير مكره.

2. أبعاد قيم العلمانية في البناء لدى الغرب:

تتّضح القيم التي ولّدتها العلمانيّة من رحمها في مصطلحات صيغت أساسا للإبانة عن الأبعاد التي خلقتها، فقد "ظهر عدد لا حصر له من المصطلحات يشير بعضها إلى الثمرات الإيجابيّة لعمليّة التّحديث أو العلمنة، من بينها: التقدّم- الحراك- زيادة الإنتاج- هزيمة الطّبيعة- معرفة قوانين الواقع والتحكّم فيه.

وفي الوقت نفسه ظهرت مصطلحات عديدة تشير إلى بعض النتائج السلبيّة، أو إلى ظواهر سلبيّة مرتبطة بها أو ناجمة عنها، من بينها: أزمة الحضارة الحديثة- ثمن التقدّم- التلوّث البيئيّ- هيمنة النماذج الماديّة والكميّة والآليّة- الاغتراب- أزمة المعنى- هيمنة القيم النّفعيّة- سيادة العلاقات التعاقدية بدلا من التراحميّة- الإحساس بالعبث- التسلّع (أي تحوّل الإنسان إلى سلعة)- التشيّؤ (أي تحوّل الإنسان إلى شيء)"[1].

- التعاقدية والحوسلة:

التعاقد الذي اشتقّ منه مصطلح التعاقدية معناه أن تتحوّل العلاقات بين البشر من علاقات إنسانيّة تراحميّة لا تخضع تماما لحسابات الرّبح والخسارة إلى علاقات تعاقدية مضبوطة أو خاضعة للتفاوض، وحوسل بمعنى حوّل الشّيء أو الإنسان إلى وسيلة. والرؤية العلمانية الماديّة رؤية تردّ العالم إلى مبدأ واحد، وترى الإنسان والطّبيعة باعتبارهما مجرّد مادّة استعماليّة يمكن توظيفها في أيّ هدف أو غرض يحدّده الإنسان(صاحب القوّة)[2].

[1]- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: عبد الوهاب المسيري ، 41/1-42.

[2]- المصدر نفسه، 131/1.

إنّ اهتمام الإنسان بالجانب المادّي (تجميع مال بهوس- اقتناء أحدث الأجهزة الإلكترونيّة- اجتهاد في العمل مبالغ فيه لدرجة الإرهاق الشّديد... إلخ) قد ينبئ في معظم الأحايين عن لا توازن عند المعنيّ به نشأ لفقره الرّوحي أو العاطفيّ أو ضعفه النّفسي، وربّما كذلك أيّما انحراف مبالغ فيه قد ينشأ لنفس الأسباب. والظّاهر أنّ الإنسان يخدع نفسه أو حقّا جاهل بالضّريبة الثّقيلة المحمّلة بما أفسد ولا يزال يفسد النّظام الطّبيعي والطّبيعة الإنسانيّة مشكّلا سلسلة طويلة حلقاتها، مترابطة أشّد التّرابط، إنّه فساد وإفساد يشدّ بعضه بعضا.

هناك شقّان مهمّان أدّيا إلى تعميق حوسلة الإنسان وتشييئه هما: العمل والاستهلاك، فإن كان العمل يتمّ من أجل المنفعة والصّالح العامّ فقد أصبح لاستعباد الإنسان ، ونتج عنه كردّ فعل استهلاك غير مدروس فيمحاولة لتدارك ضغط العمل المستعبِد له لجعله يبدو ذا معنى.

- الإنسان والعمل:

إنّ من أبعاد قيم العلمانية ظهور مفاهيم خاصّة بالعمل، أنتجت أناسا يشابهون الآلة في عملها، فلا أخلاقيات خاصّة بالعمل، ولا علاقات تراحميّة.

وأصبحت الإنتاجية هي ميزة الأمم الحديثة، فهي تؤسّس تحولا عميقا داخل الحداثة يتجلى في الانتقال من حضارة العلم والتقدّم إلى حضارة الاستهلاك والترفيه[1]. لقد صار العمل الإنساني عنصرا"من عناصر الإنتاج على قدم المساواة مع الطّبيعة ورأس المال. ولذا، فالعمل مجرّد رأس مال بشريّ قابل للتّصدير وحساب منافع تصديره وتكاليفه، كما تحسب منافع وتكاليف أيّة سلعة أخرى"[2].

ومن أوضح مظاهر علمنة العمل إلغاء الفاصل بين العامّ والخاصّ. ففي المراحل الأولى من العلمنة تترك الحياة الخاصّة للأفراد تماما، وتصبح هي الأرض المقدّسة بالنّسبة لهم، ولكن بعد قليل تختفي الحياة الخاصّة، إذ يوظّف المرء كلّ شيء في حياته الخاصّة في خدمة عمله، ولعلّ ظهور الهاتف المحمول إيذان بوصول هذه العمليّة إلى نهايتها ومنتهاها، وهي عمليّة بدأت بعلمنة يوم العمل الذي أصبح ممتدّا، فالعمل تمّ استعماره تماما من قبل المجتمع[3].

[1]- انظر الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة – نموذج هابرماس-: محمد نور الدين أفاية، إفريقيا الشرق- المغرب، ط2- 1998م، ص113.

[2]- العلمانيّة الجزئية والعلمانيّة الشاملة: عبد الوهاب المسيري ، 1/151-153.

[3]- المصدر نفسه،2/152-153.

لقد كفّ الإنسان "عن تصوُّر نفسه كمركز لنشاطه، وأصبح معتمدًا بالكامل في قدرته على الحب وقدرته على التفكير على قوى أخرى خارج نفسه. من هنا بدأت الغربة في التسلل والحضور، أصبح الإنسان غريبًا عن الطبيعة، وغريبًا عن أخيه الإنسان، وغريبًا عن نفسه"[1].

- الاستهلاك السلبي:

من ميزات هذا العصر الإفراط في الاستهلاك، إنه استهلاك يشبه مرض الإدمان، فلم يعد الغرض منه هو إشباع الحاجات بل تعظيم الإشباع لمجرّد أنّ صاحبه يريده، صار الإنسان يرى أن الهدف من الحياة هو تزايد التحكم في الطبيعة وتراكم السلع.

هناك مثلا فكرة العلامات التجارية التي تستند بقوة إلى ما تحدثه من إخضاع للفرد وسيطرة عليه، فقد هيّأت مسبقا الفرد بقوّة الإعلانات والاعتداءات المستمرة على حياته الخاصّة، فأخذت بذلك حيّزا من وعيه ولاوعيه وذاكرته، فيجد هذا الفرد نفسه مساقا إلى اقتناءها وإن علا ثمنها! لأنّه خاضع.

صار المستهلك "أحادي البعد، هو شيء أنيق الملبس، يستهلك كل السلع المطلوب منه أن يستخدمها [...] يظن الإنسان أنه يمارس حريته وفرديته! فمجال الاختيار في عالم السلع واسع لأقصى حدّ. ولكن هذا يخبئ الحقيقة الأساسية وهي أن مجال الاختيار في الأمور المهمة (المصيرية والإنسانية والأخلاقية) قد تقلص تماما واختفى، وأن هذا الإنسان فقد مقدرته على التجاوز وعلى نقد المجتمع، وأصبحت عنده مقدرة عالية على التكيف وقبول الأمر الواقع والإذعان له"[2].

2-1-دور قيمة الصّورة في البناء الحضاريّ:

من أبرز المظاهر التي تأصّلت في عصرنا، والأفكار التي ترسّخت في عقولنا الاهتمام المتزايد والمبالغ فيه بالصّورة، حتّى عادت قيمة مسيطرة على غيرها من القيم ومؤثّرة فيها. وسيطرة قيمة الصّورة تعني تقييد الإنسان بوهم، الوهم الذي ساهمت في صناعته وكالات الصور التي تهدف إلى إخضاع الواقع لرؤيتها الخاصّة. مع وضع في الحسبان أنّ دوافع هذه الحضارة تصدر عن ذوق الجمال أكثر مما تصدر عن المبدأ الأخلاقي.

لقد أصبح عصر الصّورة "يشير إلى العصر الذي تهيمن فيه الصورة وتسود لتكون إحدى أدواته المعرفية والثقافية والاقتصادية المركزية، كما يتم الحديث عما يسمى "ثقافة الصورة" إشارة إلى الدور المتعاظم للصورة في مجال تواصل البشر وتسجيل خبراتهم وأحوالهم ناهيك عن اقتصاديات صناعتها، ولا يعني هذا الوصف

[1]- العزلة والاغتراب في المدن- الجانب المظلم من الحضارة في لوحات إدوارد هوبر: مريم عادل، مقالة إلكترونيّة.

[2]- العلمانيّة الجزئية والعلمانيّة الشاملة: عبد الوهاب المسيري ، 145/1.

أن الصورة أمر مستجد في التاريخ الإنساني، وإنما يعني تحولها من الهامش إلى المركز، ومن الحضور الجزئي إلى موقع الهيمنة والسيادة على غيرها من العناصر والأدوات الثقافية.

[...] من زاوية سيكولوجية فإن منطق الصورة يقوم على تأسيس الإدراك الصوري وليس الوعي بحقيقة الأشياء، وهذا الإدراك يصدر عن إحساس باللذة والفرح عند التعرض لموجات الصورة[1]، ومن زاوية أنثربولوجية، فإن منطق الصورة يقوم على تعزيز أساطير الجماعية من خلال تمثلات إدراكية صورية تقوم على الرغبة والقوة والنرجسية، وليس من خلال قيم ثقافية ومعرفية مؤسسة، ولو اكتفينا بهذين المجالين فإن منطق الصورة منطق فاقد للقيم المرجعية التي تؤسس للفعل التاريخي المتعين في أبعاده الاجتماعية والثقافية والسياسية[2].[...] فمن المؤكد – يقول دوبريه.[3]– أن الصورة تتضمن قدرة هائلة على الاستحواذ على وعي الناس وانتباههم وأذهانهم وتنفذ إلى زمانيتنا الخاصّة، إنها اجتياح لحميميتنا الفردية[4].

[...] وهكذا، فإذا كان عالم الصور غربيا بامتياز ، فإنه أيضا هو من يصنع منطق الصورة، وأن عالم الصور هو الذي يؤسس الواقع، وهذا الواقع الذي تؤسسه الصورة ليس له زمن، ذلك أن الصورة هي محددة في ذاتها وهي مؤسسة على منطق اللذة: أي بمعنى أنه إذا كانت الصورة هي الواقع فإن الواقع هو اللذة، وإذا ما تحكم منطق الصورة فيعني ذلك تلقائيا تحكم منطق اللذة، وهو ما دفع دوبريه إلى القول بأن عنصر قوة الغرب الذي تمثل تاريخيا في الصورة سيتحول إلى عنصر انهياره الحضاري؛ لأن الإنسان الغربي سيصير إلى إنسان يعيش في الصورة ولا يعيش في الواقع، فهذا المنطق كما يقول دوبريه والذي تعقد مع التكنلوجيا الرقمية سيؤدي إلى تفكيك القيم وإلغاء الإنسان"[5].

---

[1]– يقول أفلاطون أن الإنسان حين يتذكر ما رآه من صور وماهيات في حياته السابقة، ويقابل هذه الصور بالأشياء المقابلة لها في العالم الحسي، يشعر أولا بالجزع، ثم يشعر ثانيا بحماسة شديدة نحو التشبه بهذه الصّور التي رآها في عالم سابق من حيث خلودها، فينبغي إذن أن يستمر وأن يكون هو خالدا. انظر موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، 160/1.

[2]– الحداثة والسياسة والدين وسؤال القيم: عز الدين عزماني، مجلة الإحياء، عدد 32-33، المغرب، ص 127.

[3]– فيلسوف فرنسي وصحفي. ولد سنة 1940م. انظر وكبيديا على الشبكة العنكبوتيّة.

[4]– مداخلة قدمها دوبريه ضمن أشغال ندوة: " الصورة والحضارة: التمثيلات البصرية والهويات الجماعيّة" التي نظمت بمراكش في 12 نوفمبر 2005. انظر جريدة الاتحاد الاشتراكي، تغطية بتاريخ 2005/12/15. عن الحداثة والسياسة والدين وسؤال القيم: عز الدين عزماني، مجلة الإحياء، عدد 32-33، المغرب، ص 128.

[5]– الحداثة والسياسة والدين وسؤال القيم: عز الدين عزماني، مجلة الإحياء، عدد 23-33، المغرب، ص 129.

2-2-دور قيمة الطغيان والظلم في البناء الحضاري لدى الغرب:

ساهمت أسباب عديدة في جعل الإنسان الغربي ينظر بدونيّة وعدائيّة إلى المسلم،ونظرته هذه تغذّيها بدرجة كبيرة الإثميّة – التي تراكمت عبر الأجيال التي سبقته- في نفسه لكفره بالله ودونيّته – هو- أمام من يعبد الله الواحد،وعدائيّته إلى من يراه دونه من غير المسلمين ومن المسلمين أيضا -في أسباب أخرى- ترجع إلى النّزعة الشريرة التي في نفسه وإلى عوامل ستتبين مع هذا المبحث. إنّ إشاعة هذه الرّوح نحو الشعوب الأخرى جلبت الضّرر للكلّ، وهيّأت لمزيد من عقليّة الاستغلال؛ استغلال الغربي الأقدر على التفوّق لشعوب الدول الفقيرة والمتخلّفة دونما شعور بالذّنب لممارسته الظّلم.

إنّ القسوة والفظاظة والعنف تنطلق على سجيّتها عن الدّافع إلى العقاب وإلى الظّلم. إنّه ارتياح على ممارسة القدرة، بكلّ طمأنينة، على كائن آخر عاجز فاقد لكلّ مقدرة، يعطى البهجة القائمة على القيام بالشرّ من أجل لذّة القيام به، يعطى المتعة القائمة على ممارسة الجور والطّغيان: وكلّما كانت مرتبة الآخر في السلم الاجتماعي منخفضة وكانت ظروفه متضعة، كلما كانت تلك المتعة أكثر تأججا وتوقدا، إنه يصبح مشاركا في التمتّع بحقوق الأسياد. يبدو لي- يقول نيتشه- أنّ تهذيب الحيوانات المدجّنة (أعني البشر العصريين، بل أعني نحن بالذّات) أو بالأحرى نفاقهم، يأبى عليهم أن يتصوّروا، بكلّ الزّخم المرغوب فيه، إلى أي حدّ كان التّفظيع هو المتعة المفضّلة لدى البشريّة البدائيّة، وإلى أيّ حدّ كان يقوم مقام التّوابل والمقبّلات في معظم لذائذها. من جهة أخرى كم تبدو ساذجة، وكم تبدو بريئة حاجة تلك البشريّة للفظاعة، وكم أنّ الخبث النّزيه لديها يبدو بالضّبط، من حيث المبدأ، بمثابة صفة سويّة من صفات الإنسان: – وبالتّالي، بمثابة شيء يستطيع الضّمير أن يستجيب له بـ "نعم" جريئة. ونحن نجد آثارا وبقايا لهذه الفظاعة في كلّ تاريخ الثّقافة الرّاقية[1].

وكتب التّاريخ تحفل بالجرائم والمذابح التي اقترفتها الدّول الغربيّة المحتلّة في البلاد التي ابتليت بها، مع ما نهبته من ثروات وخيرات ولا تزال. "تاريخ العالم لا يعرف في سجله الطويل أسوأ من مدنيّة الغرب في معاملة الآخرين، وتجاهل مصالحهم، ومصادرة حقوقهم. بل إنه لا يعرف أسوأ من هذه المدنيّة في إراقة الدّماء بغزارة، والتهام الحرمات بنهم، وتجسيم الأثرة الباغية تجسيما يحجب كل ما وراءه من خير وعدل، لا، بل إن هذه المدنيّة تتميّز ببراعتها الفائقة في فرض إثمها على أنّه شرف، وإبراز شهواتها وكأنها قوانين نزيهة! [...] الطابع

[1]- انظر أصل الأخلاق وفصلها: نيتشه، ص 59-61.

الغالب على أبناء أوربا أنهم قساة القلوب، وأنّ بطشهم بأعدائهم يتّسم بالجبروت والفظاظة، وأنّ تدمير المدن، وإزهاق الأرواح، وإهلاك الحرث والنّسل، أعمال ترتكب وكأنها مسلاة هيّنة، أو عبث مأمون الجزاء..!"[1].

نفس المجرم مريضة، تجد لذة في إلحاق الأذى بالغير وامتهانهم، إنها تخلو من نور الإيمان والرحمة، والكافر مجرم أجرم في حقّ نفسه أولا ثمّ في حقّ غيره ممن تصيبهم أخلاقه السيئة، فقد جعلته حضارته يعمّق ويقوّي هذا الاتجاه الفكري والعمليّ في تعذيب الآخرين وحوسلتهم، وحتّى إبادتهم.

"إن ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالا كامنا فيه وليست مجرد مسألة عرضية، وولدت داخله استعدادا للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطّط، وتحققت هذه الإمكانية بشكل غير متبلور في لحظات متفرقة [...] وقد قام الإنسان الغربي بعمليات الإبادة لا رغم حضارته الغربية وحداثة أخلاقياتها النفعية المادية، وإنما بسببها.

فالأخلاق النفعية المادية التي تعفي الإنسان من المسؤولية الأخلاقية، فهي مستمدّة من الطبيعة/المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغائيات والأخلاقيات الإنسانية. ومن ثم تحرّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم " الإنسان ككل" أو " الإنسانية جمعاء" أو " صالح الإنسانية"، كما تحرر من القيم المطلقة مثل " مستقبل البشرية" و"المساواة" و"العدل"، وجعل نفسه المركز والمطلق المنفصل تماما عن كل القيم والغائيات الإنسانية العامة، وأصبح هو نفسه تجسيدا لقانون الطبيعة ولحركة المادة وتحول إلى مرجعية ذاته، وقانون ذاته، ومعيارية ذاته، وغائية ذاته، ومن ثمّ أصبح من حقّه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرّفه هو. وهذه هي النواة المعرفية والأخلاقية الأساسية للحضارة الغربية الحديثة"[2]. إنها تمثّل الاستعباد والاعتداء؛ قيم تبني أفرادا فارغين من الداخل، خاوين روحيّا، إنه دين جديد تهدر فيه إنسانية الإنسان، لا قيمة له إلا بقدر ما يخدم النخبة المسيّرة. وهنا تظهر بوضوح فلسفة نيتشه في القوة؛ فالعالم الذي قتل الإلـه فيه؛ فليسد الأقوى والأقدر وليحكم بقوانينه.

[1]- الاستعمار أحقاد وأطماع: محمد الغزالي، نهضة مصر- مصر، ط4-2005، ص68.

[2]- انظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: عبد الوهاب المسيري، دار الشروق-القاهرة، ط2-2005م، 1/169-170.

3. قيمة سلب الإرادة/التبعية والخضوع:

نجحت العلمانيّة في صياغة الإنسان المفرغ من المبادئ والقيم الخيّرة، الذي لا همّ له سوى الحفاظ على بقائه وإشباع لذّاته، ونجد هذا خصوصا بين الجماهير، لقد أصبح هذا الإنسان عاجزا حتى عن إدراك حقيقة اللاتوازن والتشوهات الحاصلة بغية تقييم وتقويم ما يواجهه في حياته. وأصبح ما يقدر عليه هو التكيّف مع القوى الاجتماعيّة المهيمنة وأداء الوظيفة الموكلة إليه.

وفيما يلي بعض العناصر التي ساعدت على تعميق هذا الاتجاه العام في الحضارة الغربية، وكثير منها قد يكون لها "وجهان أحدهما إمبريالي (بالنسبة للسوبرمن) والآخر أداتي (بالنسبة للسبمن)، فالوجهان متداخلان، وإن كان هناك من يُوظِّف فلابد أن يوجد من يُوظَّف:

- تصاعد التبشير بأن التراكم المعرفي العلمي والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية)، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة على الواقع الاجتماعي والإنساني، فيتخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجياً) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه). فهذا الإنسان الكامل يتحكم فينفسه تماماً، ويبرمجها، أو يمكن برمجته. ولكن حينما يُهيمن هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي، اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية، دولة النعيم المقيم في الأرض المؤسس على العلم والتكنولوجيا، وتُعلن نهاية التاريخ والإنسان كما نعرفه. وهذا الحل النهائي سيعفي الإنسان من مسؤولية الاختيار الأخلاقي إذ أن كل شيء سيكون مخططاً مبرمجاً، خاضعاً لهندسة اجتماعية صارمة، وتحت السيطرة السياسية والتكنوقراطية الكاملة. ولنا أن نلاحظ أنه سيكون هناك دائماً نخبة من السوبرمن تقرر طبيعة الحل أو البرنامج النهائي ومتى يمكن إعلان نهاية التاريخ وكيفية اتخاذ الإجراءات اللازمة للوصول لتلك اللحظة، وإلى جانب النخبة ستوجد قاعدة عريضة من السبمن يدفع بها دفعا نحو اليوتوبيا .
- تزايد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة، والتجريب عن العقل، بحيث أصبح التجريب المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفاً فيحد ذاته. وترجم هذا نفسه إلى ما يسمى العلم المحايد، المتجرد تماماً من القيمة، ولكن هناك دائما من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستجرى.
- تعاظمت قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلق، ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالمة كانت أم مظلومة) مسألة لا تقبل النقاش ولا تخضع لأية معيارية، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق هو الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام. ويلاحظ أن مصطلحات مثل مصلحة الدولة العليا

ليس لها مضمون أخلاقي،وتقبلها يعني تقبل المجردات غير الإنسانية.

- ظهرت مؤسسات بيروقراطية قوية (حكومية وغير حكومية)، تولت كثيرا من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد الأمر الذي يعني تزايد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يسمى رقعة الحياة الخاصة.
- تصاعد نفوذ مؤسسات الدولة المركزية الأمنية البرانية والجوانية، وزادت مقدرتها على قمع الأفراد وتوجيههم وإرشادهم من الداخل والخارج. ورغم أهمية مؤسسات القمع المباشر البراني مثل المخابرات والبوليس السري، إلا أن المؤسسات الأمنية الجوانية، مثل المؤسسات التربوية والإعلام، كانت تفوقها في الأهمية. فإذا كانت المؤسسات البرانية تقوم بتوجيه الفرد بغلظه من الخارج، فالمؤسسات الثانية تقوم بترشيده من الداخل ببطء وبشكل روتيني يومي لا يشعر هو به حتى يصل به الأمر إلى تمثّل، ثم استبطان، رؤية الدولة تماماً، فينظر إلى الواقع من خلال عيونها دون حاجة إلى قمع خارجي، ويحيد ذاته وحسه الخلقي، ويصبح المجتمع أو الدولة أو العلم الطبيعي المصدر الوحيد للقيمة المطلقة، وفي نهاية الأمر ينظر إلى نفسه باعتباره جزءا من آلة كبرى،وتصبح مهمته الأساسية، وربما الوحيدة، هي التكيف البرجماتي مع دوران الآلة.
- تزايدت معدلات التجريد في المجتمع، ومن المعروف أن عمليتي التجريد والترشيد[1] هما عمليتان متلازمتان، إذ لا يمكن الترشيد دون تجريد، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية. ويؤدي التجريد إلى ابتعاد

[1]– الترشيد عملية تنميط وفرض للنماذج الكمية والبيروقراطية لمراقبة كل مجالات النشاط الإنساني والتحكّم فيها، إذ سيتم قياس أداء كل فرد بطريقة رياضية، والترشيد عملية ستزداد أوتارها إلى أن تصل إلى قمتها الشاملة الإمبريالية فتتم السيطرة على كل جوانب الحياة ويتحكم الإنسان في الواقع نفسه، إلى أن يفرغ المجتمع من أية دلالة أو معنى، ويتحول إلى مجموعة من المعادلات الرياضية، وبذا تسود المجتمع ككل ظروف المصنع، بمعنى أنه سيصبح منظما كفئا يشبه الآلة. انظر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: المسيري، 104/1.

" وقد أصبحت عملية الترشيد تعني في واقع الأمر أن يركز الإنسان تماما على الإجراءات (كيف ينجز هذا؟)، وأن يسقط الأهداف (لماذا ينجز هذا؟)، كما تعني أن يحيّد نفسه تماما، وأن يسكت أية تساؤلات أخلاقية بشأن الخير والشرّ، وما هو مشروع أو غير مشروع. بل يبدأ الإنسان يدرك أن عمليات الترشيد مستقلة عنه وعن غائياته الإنسانية، ولذا فهو نفسه بالتدريج يصبح مجرّد وسيلة بعد أن كان غاية. وقد أطلق على هذا النوع من الترشيد مصطلح الترشيد الأداتي أو الترشيد الإجرائي. المصدر نفسه، 13/2. أدرك فيبر الجوانب المظلمة لهذا المجتمع فوصف عملية الترشيد بأنها "disenchantment of the world" (نزع السحر عن العالم). وفعل ديس إنتشانت باللغة الإنجليزية فعل مبهم، فهو يعني إزالة الغشاوة، وهو معنى إيجابي بمعنى أن يرى الإنسان الأمور على ما هي عليه. ولكن يعني أيضا خيبة الأمل والظن، وهو معنى سلبي بمعنى أن الإنسان حينما يعرف حقيقة شخص ما فإن الصورة المثالية المضيئة تسقط لتحل محلها صورة واقعية مظلمة. وإيهام المصطلح – في تصوره– مناسب جدا، فهو يصف المشروع التحديثي الغربي الذي بدأ بأوهام الاستنارة المضيئة بأن يعتمد الإنسان على عقله المادي وحسب، فيزيل كل الغشاوات التي تراكمت عليه عبر عصور الظلام السابقة، ويرفض أية غيبيات أو مثاليات أو مطلقات، ليصل إلى الجوهر المادي الحقيقي للأشياء. وكان المفترض أن يؤدي هذا إلى سعادة الإنسان وسيطرته على نفسه وعلى العالم. [...] [ولكن] ما فعله هو تفكيك الإنسان حين رده إلى عناصره المادية [...] ويمكن السيطرة عليه وحوسلته [...]. لكل هذا سيكون بوسع هذا المجتمع أن يجبر الأفراد على أن يشغلوا أماكن محددة لهم ومقررة مسبقا، وأن يقوموا بأدوار مرسومة بحيث يصبح كل إنسان ترسا صغيرا في الآلة، ولأنه يدرك ذلك سيكون همه الأوحد أن يصبح ترسا أكبر". المصدر نفسه، 1/ 105.

الواقع الحي بحيث لا يدركه المرء بشكل مباشر متعين له قيمة، إذ يصبح شيئاً له مواصفات محددة يمكن تقسيمه إلى أجزاء يمكن استبدال بعضها، وينطبق هذا على البشر انطباقه على الأشياء. وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر. ولنضرب مثلا من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة: تقسم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة، كل وظيفة تشكل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب. ولأنها مجرد حلقة،فهي محايدة تماما ولا معنى لها، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر. ومن ثم، تظل النهاية الأخلاقية بعيدة للغاية. والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر، إذ أن مسؤولية العامل أو الموظف مسؤولية فنية تكنوقراطية وليست مسؤولية أخلاقية"[1].

المطلب الثاني: دور القيم في البناء الحضاري لدى المسلمين

تكاد المجتمعات الإسلامية لا تعرف حضارة خاصّة بها في الوقت الرّاهن، فأفكارها الجوهرية تأتي من الغرب مع ما لها من تاريخ طويل في التبعية والخضوع لهذا الغرب.

يفترض في المجتمع أن يبني نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته حتّى يتجذّر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى[2]. إنّ البناء الحضاري الحالي للمسلمين غير سليم ولا أساس متين له، فهل من الممكن أن تقام عليه قيم بناءة! الأساس غير صحيح، والمسلك منحرف، إنسان تتقاسمه قيم الحضارة المادية وقيم دينه الحقّ، وهو يحقّق ذاته ضمن الحلقة الأكبر التي هي المجتمع، فهو الذي يوفّر له الإرادة والقدرة اللتين تجهّزانه بالاتّزان والفعاليّة في مسار حياته، ولكن البيئة التي يحيا فيها لا توفّر له علاقات اجتماعيّة وتربويّة سليمة- علاقة الطفل بمؤسّسة الأسرة، علاقة الرجل بالمرأة، وعلاقته بواقع المعرفة والتربية في بلده...إلخ.

إن الحضارة تتموضع في شكل سياسة، وفي صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي[3]، وحيث إن إرادة المجتمع في البلاد الإسلامية غالبا إرادة عليلة، ولأن عالم الأفكار مشوّش فقد نتج عن ذلك فوضى وتذبذب شديدين على الصعيدين الاجتماعي والأخلاقي. وقد

[1]-انظر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: المسيري، 1/170-171.

[2]- انظر مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: مالك بن نبي، ص41.

[3]- انظر المصدر نفسه، ص43.

أثّرت أيما تأثير على تديّن الفرد المسلم بتغلغلها في أشدّ تفاصيل حياته خصوصيّة.

1. قاعدة البناء الحضاري:

إذا اختلفت المقدّمات والأهداف فستختلف النتائج، وركائز حضارة الغرب غير تلك الخاصّة بحضارة المسلمين، وإن كانت العلوم – وهي التي تظهر بمظهر الموضوعيّة- تتبع إرادة الأقوى وتوجّهاته، فما شأن العلوم الإنسانيّة المصبوغة بالذاتيّة. فـ" ليس هناك نقاء علميّ. والعلم، في سياق العقلانية التقنية ملتصق بحسابات السياسة وبالتالي فإنه يتضمن إرادة للقوة يتعين القيام بحفرياتها والبحث عن الأساس النظري الذي يعطيها شرعيتها العلمية. إن النقد هنا موجّه للوضعية وللنزعة التقنية وللعلموية أو النزعة العلمية باعتبارها كلها تعبيرات مختلفة للإيديولوجيا المكونة للحداثة التقنية"[1].

لذلك فإنّ "الخطر الذي تتعرّض له الأمم المستوردة أو التّابعة خطر مقصور عليها دون غيرها، فهي حين تقوم باستيراد قيم وميتافيزيقا غريبة عنها باسم العلم، إذا بها تتخلّى عن قيمها وميتافيزيقاها الخاصّة، ليس لصالح العلم، ولكن لحساب قيم وميتافيزيقا أمم أخرى. وحيث أن المنظومة العلمانية تعطي المادّة أسبقية على الفكر فقد استبعدت من عالم الاقتصاد حاجة الإنسان إلى حدّ أدنى من الشّعور بالأمن والاستقرار، ومن العلاقات الاجتماعية، ومن الاتصال بالطّبيعة، ومن الثّبات في القيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة السّائدة (فهي جميعا غير قابلة للقياس). وإذا قبلنا هذه المقدّمات فإنّ ذلك سيفضي إلى قبول مقولاته الاقتصاديّة والسياسيّة (التي ستبدو محايدة وبريئة حين يتمّ عزلها عن أساسها الميتافيزيقي؛ أي المعرفي، أي الذي يتناول القضايا النّهائيّة والكليّة الخاصّة بالإنسان). فمثلا سنقبل تصوّر أنّ الرّفاهيّة الإنسانيّة قابلة للتّجزئة، وسنؤمن بإمكانيّة تعظيم ما يسمّى الرّفاهيّة الاقتصاديّة دون المساس بالرّفاهيّة الإنسانيّة بوجه عامّ. ألا يستتبع ذلك اعتبار الفكرة القائلة بأنّ أيّ تقدّم تكنلوجي ممكن لا بدّ أن يكون بالضّرورة مرغوبا فيه، بديهيّة من البديهيّات؟"[2].

لذا كانت مؤشّرات التقدّم عند الغرب المتفوّق ترتبط بالتقدّم المادّي وتعتبر ما عداه ليس ذا قيمة، فما يوفره من قيمة يعدّ أكبر من أيّة خسارة اجتماعيّة أو نفسيّة قد تترتّب عليها، والإنسان ثانوي في هذا التقييم.

[1]- انظر الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة- نموذج هابرماس: محمد نور الدين أفاية، أفريقيا الشرق، ط2-1998، ص60.

[2]- انظر العلمانيّة الجزئية والعلمانيّة الشاملة: عبد الوهاب المسيري، 1/112-113.

2. تخلّف المسلمين عن قيم القرآن في البناء الحضاري:

إن تصحيح تصوّر المسلمين للقيم ومن ثمّ عملهم بها في حياتهم خطوة ضروريّة أولى لإعادتهم إلى المركز الذي ينبغي أن تشغله حضارتهم. وأيضا تصحيح الزّيف في سلّم الأولويات في القيم والذي تتصدّره المادّة كميزان ومعيار تقيّم به القيم بدل قيمة الإيمان بالله الواحد الأحد التي من المفروض أن تؤثّر في كلّ القيم الأخرى وتكون هي الحاكم عليها. فالواجب الرّجوع إلى القرآن الكريم وتنمية الاعتزاز بالانتماء إلى أمّة خلاصها وقيامها بالكتاب الذي أنزله الخالق تعالى على خاتم أنبيائه محمّد صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ المسلم يؤمن بالقرآن الكريم وبكلّ ما فيه ولكن لتراجع مستواه اللغوي وبعد كتاب الله عن اهتماماته وحياته العمليّة صار حبّه وتقديره له لا يكاد يتجاوز مشاعره الآنية إن حضر الحديث عنه أو تهيّأ لقراءة ورده منه– هذا في الغالب الأعمّ– بمعنى أنّ نظرته القيميّة له لا تحتلّ مكانتها الواجبة من قلبه، وكبديل عن ذلك جعل اهتمامات أخرى كتحصيل المعاش أو العيش وفق الهوى أو طلب العلم لأجل الوظيفة قيم أساسية، وعبادته لربّه والسّعي لتزكية نفسه قيم فرعيّة وثانويّة.

والمسلم إن لم يقم بنهضة فكريّة جادّة وأصيلة، ركيزتها التّربية والتّعليم، فسيؤول به الحال في الغالب إلى سلوك أحد سبيلين: إمّا التّراخي واتّباع أهوائه والانغماس في الثّقافة السّائدة في مجتمعه، وهي بالنظر إلى واقع المجتمعات الإسلامية بعيدة أشواطا كثيرة عن الثقافة الكفيلة بتحقيق الشهود الحضاريّ، الواقع الذي يستباح فيه التعدّي على حرمات الله تعالى فيغلب عليه الانغماس في الملذّات الآنية، وانعدام الضّمير والمسؤولية في شخص كل فرد من المجتمع إزاء ذلك مع انعدام أو يكاد الرّادع، فيرتدّ كل عمل للمنكر على الجماعة بالسّلب. وإمّا الاندفاع والتهوّر غير الواقعيّ الذي يُلجؤه إليه غالبا التّفكير في إعادة غيره – ممّن هو في نظره خارج عن الطريق الحقّ – إلى الطّريق الصّواب الذي يعتقده باستعمال العنف من دون سلطة يملكها، وهذا السّبيل غالبا ما يجرّ إلى ما عليه الآن حال دول كثيرة من فوضى واستهانة بالقتل بدل أن تكون الرّحمة هي الحاكمة بين أفراد ينتمون إلى أمّة واحدة تقرأ في كتاب ربّها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأنبياء: 107. وفي سنّة نبيّها ﷺ: " **لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**"[1].

[1]– أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)، ح 6669.

فهل إن لم يتلق هـؤلاء العلم والعناية؛ هل يلقى اللوم عليهم وحدهم؟! لأنّ القيم التي غرست فيهم أو التي افتقدوها سببت لديهم هذا الخلط والتخبّط؟

من المستبعد جدّا أن يلتزم الأفراد بقوانين وتشريعات في حياتهم بقيت حبرا على ورق، لا روح فيها، خاصّة إذا كانت لا تطبق ولا تؤتى من طرف من وضعوها أو يقومون على إقامتها! ومن الطّبيعيّ جدّا والوارد أيضا أن يأخذوا قيم الرجل الغربي والحضارة الغربية فكل ما حولهم يشير إليها. وهذه نتيجة حتميّة لأنّ المجتمع ينقل "عبر التربية مجموع المعايير الاجتماعية والثقافية التي تؤمّن التضامن بين كلّ أعضاء هذا المجتمع والتي يجدون فيها أنفسهم ملزمين، إلى هذا الحدّ أو ذاك، على تبنّيها"[1].يختار الفرد المقاييس الذاتية التي تحدّد انتماءه إلى نمط ثقافة معيّنة، وبالتالي تحدّد سلوكه؛ فالمشكلة ليست حول كيفيّة انتقاء الفرد لها لأنّ "الواقع أن الفرد يختارها لا بناء على عملية واعية يجريها عقله وتفكيره، فمثل هذه العملية غير متوقعة لدى الراعي ولا يمكن تصوّرها عند الطّفل، وإنّما هو يستنشقها في محيط حياته، وفي مجاله الروحي الذي يحوط وجوده المعنوي. والفرد منذ ولادته غارق في عالم من الأفكار والأشياء التي يعيش معها في حوار دائم"[2]،فمجال تمثل القيم وتمثيلها تضطلع بها تلك التواصلات بين الأفراد وبين محيطهم. وهذه التفاعلات التي تتحقق فيها الثقافة صارت خواء من مظاهر رشيدة ومدروسة تستند إلى مرجعيّة حضاريّة أصيلة، والتي بدورها يحافظ عليها نظام التربية والتعليم، وهو بدوره لا يتلقى العناية التي يستحقها. لذا تمكنت قيم حضارة الغرب من إزاحة قيم المسلمين وأخذ مكانها.

تتبدّى العلمانية في تفاصيل حياة المسلمين "من خلال أبسط الأشياء (إنسان يسكن في منزل وظيفي – ويأكل طعاما وظيفيا – هامبورجر تمّ طبخه بطريقة نمطيّة– ويشرب كوكا كولا... قد يهرول إلى المسجد أو الكنيسة حينما يحين وقت الصّلاة– ترى .. ألن يتحوّل هذا إلى إنسان وظيفيّ متكيّف لا توجد في حياته خصوصيّة أو أسرار، إنسان قادر على تنفيذ كلّ ما يصدر إليه من أوامر دون أن يثير أيّة تساؤلات أخلاقيّة أو فلسفيّة؟!) لا تتمّ على مستوى البيئة الاجتماعيّة والماديّة البرّانيّة، وإنّما تتغلغل لتصل إلى باطن الإنسان، إلى مستوى عالم الأحلام والرّغبات.. وهنا سيأتي دور الصّور البريئة، فصديقنا الوظيفي، إن أراد أن يزجي أوقات فراغه.. فسيشاهد فيلما أمريكيا يقوم بعلمنة وجدانه ورغباته، فالموقف الأساسي في معظم هذه الأفلام هو بطل لا يدين بأيّة مرجعيّات أخلاقيّة (سوى القوة والعنف والسرعة) يقع في حبّ فتاة جميلة هي البطلة

[1]– مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ص 84– 85.

[2]– المصدر نفسه، ص55–56.

(ولعلّ كلمة حبّ هنا متخلّفة قليلا، فهو في الواقع يشتهيها وحسب، وعلى استعداد أن يتعايش معها!)، وتظهر بعض الصّعوبات التي يتجاوزها البطل الدّاروينيّ ويفوز بما يشتهي وينغمس في الإشباع الفوريّ. وأعتقد [يقول المسيري] أنّ أهمّ آليّات العلمنة البنيوية الكامنة في العالم هي الإعلانات التلفزيونية الظريفة بالغة البراءة! وهي إعلانات تروّج رؤية للعالم عمادها الجنس والاستهلاك باعتبارهما القيمتين العظيمتين"[1].

الإنسان الذي غزته العلمانية ومظاهرها لضعف اعتزازه بنفسه، وبدينه، صار يشعر بالامتنان للحضارة التي شغلت فكره وغزت مظاهر حياته، ولأنّه يعلم واعيا أم غير واع بمدى تحكّمها وهيمنتها عليه فهو يحسّ نحوها بأنّه ملزم بواجب الخضوع واتباع تشريعاتها، إنها الأجدر بهذا الاتباع، هي التي ربّته وطوّرت معارفه ورسمت تفاصيل شخصيّته. وقد مرّ أنّ الثقافة تطبع المنتمين إليها بطابعها... فهل يُتوقّع أن تنتج لنا كفاءات وأشخاصا أسوياء مقارنة مع أناس آخرين لهم ثقافة تمتدّ جذورها في تاريخهم؟!

3. مسؤولية الحفاظ على قيم المرجعيّة الإسلاميّة:

يجد المرء نفسه في هذا العصر وهو يكبر؛ ولكن من دون قيم تتسم بالأصالة والثبات، فيعيش المتضادات في حياته، ويتيه، ويجتمع مع هذا هوى النفس ووسوسة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، كلّ هذا ضدّ الفطرة السليمة المغروسة فيه. والقيم التي فرضت نفسها، تلك التي فصلت خصّيصا لإنسان عصر ما بعد الحداثة طغت وغلبت، خاصّة مع غياب المؤسّسات التي من المفروض أن تقوم بدور الراعي والحارس للقيم الأصيلة للفرد، وحتى إن كانت حاضرة فدورها يتسم بالقصور.

"إن التنميط الحضاري لا يحدث بمحض الصدفة بل وضعت له استراتيجية محكمة وراءها رموز مؤثرة، ومراكز بحث وشركات متعددة لها متخصصون استراتيجيون في مختلف أصناف العلوم الإنسانية يعملون في توجيه هذا التنميط..، وفق أساليب وتقنيات، ومقاربات بيداغوجية ومنهجية دقيقة.وقد عزز قدراتها التأثيرية التطور الهائل في وسائل الاتصال والتواصل. إن فهم هذا البعد القيمي – الأخلاقي يتطلب مقاربة تعتمد آليات التحليل السسيولوجي والانتربولوجي والسيكولوجية المعرفية.

[و]الرسوم المتحركة والألعاب التفاعلية والمحاضرات متعددة الأطراف على مستوى الأنترنيت والمواقع المتعددة... أساليب ممنهجة لتنميط القيم ما دامت المؤسسات الوصية على تربية النشء وإعداده لم تمد لهذا النشء بميكانزمات الدفاع والحصانة والمناعة، وبالتالي لم تنجح في تحديد مرجعيته وإقناعه بتبنيها واتخاذها

[1]- مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، 1/27-28.

معيارا في اختيار السلوك وتبني القيم"[1]. وليس ضروريّا أن يتمّ عرض فكر مرجعيته ومنظومتها القيمية وترسيخها بنفس طريقة ومنهج المرجعيّة المخالفة والغالبة، وإنّما الواجب أن يكون عرضا صادقا وقويّا يخاطب الفطرة السّليمة، ويتقوّى بالقانون والعدل.

من أهمّ الوسائل والطّرق لنشر العلمانية وتمكنها من نفس الفرد حتّى يرى من خلال منظارها ويقيّم العالم من حوله على أساس منها؛ الإعلام وما يحدثه من انقلاب في قيم الفرد، فبعد أن تتلقّف وسائل الإعلام الشّرسة هذا الفرد الحرّ المتحرر عن الأسرة وعن منظومته القيمية؛ تهجم عليه الثّقافة الإعلاميّة بكل وسائلها لتعمّق إدراكه لذاته كشخص يدور حول أحلامه ورغباته ومصالحه وملذّاته وحسب، فتصيّره دون ذاكرة ودون وعي بالماضي والمستقبل. أحلامه ورغباته ومصالحه لا شخصيّة، ولا علاقة لها بعالمه الدّاخلي، فقد قام المختصّون بدراستها وفحصها وإعدادها وإشاعتها وفرضها، حتّى استبطنها الإنسان وأصبح شخصيّة نمطيّة وظيفيّة يسهل استيعابها وتوظيفها دون أيّة مقاومة من الدّاخل، ويمكن التنبّؤ بسلوكها ورغباتها (وبخاصّة الاستهلاكيّة). وفي هذا الإطار، يظهر ما يسمى صناعات اللّذة التي تهدف إلى القضاء على الإنسان الدّاخليّ، حتّى يمكن تطويقه وتطويعه ودمجه في المنظومة العامّة والمرجعيّات الماديّة[2].

ومن الأسباب الرّئيسة في هذا الواقع تراجع دور الأسرة ومسؤولياتها، فبعد أن تخلّت عن وظائف كانت من أولوياتها وانتقلت إلى صلاحيات الدّولة ومؤسساتها؛ باطّراد كان يزيد تمحور اهتمام الفرد حول ذاته وابتعاده عن الارتباط بأسرته،حتى صار لا يكاد يجد في منزله سوى المأوى، وكلّ فرد فيه يرغب في تحقيق مصلحته ومنافعه الشّخصيّة، فلم يعد المنزل يوفّر الرّحمة والسّكينة التي ينبغي أن يلقاها المرء فيه.وأهمّ ما تسبّب في هذا الواقع العنيف تنصّل الأمّ من مسؤولياتها التي تتطلّب ملازمتها المنزل للقيام بشؤونه من تربية ورعاية بكل أفراد الأسرة، وإيثارها الخروج إلى الشارع بحثا عن العمل تقليدا للمرأة الغربية التي ما خرجت إلا لفقدها القيِّم عليها. إنّ من غير الممكن أن تحقّق المرأة ما يحتاجه أبناؤها وزوجها منها من عاطفة أمومة واهتمام وتنشئة وهي تقضي وقتا معتبرا من يومها بعيدا عنهم وخارج منزلها، خاصّة إذا عادت محمّلة بضغوط كل البيئة التي خارج بيتها جرّاء كلّ التواصلات والعلاقات مع زملاء العمل.إن غريزة الأمومة لدى المرأة تجعلها معطاءة للتقبل والتسامح والحب والحنان- هذا ما يحتاجه الطفل كي ينمو سليما- فهل من العقل أن تصرف هذه المشاعر لغير أهلها؟!

[1]- بناء الحضارات ومنظومة القيم المرجعية: أحمد بابانا العلوي، 2013، مقالة إلكترونيّة.

[2]- انظر العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية: المسيري، 138/2.

إن كان كلّ من حول الفرد أو معظمهم قد طالهم هذا التحوسل والتشيّؤ فمن بإمكانه أن ينتزعه من وحل العلمانية وقد طالت أبعادها حتّى التديّن. يقول المسيري: "يحلّ الإلٰه في المؤمن، ويصبح من الممكن معرفة الإلـه من خلال حالة شعوريّة أو تجربة جماليّة يخوضها الإنسان، أي أنّ الإلٰه يصبح أمرا خاصّا بالقلب والضّمير الشّخصي (الإنساني). وبدلا من أن يكون التديّن إيمانا بالغيب تستند إليه منظومة أخلاقيّة تنظّم تعامل الإنسان مع بني البشر ومع الطّبيعة- يتجلّى التديّن في التاريخ ويترجم نفسه إلى طريقة للتّعامل مع البشر (المعاملات منفصلة تماما عن العبادات). ومع تزايد معدّلات العلمنة يتصالح الدّين والواقع، ويتماهيان.. إلى أن يصبح الدّين واقعيّا يستمدّ معياريّته من الواقع.

وقد يصبح التديّن على عكس ذلك طريقة لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربّه وحسب. ولا يركّز المؤمن إلاّ على الجوهر الرباني الواحد، ويغرق في تمارين صوفيّة محاولا الالتصاق بالخالق والتوحّد معه.[...] يصبح المؤمن لكلّ هذا شخصا يمجّد ذاته، بدلا من أن يحاول تهذيبها وكبح جماحها عن طريق تطبيق تعاليم دينه، وبدلا من طاعة الخالق فإنّه يطوّعه، بحيث يعطي شرعيّة لكلّ أفعاله [...][فـ]الهدف الأساسي للتّجربة الدّينيّة في هذه الحالة هو الخلاص الشّخصي وحسب، دون الاكتراث بالآخرين ودون الاهتمام بالتاريخ وعالم السياسة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق العدل في الأرض"[1].

ويعبّر هذا التمركز حول الذّات عن نفسه في التعصّب الدّيني، وفي تطويع الرّموز والمفاهيم الدّينيّة نفسها بحيث تصبح مظهرا من مظاهر التفوّق الإمبريالي العلماني على الآخرين ودافعا للإنجاز الشّخصيّ، باعتبار أنّ نجاح الفرد في الدّنيا تعبير مادّي عن رضا الإلـه عنه. وفي نهاية الأمر يصبح الفرد المتديّن أكثر أهميّة من الدّين وجماعة المؤمنين نفسها، ولذا تتحوّل جماهير الأمّة من مسلمين ومسيحيّين إلى عبيد للحكّام والحكومات بدلا من العبوديّة لله وحده، ثمّ تتصاعد معدّلات العلمنة ويصبح التديّن مصدرا للهدوء النّفسي والسّعادة الدّاخليّة الفرديّة، ثمّ تتعمّق الذّاتية فتنفصل السّعادة الدّاخليّة كهدف عن الخالق، ويصبح البحث عن اللّذة هو المطلق[2]، وهي نتيجة حتمية للإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، كانتقاء التشريعات التي تناسب العبد. كلّ انفلات عن الدّين وقيمه سينتج عنه سحب للأفراد إلى مدارات العلمانيّة الذي ما تمّ إلاّ للانبهار بها وبما أتت به سلبيا كان أم إيجابيّا بسبب حالة الخضوع التي وجد نفسه فيها وبسبب حالة الإخضاع التي هيّأته ليتمثّلها.

[1]- العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية: المسيري، 2/121-122.

[2]- انظر المصدر نفسه، 2/122-123.

4. قيمتا الخضوع والسيطرة:

4-1-قيمة الخضوع

من الواضح والجليّ أنّ المسلم لم يتربّ على العزّة والاعتزاز بدينه، بلغته، بوطنه... يكبر ويتطوّر في معارفه ولكن من دون أخلاق قوّة واعتزاز!أخلاق الخضوع هي الغالبة؛ خضوع للماديّة ولمظاهر العلمانية الحديثة، وقد تكون قيمتا الخضوع والسيطرة من أهمّ القيم التي توجّه الفرد في مسار حياته.

لم مثلا النظر في آلة حديثة فاتنة لها القدرة على القيام بالكثير من الأمور الدقيقة، أو بناء فاره... يورث في الناظر اعترافا وعرفانا بالجميل لذاك المبدع أو المخترع؟!بينما النظر في شجرة باسقة أو زهرة جميلة لا يكاد يجذبه ويحدث في عقله وقلبه ما يحدثه ذاك البناء أو تلك الآلة؟!

تمتدّ القيم التي يتبناها الفرد أو يحيا بها إلى كلّ مظاهر حياته والجماليات فيها؛ اللغة، الملبس، العلاقات الاجتماعيّة، اختيار الطعام، ممارسة الرياضة...إلخ. فهي تلك "الرموز التي تنسج أفق ثقافة وتضطلع بعمل مبادئ ناظمة للتّواصل الإنساني"[1]، ومن أخطر القيم التي ساهمت في تنظيم وتشكيل الصّلات الإنسانيّة في الكثير من البلاد المسلمة وخاصّة تلك التي خرجت من عباءة الاحتلال هي قيمة الخضوع. وعن الرابط القوي بين الأخلاق والسّيطرة يقول نيتشه: "ينبغي على الفيلسوف أن يخوّل نفسه ضمّ اليريد في حدّ ذاته إلى حيّز الأخلاق، على أن يُفهم بالأخلاق علم علاقات السّيطرة التي في ظلّها ينشأ الفينمان المسمّى حياة"[2].

إذا كان المسلم يعيش الواقع وتفاعلاته الاجتماعيّة منطلقا من ثقافة مجتمعه، وهذه الثقافة رسّخت في المجتمع الدّونيّة نحو العلم الغربي، ونحو أحدث المظاهر التي يستحدثها الغرب؛ لذا ستنبع أخلاقه من منطلق اتّباع الغرب، وهذا ما يعمّق دونيّته وإن لم يحسّ بها، لأنّه يشعر بالانتماء لعالم لا يحفل به ويمتهن المجتمع الذي ينتمي إليه فالقيم والأخلاق التي يجدها ابتداء في محيطه سيضعها في مرتبة أدنى، ومؤدّى هذا أن لا يعتقد بأنّ دينه يكفل له حقّا الأصلح والأجدر لما ينبغي أن يسلكه ويقيّم به حياته.

4-2-قيمة السيطرة:

إذا كانت هناك سيطرة فلا بدّ هناك خضوع، وقد ميّزت السّيطرة والتغلّب مجتمعات الغرب، بينما الخضوع هو الذي يسم غالبيّة المجتمعات المسلمة.

---

[1]- فلسفة القيم: جان رزقير، ص35.

[2]- ما وراء الخير والشرّ : نيتشه، ص44.

يقول المودودي: "كان الانحطاط والتدهور الخلقي المستمر قد بلغ بطبقتنا الوسطى – وهي قوام كل أمّة وعماد أمرها كما لا يخفى- مبلغا جعل من رجالها عمالا مستأجرين من فطرتهم أن يخدموا كل من استأجرهم ثم استعملهم واستخدمهم في ما شاء ولأي غرض شاء. فكان مئات الألوف من رجالنا مستعدّين ليكونوا جنودا مستأجرين يستخدمهم من شاء ويوقد بهم نار الحرب على من أحبّ، وكذلك كان ألوف بل مئات ألوف من شبابنا مستعدّين ليكتري منهم كلّ متغلّب فاتح أيديهم وقواهم الذّهنيّة بأجرة بخسة أو وافرة، ثمّ يسيّر بها إدارة ملكه[...]وما لهم ألاّ يتخلّقوا بأن يأتوا كلّ شيء يريده منهم من يسخو عليهم براتبهم غير آبهين لإيمانهم وضمائرهم؟ ومن هنا لكم أن تقدّروا أنّ الصّفات التي تظهر بمظهرها اليوم أغلبيّة رجال الطّبقة الموظّفة منا، ليست بضعف اتّفاقي نشأ فيهم بين عشيّة وضحاها بل لها أصول راسخة وجذور مستحكمة في تاريخنا الماضي"[1]. ومن أسباب هذا الضعف والخضوع أيضا الانحطاط العلمي والخلقي الذي أصاب الأمّة منذ قرون، فالذي يشهد به التاريخ أنّ الإسلام ما انتشر مصاحبا له تعليم دين الله فـ" لا نكاد نعثر في عصر من العصور على قوة منظمة بذلت جهودها في نشر الإسلام وتعميم دعوته... ولا كان يهمّ الحكومات المسلمة وقتئذ أن تعنى بتعليم هؤلاء المهتدين وتربيتهم حيثما انتشر الإسلام. فكان من جراء هذه الغفلة أن ظل عامّتنا سادرين في الجهل والجاهلية منذ أوّل أمرهم"[2].

ومع تقدّم الزّمن لم تعد التربية واكتساب المعرفة قائمين على القيم التي تبني حياة الفرد كي يكون عبدا لله الواحد الأحد بل على موادّ وعلوم مفرغة من الأخلاق التي يدعو لها القرآن الكريم، حتّى لقد تراجعت قيمة الدّين والتديّن في نفوس المسلمين! وإذن ما مصير إنسان على هذه الشّاكلة في تحقيق الشّهود الحضاريّ وهو لم يصل حتّى إلى القيام بالعبادة الصّحيحة؟نحن أمام شريعة مكتملة وإيمان بأنّها من عند الله تعالى، ولكن من دون سعيفي إقامة مقاصدها ومصالحها، وبمشاعر غير مشدودة إليها، وبناء اجتماعي هشّ لا يحقّق وحدته حتّى يحقّق وحدة أمّته.

بالرّجوع إلى عهد المصطفى محمّد صلّى الله عليه وسلّم لا يشكّ أيّ مسلم في أنّ القرآن الكريم كان هو دستور المسلمين وكانت قيمه وأوّلها قيمة الإيمان بإله واحد لا شريك له تحكم حياة المسلمين ابتداء من المسؤول الأوّل ألا وهو الخليفة إلى أبسط مواطن، ومع الابتعاد عن ذلك العصر الذي يعدّ خير العصور كان

[1]- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم: أبو الأعلى المودودي، دار الفكر الحديث- لبنان، ط2-1386هـ، ص152-153.

[2]- المصدر نفسه، ص147.

الالتزام بالقرآن وقيمه يتراجع وينهزم في نفوس المسلمين عامّة، وبالموازاة مع ذلك كان الإخلاص في العبادة لإله واحد لا شريك له– والذي يحكم سائر القيم التعبّدية، الخلقية، الاجتماعيّة، الفكريّة، الماليّة– يتراجع أيضا لحساب قيم أخرى صارت تمثّل القيم الأساس في قلوب ونفوس المسلمين عامّة قد تكون سلطة الهوى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ الفرقان: 43. أو سلطة الآمر المستبدّ الذي بدوره تحكمه قيم حبّ التملّك: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الزخرف: 51، أو الاستئثار بالأمر والنّهي فعن عدي بن حاتم[1] قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: "**يا عدي اطرح عنك هذا الوثن**، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية– التوبة: 31. قال: **أما إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه**"[2]، أو منازعة الخالق في صفاته...إلخ.

[1]– عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج، الطائي أبو طريف صحابي شهير، وكان ممن ثبت في الردة وحضر فتوح العراق وحروب علي، ومات سنة 68 وهو بن مائة وعشرين سنة. ابن حجر: تقريب التهذيب، 668/1.

[2]– أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، برقم 3095. قال الألباني: حسن.

الخلاصة:

إن اغترار الإنسان الغربي بما حققه من إنجازات لم يسبق إليها في نظره، والرفاهية الماديّة التي وصل إليها أيضا جعلته يلغي من اعتباراته الآثار السلبية لحضارته، كما وبرّرت الطليعة الغربية لنفسها حقّ المزيد من الهيمنة والتحكّم في البشر وتوجيه مسارات حيواتهم، ولكن هناك دائما من يدرك الخطورة التي وصل إليها الإنسان المرتبط في حياته بمظاهر الحضارة الغربيّة الحديثة، فقد تزايد إحساسه باغترابه وبأنّه يعيش في عالم لم يشارك في صنعه، ولا يملك حيال تغييره شيئا إن أراد إنقاذ نفسه، وما يعايشه من تطوّر وجدّة إنما هو بهدف استغلاله لا خدمته.. ولكن إلى أين تقود هذه الحضارة؟! إنها تودي بالإنسان لأن يصير مثله مثل أي ظاهرة طبيعيّة، ومن ثمّ يصبح التقدم هو تزايد تطبيق القوانين الطبيعية إلى أن تسود هذه القوانين تماما ويصبح المجتمع الإنساني في بساطة نظرتنا إلى الطبيعة وظواهرها،فيعيش بلامبالاة ولا اكتراث ويتطبّع بهذه المشاعر، فتجده لا يجتهد في تغيير عاداته ومحاولة الإبداع الذي يهيّء له نفسا تتطلّع إلى الأفضل. فينسحب باستمرار إلى داخل نفسه وهو يرى العالم من حوله خاويا لا سعادة فيه، بل حروب وظلم وإفساد يمتدّ لكلّ ما خلق الله فيه من إنسان وحيوان وطبيعة.

الفصل الثاني:

البــعد القيمــي للـقرآن

الفصل الثاني: البعد القيمي للقرآن.

المبحث الأول: قيم الميزان وقيم التطرف في المجتمعات.

المطلب الأول: الواحديّة والشرك.

المطلب الثاني: الفطرة والتطرف.

المبحث الثاني: الهدي القرآني والتّشريع.

المطلب الأول: هدي القرآن الكريم.

المطلب الثاني: علاقة التشريع بالقيم.

المبحث الثالث: القيم في القرآن.

المطلب الأول: مصطلح القيم في القرآن.

المطلب الثاني: أنواع القيم القرآنيّة.

مدخل

تحرص كلّ من مصطلحات الهداية، التشريع، الميزان، والقيم، على القيام بمؤدّى معناها بتمثّل الحكمة والسّعي لتحقيق مصلحة الإنسان التي هي غاية في حدّ ذاتها في الشّريعة وتكاليفها، فإذا اتبع الفرد دين الله والتزم أوامره واجتنب نواهيه فهو يحقّق تلك المصلحة والخير لنفسه، ولما يحد عن الميزان الصّحيح، أما إذا زاغ عن دين الله واجترأ على حدوده فهو بذا يفسد الميزان الصّحيح لأعماله والميزان الصّحيح للطّبيعة من حوله أيضا، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الروم: 41.

المبحث الأول: قيم الميزان وقيم لتطرف في المجتمعات.

المطلب الأول: الواحديّة والشرك.

المطلب الثاني: الفطرة والتطرف.

المبحث الأول: قيم الميزان وقيم التطرف في المجتمعات الإنسانية

تتبنّى المجتمعات؛ كلّ المجتمعات قيما بناءة وأخرى هدّامة، فالبنّاءة تحفظ ميزان الحياة، الميزان في العلاقات الاجتماعيّة، في العلاقة مع البيئة والطبيعة، الميزان في حفظ العقل وتطويره... ومن السّنن الكونيّة- كما هو معلوم- أنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كافرة، ولا يقيمها إن كانت ظالمة ولو تدين بالإسلام. ومن المسلّم به أنّ هناك قيما مشتركة بين مختلف المجتمعات، وإن تباينت أحوالها الاجتماعيّة والسياسية والاقتصادية...إلخ. ويتميز المجتمع المسلم عن غير المسلم بقيم الواحدية ويشتركان في إمكان تحقيق قيم الفطرة السّليمة؛ أو بعض منها، أو الانسلاخ منها وتمثّل قيم الفساد والتطرف، وأيضا قيم الكفر أو الشرك أو الإلحاد.

المطلب الأول: الواحديّة والشرك

لا تجد القيم البنّاءة والخيّرة من يدعو لها بكفاءة توازي تلك التي تدعو وتؤصّل للقيم المضادّة لها، وما يزيد من سوء هذا الأمر – لرجوعه بالضّرر على المعمورة كلّها- هو تراجع دور القيم التي تؤسّس للتوازن والميزان الصّحيح لدى من يفترض فيهم أن يقوموا بهداية العالمين إلى سبيل الرّشاد والصّلاح فـ" لا يمكن للشّيء أن يكون قيّما على المجتمعات البشريّة إلاّ إذا كان هو قائما، فما لم يكن قائما لا يستطيع أن يأخذ بأيدي الساقطين لينهضهم"[1].

أرشدنا المولى تعالى إلى الطريق المستقيم الذي يجنبنا الوقوع في الإجرام وفي الشّرك ومصائده، قال سبحانه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾يوسف: 108.أي الدّعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد على بصيرة ويقين وبالحجّة، وهي طريق كلّ الرّسل والأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، من آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمّد ﷺ.

1. الدين الأوّل في القرآن الكريم:

بعد هبوط آدم – عليه السّلام- إلى الأرض أرسل الله الأنبياء والرّسل بعده يدعون إلى عبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ

[1]- العقيدة من خلال الفطرة في القرآن: آية الله جوادي آملي، دار الصّفوة- بيروت، 2009م،ص10.

ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء: 163-165.

فالحالة الأصليّة والأولى للدّين هي عبادة الله الواحد الأحد لا شريك له، ولكن بعد أن طال العهد ظهر الفساد والشّرك، قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ البقرة: 213.

"كان النّاس جماعة واحدة على دين واحد في أوّل وجودهم، وبعد تكاثر ذريّة آدم عليه السلام بدأت تتسلّل الانحرافات إلى المظاهر الحياتيّة للجماعة المؤمنة. وهذا حال المجتمعات تبدأ قويّة مجتمعة على شريعة واحدة وملّة واحدة، ثمّ تتخلّلها الأمراض الاجتماعيّة والعقديّة المفضية إلى الاختلاف ونقض العهد الأوّل. وفي ضوء أقوال المفسرين يمكن القول أن هذه الآية تبين قاعدة تصور لنا أحوال المجتمعات الناشئة وهذا هو معنى (كان الناس) أي كان الناس سابقا في ابتداء وجودهم، وقيل ابتداء وجودهم لأن الآية تحكي حياة الأمة أو الشعب أو القرية ملخصة، إذ توضح الآية مسار الأمم إلى غاية نهايتها، وتبين دورة الحضارة. فإن الأمم لها نوعان من البداية وهذا الكلام عن الأمم التي سبقت موسى عليه السلام: إما البداية الأولى مطلقا وهي وحيدة وكانت حين هبط آدم إلى الأرض وبدأ نسله يزيد إلى أن صار أمة، وهنا يتبين أن المنطلق كان العقيدة الصحيحة التي نقلها النبي آدم إلى أبنائه وكذا قبول أبنائه لهذه العقيدة الموافقة لفطرتهم، ولم يكن هناك باعث على الكفر والشرك الذي أخذ يتسرب وينمو رويدا رويدا بتأثير الشياطين وأعوانهم من شياطين الإنس، إذ لم يبدأ هذا الشرك تاما، إنما باتباع خطوات الشيطان التي بدأت بتقديس الصالحين كما روي في قصة نوح عليه السلام، وانتهت بعبادة آلهة جديدة باطلة أشركت بالله الحق، فبعث الله نوحا رسولا لتصحيح الانحراف ورد الناس إلى الأصل والإيمان الصحيح.

النوع الثاني من البداية هو أن الطائفة المؤمنة قليلة العدد التي أنجاها الله مع رسولها، تنطلق في بناء أمة أو قرية أو حضارة جديدة، ووضعها العقدي مطابق لما كان عليه الوضع العقدي بعيد هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، حيث لا وجود في ذاك المجتمع للشرك أو الكفر، فهؤلاء المؤمنون هم الذين صبروا وعانوا وأوذوا في سبيل الحفاظ على إيمانهم واتباعهم للرسول، وهم ثابتون على الإيمان الصافي الصحيح ولا

يتوقع ظهور الشرك في جيلهم بل في الأجيال اللاحقة بعد أن يطول الأمد ويبهت نور الإيمان الصحيح، فيتسلل ظلام الشرك رويدا رويدا تماما كما حصل للأجيال التي سبقت نوحا عليه السلام"[1].

إن معظم المجتمعات المسلمة في هذا العصر تتميّز بالابتعاد عن الدّين، وتقزيم دوره، وهي بين انتكاسة وانتفاضة في القيام به، الأمر الذي يهدّد وحدتها باستمرار بسبب أنّه مكوّن أصيل وثابت لحضارة المسلم.

وما تعيشه الجماعة المؤمنة أو المجتمع هو الانتقال من الدين القويم والإيمان الصحيح إلى الدين المنحرف والعقيدة الخاطئة المغايرة للواقع، وخلال هذا الانتقال الذي يتم تدريجيا وبسلاسة بشكل عام؛ يتم الحفاظ على وحدة الجماعة، ويمكن أن تتلاشى وحدة العقيدة مؤقتا نظرا لطبيعة التغير السريع، ويحصل ذلك بظهور الشرك وتوسعه حتى يضم كل أو معظم الجماعة، وأثناء هذا التحول تصير الوحدة المقصودة وحدة الجماعة دون وحدة العقيدة، غير أن الاختلاف في العقيدة لا يؤثر على استقرار المجتمع إلا بشكل طفيف على الأكثر، إذ إن رؤساء القوم وأصحاب الجاه والمال يكونون على الشرك، أما مقاومة القلة المؤمنة التي إن وجدت فإنها ضعيفة، فإما أن يقضى على أصحابها، أو أنهم يبقون على إيمانهم سرا أو على الأقل دون محاولة دعوة الناس إليه بشكل ثوري يعلن تهديدا لاستقرار الجماعة ومصالح زعمائها، فلما يصير وضع القرية هكذا يرسل الله الرسول إليها فينطلق في الدعوة التي تنمو بزيادة أتباعها حتّى يصير الاختلاف في العقيدة معلنا واضحا، وينذر أصحاب الجاه والمال في المجتمع بخطر الدعوة المتنامي على مصالحهم، فيعمدون إلى مقاومتها ومحاولة إجهاضها بشتى الطرق المتاحة التي تزداد عنفا وعداوة بمرور الوقت. فما يحدث يبدأ بتلاشي وحدة الدين ويتبع ذلك تصدع وحدة المجتمع وبنائه[2].

2. الدّين الأوّل في المذاهب الوضعيّة الحديثة:

كان العصر الحديث في أروبا الأرضيّة التي شكلت الواقع الديني والاجتماعي؛ وعموما واقع الإنسان اليوم، لذا من الأهميّة بمكان الإشارة إلى بعض تصوّرات المفكّرين عن الدّين الأوّل وحالة الخلق في بدايتهم.

[1]- انظر جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1-1420هـ، 4/276-280، وتفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية- لبنان، ط1-1993م، 2/144-146، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2-1999م، 1/569، وعرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، مذكّرة ماجستير، قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر، 1439هـ، ص 103-104.

[2]- انظر عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص 104.

في القرن الثامن عشر رأى بعض كتابه من الذين مهدوا للثورة الفرنسية " أنّ الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة، وأعراض طارئة على البشرية حتى قال (فولتير)[1]: إنّ الإنسانيّة لا بد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة في حياة مادية خالصة، قوامها الحرث والنحت والبناء، والحدادة، والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات بل قال: إنّ فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدّقهم من الحمقى والسخفاء"[2].

ويبدو أن فولتير من خلال تربيته في مدارس الآباء اليسوعيين قد وقف عن كثب على أساليب بعض الجماعات الكنسية الكاثوليكية خاصة والدين بوجه عام. إذ أنه كان يعتقد أن هذه الجماعات وأمثالها من الهيئات الدينية تقوم بممارسة نواح تدميرية سرية، وتشترك في المؤامرات والاغتيالات السياسية، كما أنهم يتسترون وراء المظهر الديني، والهدف الثقافي ليسيطروا على عقول النشء ويستغلونهم لتحقيق أغراضهم التي تتنافى مع مفهوم الإنسانية، ولا تتفق مع أصول العقل، وتتنافى أيضا مع طبيعة وظيفتهم كهيئة دينية[3].

لم تكن هذه النظرة المستهزأة بالأديان جديدة، بل هي رأي قديم نجده في اليونان عند أهل السفسطة المروجين للتشكيكات والمغالطات، حيث ادعوا أنّ الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع عن قانون، ولا وازع من خلق، وأنه كان لا يخضع إلا للقوة الباطشة.. ثمّ كان أن وضعت القوانين، فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة.. فهنالك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأنّ في السماء قوة أزليّة أبدية ترى كلّ شيء، وتهيمن بحكمتها على كل شيء ، وهكذا لم تكن القوانين والديانات في تصويرهم إلا ضروبا من السياسة الماهرة التي تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بكل حيلة ووسيلة. ولقد وجدت هذه الآراء بيئتها الحاضنة في أروبا ذلك العصر بما كان لرجال الدين من سمعة سيئة، وانتشار للفقر وغياب توزيع عادل للثروة وجور القوانين[4]. ولكن تبيّن فيما بعد؛ لما اكتشفت الرحلات إلى خارج أوربا حال الشعوب مع الدّين؛ اكتشفت كيف لم يخل عصر وأمّة من التديّن، وتبيّن تأصّله في الإنسان وفي الجماعة، وأنّ الحال ليس كما صوّر أولئك الذين أرادوا التّضليل بآراء

[1]- كاتب ومفكر فرنسي. ولد في باريس سنة 1694، وتوفي سنة 1778م. له مؤلّف: " أخلاق الأمم وروحها"، كما كتب مواد فلسفية ودينية في " الأنسكوبيديا الفرنسية". انظر موسوعة الفلسفة: بدوي، 2/201-202.

[2]- الدين: دراز، ص80.

[3]- دراسات في الأديان الوثنية القديمة: أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية- مصر، ط1- 2004، ص48.

[4]- انظر الدين: دراز، ص81.

هادمة لفكرة التديّن. وهكذا كشفت الدراسات التي أجريت على القبائل التي تسمى (بدائية) زيف ما جاء به المعادون للأديان.

وإن النظرة التي حملتها تلك الدراسات للقبائل الموصوفة بالبدائية كانت نظرة تمر عبر نظارات العنصرية الأوروبية والنزعة الاستكبارية المحتقرة لمن سواهم، والتي إن كانت تجد مبرراتها الدينية في عداوة العهد القديم للوثنيين، فما كان مبررها لتستمر بعد أن تحرر الأوروبيون من الدين ونبذوه وراء ظهورهم؟ الموروثات الاجتماعية والنفسية للدين لا تختفي بالتحول عنه، والحضارة الأوروبية إلى اليوم لا تتنكر لطابعها الديني المسيحي، بل تفتخر به، ورفض الدين كان رفضا لما يؤذي ويعوق التقدّم، فها هي الكنيسة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر تأتي من أكثر البلدان حداثة في أروبا بصفة رسمية وتبشر بدينها في الجزائر جنبا إلى جنب مع فرنسا المتوحشة المعتدية، في تعاون مخز بين الدين والسياسة[1].

إنّ ما يتمّ هو تطويع الوقائع والأحداث لتوافق أهواء الدّين الجديد، وبعبارة أخرى استبدال دين بدين، "فالعقيدة الكاثوليكية حتى وإن رآها أعداؤها من رجال الفكر الحر عزيزة على الإثبات العقلي، فكذلك الخيار الأيديولوجي الحداثي الذي أخذ يتضح أكثر بمرور الوقت، ممكنا لنفسه بأعمال مفكرين لم يكونوا من مناصريه وفق ما انتهى إليه، فهذا ديكارت[2] – أبو الفلسفة الحديثة– كان من مناصري الدين، وكان يحرص على علاقات طيبة مع رجال الدين، بل إنه بنى فلسفته كلها على الإيمان بالله"[3]، لكن منهجه وفكره وظف فيما بعد لغير ما بني عليه[4]. كان ديكارت قد أعاد الوئام بين الدين والعقل، وحاول القضاء على الفوضى والانحلال الذين ميزا نهاية عصر النهضة. لقد كان" الله ضمان اليقين في الاستدلالات والبراهين في الرياضيات والطبيعيات على السواء، وبغيره لا يستقيم يقين عقلي ولا عقيدة دينية، ومن هنا أصبح الله مركز التفلسف الديكارتي، ولازمت فكرته الإنسان حتى ليجوز حد الإنسان بأنه الموجود الحاصل على فكرة الله"[5]. ولكن الجهود كانت حثيثة للقضاء على فكرة الإيمان بإلــه واحد وإله له مقاليد الأمور.

---

[1]– انظر عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص 110.

[2]– فيلسوف فرنسي، يعد رائد الفلسفة في العصر الحديث، وفي الوقت نفسه كان رياضيا ممتازا، ابتكر الهندسة التحليلية. ولد سنة 1595م بمدينة لاهيه غربي فرنسا، وتوفي سنة 1650م. من كتبه: تأملات في الفلسفة، ومبادئ الفلسفة. انظر موسوعة الفلسفة: بدوي، 1/ 488-491.

[3]– انظر قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل، مكتبة الآداب– مصر،ص170.

[4]– انظر المصدر نفسه، ص172.

[5]– المصدر نفسه، ص170.

إنّ محاربة الواحديّة والسّعي لإزاحة الدّين من حياة الإنسان والحطّ من قيمته توسل إليه بمختلف الأساليب التي قدّمت في ثوب العلم كما في ثوب السّفسطة، بغرض إبداله بدين آخر يخدم أهواء ومصالح المنشئين والمروّجين له مستغلّين في ذلك فطرة وغريزة الإنسان في التديّن.

3. التمثّل القيمي للتديّن:

إن التدين غريزة إنسانية بامتياز، وقد شهد جمهور المؤرخين والأنثروبولوجيين سواء بالتصريح أو التضمين بأن الإنسان حيوان متدين. ومعنى هذا أن كل إنسان يحمل هذه الغريزة فيه، ولكن الاختلاف هو في تمثّل موضوعها؛ فحتى إن خبت أو بدا على صاحبها التنكّر لها وربّما التهجّم على موضوعها، فهذا لا يعني البتّة زوالها.

لا يعتدّ بإنكار قلة أو كثرة من الناس لغريزة ما، لأنها مرتبطة بالنوع منتقلة بالوراثة وعليها قوام بقاء واستمرار النوع الإنساني. الغرائز لا تسلك في حملها حاملها على تحقيق غاياتها طريق العقل والإقناع، بل طريق الإلزام عبر إشعاره بالنقص والحاجة والألم، ومكافأته عند الاستجابة لها باللذة والراحة والاكتفاء والإشباع. وإعلان موقف رافض أو منكر للدين ليس السبيل اليسير للتخلص من آثار عدم الاستجابة لغريزة التدين والغريزة الدينية إن طلبت موضوعات ليست دينية في الأصل لفاقة أو انحراف، فإنها تطلبها لتؤدي وظيفة دينية، وليس غياب الصفة الدينية عنها دليلا على انعدام الدين أو اللادينية أو ضمور واضمحلال الغريزة؛ بل هو تأكيد لوجودها ولقوتها واستمرارها[1]. لهذا نجح الإنسان في استبدال دين بدين في فترات مختلفة من حياة الإنسانيّة، بإخضاعه لنظام ما.

والارتباط الوثيق بين طبيعة النظام الاجتماعي وطبيعة التصور الاعتقادي، وما يفرزه من الانبثاق الحيوي أو انبثاق النظام الاجتماعي من التصور الاعتقادي[2] يصاحبه نظام معرفي مؤثّر في الاجتماعيّ وآخر متأثّر به، والتراتبات السلطوية التي يحكمها ثنائيّ آمر/خاضع أو مستغِلّ/ مستغَلّ تتحكّم بدرجة كبيرة في تكوين كلا النّظامين. أي أنّ الأنظمة الاجتماعيّة قديمها وحديثها في المجتمعات المتباينة صادرة أساسا من التصوّر الاعتقاديّ لكلّ مجتمع. فالتصوّر الاعتقاديّ ما هو إلاّ دين المجتمع الذي يتصوّر في ضوئه حقيقة الوجود وحقيقة الإنسان، ووضعه في هذا الوجود وغاية الوجود البشري في الحياة، ثم يتّجه على هذا

[1] – انظر عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص79.

[2] – انظر علم الاجتماع الديني: عبد الله الخريجي، ص35.

الأساس إلى تصوّر الوسائل التي يمكنه استخدامها لتحقيق غايته في الحياة. والدّين يحدّد العلاقة بين أفراد المجتمع ومنظماته، وفي ضوء ذلك يتحدّد كلّ نشاط بشريّ بما فيه مشاعر الأفراد وأخلاقهم وعباداتهم وشعائرهم وتقاليدهم[1].

4. طبيعة التصور القيمي للبديل المطوّر للدّين:

برع القائمون على توجيه تديّن الإنسان –ليوافق أهواءهم ومصالحهم– في إيجاد بديل مطوّر للدين نجح إلى حد كبير في أن يجد مكانا له رفقة الدين، جنبا إلى جنب، في نفوس كثير من المتدينين وحتى رجال الدين صاروا يدعون إليه ويبشرون به. وهذه المناقضات للدين تتحاشى ببراعة استثارة الحمية الدينية الغريزية المعروفة عند الإنسان عموما، وتتدثر بشعار الإنسانية والعالمية دون أن تنسب إلى مفكر أو فيلسوف بعينه، بل توصف بأنها نتاج القيم الإنسانية الحضارية الحديثة، وتبدأ في العمل على إفراغ الدين من قيمه الجوهرية وجر المتدينين — بله سواهم– إلى أشكال جديدة من الدين المتآكل المشوه، المنسلخ عن القيم الأخلاقية الأصيلة: المتحررة من الخضوع لطغيان الشهوات، والمتعالية عن عالم المادة إلى عالم الروحيات... فيبدو كثير من أنصار الأديان أمام هذا التيار الجارف مستسلمين، بل إنهم يتجندون للدعوة إليه والترغيب فيه، ويبحثون عما يوافق في دينهم هذا البديل، وربما اصطنعوا الكثير ودسوه في الدين ويتفاخرون بعد ذلك بأن دينهم كان أسبق في الدعوة إليه، وينافسون في ذلك باقي الأديان، يتزلفون إلى هذا البديل الجديد، لا ينكرون وجود الله لكن يحيون وكأنه غير موجود، ولا ينكرون أن البعث والآخرة حق ولكن يجعلون الدنيا بطريقة عيشهم الحياة الوحيدة. وهذا البديل يجلس على كرسي قاض منصف رحيم، يريد أن يرد الاعتبار للمحق لكن يحرص أكثر من ذلك ألا يجرح مشاعر المبطل، بل وحتى ألا يعلمه أنه على باطل، فيقول للمتقاضين المتهافتين عليه: لم لا تتركون ما أنتم عليه من الجدال والخصومة، وتعالوا إلى آفاق جديدة رحبة تتساوون فيها جميعكم ويكون لكم ما تشاؤون من الدنيا جميعكم.

والإلـه الجديد الذي أوجده هذا الدّاعي هو الإنسان نفسه، أو بالأحرى الجانب الحيواني المادي من الإنسان، بعيدا عن الله والروح، منغمسا في الشهوات، متكالبا على الدنيا. والقديم المتجدد الذي برع فيه –كما لم يحدث من قبل– هو أن يلبس صنم الشهوات والمادة ثوب أخلاق زائف، بعد أن جرد الإنسان من كل فضيلة فلا يطالبه ضميره بالعودة إلى الأخلاق... وأن يجمله ويزينه حتى يستر قبحه وبشاعته عن

[1]– انظر علم الاجتماع الديني: عبد الله الخريجي، ص36.

أعين أعماها أن تعرف الجمال الروحي وتقدره... ويلهي قلبه وعقله عن تبصر مستقبل الإنسان المحزن بل ووعي حاضره المخزي بشعار الإنسانية الزائف، إنسانية تحمل النصف الترابي من معنى الإنسان، وتسخر كل طاقاته الجبارة في عبادة أهوائه وشهواته التي لا حدود لها ولا نظام[1].

إنّ هذا الواقع القويّ يتطلّب مواجهة قويّة بنقل قيم الاهتداء والدّعوة إلى سبيل الله تعالى كما أمر في كتابه الكريم – بما يجعلها تفرض نفسها– نقلها إلى المعرفة الواجب حضورها في الفترات التي يمرّ بها الإنسان في حياته، وهذا من خلال العوامل المحدّدة للسّلوك، حتّى يتّخذ الاتّجاه الذي يتّفق والرّؤية القيمية القرآنيّة عبر تلك العوامل، كالمصالح، والدوافع، والمعتقدات، والمخاوف، والقيم. وهذا ما يتشكّل وينتظم بصورة رئيسة عبر العمليات المعرفية التي تلعب دورا هاما في تحديد شكل السلوك الفردي.

والمكونات المعرفية لفرد ما "هي ثمرة خبراته التعليمية التي يكون قد حصلها بالدراسة أو الصدفة في إطار اجتماعي أو فردي"[2]، وكلّما حاز الإنسان من أسباب العلم كان أقوى، ولكن يحتاج إلى المناهج السليمة البعيدة عن التطرّف والمغالاة والتّقليد في تحصيل العلم. يعلّمنا تعالى جدّه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء: 85؛ يعلمنا أنّ الإنسان مهما ارتقى في أسباب العلم وحاز من المعرفة يبقى جاهلا بالكثير ولا غنى له عن وحي الله يتعلّم منه ويأخذ منه سبل نجاته، ومما يعلّمنا المولى تعالى في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أسباب نقض الإنسان العهد مع الله وكفره به، وهذا ما يجلّي عوامل الانحراف عن الطريق المستقيم، ويوصل إلى استخراج مادة نظرية شاملة تترابط فيها القوانين الإنسانية التي تحكم النفس والجماعة وسنن الله التي تجري عليهما، وفيما يأتي بعض من هذه الأسباب والعوامل:

4–1–العوامل النفسية الفردية:

يذكر القرآن الكريم الطبائع والغرائز النفسية الأساسية للإنسان بصفته النوعية، وهي إجمالا سلبية سيئة الأثر والعواقب، حتى إنه في –حدود الاطلاع – ليس في القرآن نسبة طبائع إيجابية أصلية للإنسان،

[1]– انظر عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص81–82.

[2]– تأثير تكنلوجيا الاتصال على الروابط والعلاقات الاجتماعيّة داخل الأسرة الريفيّة: عبد الفتاح توابتي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، ورقلة– 2013/2012م، ص56 نقلا عن الاتصال ونظرياته المعاصرة: عماد مكاوي– حسن ليلى، الدار المصرية اللبنانية– القاهرة، ط4، ص131.

وقد جاء الحكم العام على الإنسان بأنه يتجه إلى الخسران إن هو وكل إلى نفسه وطبائعه وخصائصه النوعية كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ العصر: 1-2[1].

ومن الأمثلة عن الغرائز والصفات النفسية العديدة للإنسان التي جاءت في القرآن قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ إبراهيم: 34، وقوله سبحانه: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ الإسراء: 11، وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ الإسراء: 100، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ المعارج: 19-21.

كما جاء في القرآن بيان لتغير سلوك (الإنسان النوعي) وحاله باختلاف الظرف الذي يقع فيه كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١﴾ فصلت: 51، أو تحقق الصفة الإنسانية النوعية بحسب الظرف والسلوك أو الحال الذي يتولد عن التقائهما – أي الصفة والظرف[2]– كما في قوله﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ المعارج: 19-21[3].

ومن المهم الإشارة إلى أنّ المواضع التي يثني فيها الله على عباده تنسب إلى الفرد بصفته الشخصيّة كالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وكجماعة المؤمنين المبايعة للنّبي عليه الصّلاة والسّلام، والمؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم... إلخ، فالقوم وهم الجماعة من النّاس هم الحاملون لقيم الخير والصّلاح في المجتمع،

[1]– انظر عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص128.

[2]– وهذا ما تدرسه النظرية المعرفية، التي يعتبر جان بياجيه من روادها من خلال دراساته المتعددة عن نمو الحكم الخلقي عند الطفل وتفكيره، وتهتم نظرية العزو بدراسة الأسباب التي تقف خلف سلوك الفرد، وفيها نوعان:

داخلية: تشتمل على الأسباب والعوامل الداخلية مثل الحالات الانفعالية أو المزاجية وسمات الشخصية والقدرات والظروف الصحيّة.

خارجيّة: مثل الضغوط الاجتماعية من قبل الآخرين، وطبيعة الموقف الاجتماعي، والظروف الاقتصاديّة. انظر البناء القيمي وعلاقته بالتنشئة الاجتماعية والدافعية للإنجاز: إبراهيم السيد– رسالة دكتوراه– جامعة الزقازيق– 2005، ص53.

[3]– المصدر نفسه، ص129.

وهذه الجماعة هي التي تدعم الفرد بحمايتها واحتوائها له وضمّها إياه، وأما إن كانت متبنية لقيم الفساد والطّغيان فستأخذ بيد الفرد إلى أمواجها، يتيه فيها ولا يكاد يرى إلا ما ترى تلك الجماعة. والخصائص الأساسية النفسية للإنسان تتطوّر بالخبرة والتجربة وينتج تفاعلها مع باقي الأفراد بالإضافة إلى خصائص كلّ فترة زمنيّة؛ ينتج الحياة الاجتماعية.

كما أنّه ليس هناك ما يدل على أن الإنسان يفتقد إلى عناصر الخير والصلاح في نفسه بما هو نوع، ولكن يبدو أن التركيز في القرآن الكريم كان على الخصائص سالفة الذكر ربما للتنبيه عليها والحذر منها أو لأنها الغالبة على الإنسان. والاتجاهات الخيرية والإيجابية إنما تتولد في الإنسان من مصادر خارجية، وممارسة العقل الذي يضبط النفس ويمنعها. والمصدر الخارجي هو الله أساسا، دون بحث طريق حدوث ذلك، فهو الهادي والغفور والذي يرعى الإنسان في نشأته، ومن أمثال هذا المعنى ما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾النور: 21[1].

في مقام آخر، يذكر القرآن الكريم تأثير هذه الغرائز والخصائص على تفكير الإنسان بطريقة مجانبة للحق والمنطق كما في قوله: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾﴾ فصلت: 49-51، فتلك الصفات تتلاعب بالإنسان وتجعله يسلك مناهج متناقضة، حتى تطغى نظرته الذاتية على رؤيته للواقع فيؤمن بما يريد هواه منه لا بما هو حقيقي وواقع، وكمثال تطبيقي على ذلك يروي الله تعالى في القرآن قصة الرجل الذي جعل له جنتين في سورة الكهف، حيث قال المولى عنه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾﴾ الكهف: 35-36، فهنا يمكن ملاحظة عمل عدد من الصفات الإنسانية مثل غريزة الخلود وانحرافها حين امتزجت بصفة الاستعجال لدى الإنسان، فظن أن جنته خالدة في الدنيا وذاك مخالف للمعاين والمشاهد، ويتضمن اعتقاده هذا

[1] – إبراهيم السيد– رسالة دكتوراه.

اعتقادا مضمرا لا يمكن التصريح به لظهور بطلانه وهو خلوده في الدنيا إذ لا معنى لفرحه بخلود جنته إن لم يكن هو خالدا، ثم نشأ عن ذلك قياس خاطئ بسبب ضغط الهوى على العقل، فأنكر القيامة التي تقتضي زوال هذه الجنة وموته وتحول الحال التي يريد هذا الرجل استمرارها، ثم بنى على فرض قيام الساعة –ليزداد اطمئنانه بما اعتقده من خلوده وجنته، ويصد عقله عن الاهتمام باحتمال قيام الساعة–، قياسا على ما لديه أنه لو بعث لامتلك أفضل منها، لأنه حاز هذه الجنة في الدنيا. وهنا عملت غريزة التملك التي توهم الإنسان باستحقاقه لما بين يديه، فلأن الجنة هذه بحوزته فهو يستحقها وبما أنه يستحقها في الدنيا فإنه يستحق خيرا منها في الآخرة. ويأتي استخدام أدوات التوكيد لبيان الإنكار الداخلي الذي كان يريد إخراسه وإنكار صاحبه الذي كان يخاطبه، وكانت النتيجة في الحالتين أنه يحوز جنة ويتنعم بها، لأن ذلك هو هدف صفاته وطبائعه الإنسانية من تحريف الواقع في كلتا الحالين. وهو لما دخل جنته كان قد حرف الحق أو أصر على تحريف ما تلقاه، حيث كان مشركا، وما كان منحرفا إلا لأن تفكيره وتصوره عن الدنيا والله كان موافقا لما يريده هواه منه، فالصفات الإنسانية والمنطق الذي نشأ متواطئا معها –التي دل عليها تصريحه في الآيات السابقة– كانت أصلا وراء اتباعه لدين وضعه أو وُضع له وأصر عليه؛ وما يؤكد على هذا أنه حين فقد كل شيء –جنته وما أنفق فيها من وقت وجهد ومال–أفاق من سكرته واستعاد عقله، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ الكهف: 42. ويلاحظ أن الغريزة العقلية الأساسية لدى الإنسان وهي رفض التناقض قد وظفت في تفكير هذا الرجل لأداء ما يناقض وظيفتها الأصلية[1]، حيث قامت هذه الغريزة العقلية ببناء

[1]– وهذا ما يعبّر عنه بالتنافر المعرفي الذي يعدّ أحد أهمّ الظواهر البشريّة التي نالت اهتمام الباحثين للعديد من السنوات، ثم تضاءل هذا الاهتمام حتى عاد من جديد بزخم أكبر في السنوات السابقة من الألفية الثانية. ظلت هذه النظرية راسخة وثابتة تماما لأكثر من خمسين عاما، فكانت مصدر إلهام لمئات الدراسات لاستكشاف اتخاذ القرار، وإضفاء الصفة الذاتية على القيم، ومحدّدات الاتجاهات والمعتقدات. ونظريّة التنافر المعرفي هي واحدة من مجموعة نظريات علم الضّبط السبرانية والتي تعرف بـ" نظريات التناغم"، والتي تبدأ جميعها بنفس المقدمة: يكون الأفراد مرتاحي البال في حالة التناغم والتجانس أكثر منه في حالة عدم التناغم، ويعتبر النظام المعرفي أداة رئيسية يتحقق بواسطتها هذا التوازن، ويتمّ تخيّل العقل كنظام يأخذ المدخلات من البيئة في شكل معلومات، ويعالجها، ثم يوجد مخرجات سلوكيّة. انظر بناء مقياس للتنافر المعرفي وتقدير خصائصه السيكومترية لطالبات جامعة أم القرى بمكة المكرمة: مريم حميد اللحياني وسميرة محارب العتيبي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، مجلة الدراسات التربوية والنفسية– جامعة السلطان قابوس، مجلد9 عدد3– 2015م، ص417. وتشير هذه النظرية إلى أن لكل منا عناصر معرفية تتضمن معرفة بذاته، كما أن لكل منا معرفة بالطريقة التي يسير بها العالم من حولنا. فإذا ما تنافر عنصر من هذه العناصر مع عنصر آخر بحيث يقضي وجود أحدهما منطقيا بغياب الآخر؛ حدث التوتّر الذي يملي علينا ضرورة التخلّص منه. انظر البناء القيمي وعلاقته بالتنشئة الاجتماعية والدافعية للإنجاز: إبراهيم السيد– رسالة دكتوراه– جامعة الزقازيق– 2005، ص 53.

تصور موافق لما يريده هوى الرجل وتهيئة دين (أو تبنيه) ليس فيه ما يناقضه، فحل ما يريده الرجل محل المسلمة، ثم انطلق تفكيره ليؤسس (أو يتبنى) دينا يوافق إلى أبعد ما يطيق تلك المسلمة، وفي سيره في هذه العملية كان ينكر ما يبدو له بعيدا عن المشاهدة كالقيامة، ويتجاهل ما لا يمكنه إنكاره كالموت[1].

4-2-العوامل الاجتماعية:

خلق الله الإنسان مهيّأ ومقبلا على الحياة الاجتماعيّة بما أودعه فيه من صفات وخصائص، كالحب، والعطاء وحبّ البقاء... مما لا يستقيم إلا بانتظامه في الجماعة والتعايش معها. وبحسب المصالح المشتركة أو المخاطر والتهديدات المشتركة تتقارب الجماعات الصغيرة لتؤلّف تجمّعات أكبر وتحالفات.

إنّ أبرز وأهمّ جماعتين تبعا للمصالح المشتركة والمضارّ والتهديدات؛ هي جماعة المؤمنين وجماعة الكفار. فالمسلمون هم من يسعون في عمارة الأرض بالدين الحقّ القيّم، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾الأنعام: 165. وجماعة الكفار هي التي تطغى بنعم الله عليها وتسعى إفسادا في الأرض، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارًا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ الأنعام: 6.

وكلّ جماعة بطبيعة الحال لها تفرعات خاصّة بها، وقمّة هرم السّلطة فيها تحدّد مهامّ ورتب البقيّة حسب اعتقاداتها وطبيعة تصوّراتها، قال تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا سُخۡرِيًّاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الزخرف: 32، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ الأنعام: 165، وهؤلاء المرؤوسون بدورهم يستبطنون أهداف رؤسائهم. هذا الوضع الذي يسم العلاقات

[1]- عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص130-131.

بين الناس في كلّ صغيرة وكبيرة في حياتهم قد يطبع قلوبهم على التّقليد والوقوع في فخّ اتباع ما جاء به الآباء أو من يحلّ محلّهم في السّلطة المعنويّة والنّفسية والعلميّة...إلخ. لذلك حذّر القرآن من الاتباع بغير بينة وبدون إعمال الفكر والتدبّر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ لقمان: 20-21.

جاء على سبيل المثال في القصص القرآني تركيز على العوامل الحاسمة التي تؤدّي إلى إحداث مشكلة في مجتمع إنساني ما، والذي يستخدم كمعايير لمعالجة قضايا اجتماعية مشابهة لقضايا سابقة تنشأ باستمرار؛ الأمر الذي يبرز أهميّتها بالنّسبة لعالم المعرفة الإنسانية، إنها تقدم صورة مختصرة عن كيفية نشوء المجتمعات الإنسانية ودورات الرقي والانحطاط فيها، هذا إلى جانب تطرّقها للقوى المحرّكة لتلك المجتمعات[1]. فإن القرآن الكريم قد جاء فيه أن المترفين (الأفراد) والملأ (التكتلات) يقيمون أحوالهم في الحياة الدّنيا تقييما خاطئا جعلهم يكذبون دعوة الرسل – عليهم الصّلاة والسّلام–، وينسبون ما هم فيه من نعمة إلى أنفسهم، يقول المولى عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ سبأ: 34-35. وهؤلاء الملأ بما حازوه من سلطة تمكنوا من إخضاع الفئة المستضعفة لتوجّهاتهم الجديدة، وقد حازوا ما حازوه من هذه القوّة بالقيم التي أنتجها دينهم والذي ظهر أوّل ما ظهر بانفلاتهم عن العبوديّة للّه الواحد الأحد لغرض تحصيل قوّة المال والتسلّط بغير حقّ، وبعد هذا التسلّط ينكرون أي دعوة ورسالة تهدّد مكانتهم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزخرف: 23، وتدعوهم إلى إعمال عقولهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الزخرف: 24.

[1]- انظر أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة: زاهية الدجاني، دار التّقريب- بيروت، ط2، 1416- 1995، ص7.

في الأمم التي حكى القرآن مصارعها كان الانحراف الفكري مترافقا غالبا بذكر انحرافات اجتماعية متنوعة تأخذ شكل التقاليد والأعراف التي تفرض وتحمى باستغلال القوى الاجتماعية المادية والمعنوية، أي أن الدين الوضعي يمس بالضرورة الدين الأول والشرائع التي ترافقه وتحافظ عليه[1]. وقد مرّ أنّ الغرائز الإنسانيّة إن لم توجّه الوجهة الصّحيحة فستميل مع أهواء أصحابها وتخدم تصوّراتهم وقيمهم التي آلوا إلى تمثّلها بعد أن انحرفوا عن الميزان الصّحيح في الحياة الدّنيا كما مرّ مع صاحب الجنّتين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ الكهف: 103-105.

وينتهي الدين الجديد إلى جعل الإنسان مجرد أداة مستسلمة لمشروع عنوانه إنساني، ومضمونه إنساني عام بما أن الإنسان أداته الأساسية، وإنساني خاص بما أن المستفيدين منه فئات ضيقة جدا من الناس. ويكون المشروع الإنساني بذلك فشل فيما أزمع حصر اهتمامه عليه وهو الحياة الدنيا، فيخسر الإنسان بذلك الدنيا والآخرة. ولا ريب في أن التحكم المذكور في عقول الناس ومصائرهم يجعل الإنسان يرتقي إلى مصاف الربوبية والألوهية، وهذا التعبير مستخدم في الأدبيات الحديثة وما يتلوها، والمعنى منه ليس إلا المعنى الديني الدقيق، ولكن أرباب هذا المشروع من المنظرين والمنفذين ليسوا إلا ضحاياه، وهم كذلك – مثلما كان الشيطان في قصة آدم– ضحايا مسار محتوم لاختيارات لحظية أو محدودة جدا في الزمن، فالشيطان بعد إعلان التمرد واستحقاق اللعنة الأبدية لم يكن أمامه من خيار للرجوع، والإنسان (الفرد) الحديث وما بعده على هذه الأرض لم يصنع سياقه التاريخي بل ورثه ولم يكن إلا أداة من المنظور الكلي فأثر فيه تأثيرا ضئيلا جدا وإن بدا أن تأثيره كان بعيدا وعميقا (كما هو بالنسبة إلى بعض الشخصيات الفكرية والسياسية)، فقد أسندته مجموعة هائلة ومنظمة من المتغيرات ليبلغ ذلك المدى، فالإنسان (الفرد) ليس إلا جزءًا صغيرا جدا من سيرورة حتمية تفوقه بكثير، وحتى ما يأخذ طابع التنظير والتخطيط هو في حد ذاته نتيجة اختيارات شخصية حرة من حيث هو مستحق، لكن مضمونه خارج تماما عن الإنسان (الفرد) ولم يكن إلا طريقا يعبر منه هذا المضمون إلى الوجود في هذه الدنيا في الوقت المناسب ليؤدي وظيفته في المسار الحتمي الكبير لهذه الدنيا. ولعل الفلاسفة والمفكرين يدركون أكثر من غيرهم أن أفكارهم

[1]– عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص133.

وتصوراهم أثرت في مجرى التاريخ بطريقة عشوائية (من منظور الاحتمالات الرياضية) أسندها الحظ أكثر جدا مما يعود ذلك إلى مضمون وشكل أفكارهم والجهود التي بذلوها للتمكين لها[1].

تساهم كلّ هذه الأوضاع والتطوّرات في تراكمات على الإنسان تبعده عن وعيه بكرامته وحريّته، وتسبّب باستمرار تشويه الفطرة بنمط الحياة الحالي، وفي هذه الحال لا غنى للإنسان عن كتاب الله يرشده ويهديه سواء السّبيل.

المطلب الثاني: الفطرة والتطرّف

إن النظر إلى الوقائع التاريخيّة والحقائق الاجتماعيّة يظهر ميل الإنسان إلى اتباع العادات والتقاليد وتمثّل الثقافة السّائدة وإنكار ما يخالفها، وكلما طال على الإنسان هذا العهد وابتعد عن الفطرة والدّين القويم ازداد تمسّكا بالمستحدث واتباعا للواقع الماثل أمامه، وبعدا وإنكارا للفطرة التي فطره الله عليها بما هي تلك الحالة التي أوجده عليها وخلقه بها مهيّأ لموافقة دينه سبحانه والبحث عن الارتقاء إلى الكمال الباطنيّ والظّاهريّ. فإلى أي مدى ابتعد إنسان العصر عن الفطرة السويّة فيه؟ وقبل ذلك ما هو مفهومها؟

1. مفهوم الفطرة:

لغة: تطلق على معان عدّة تدور حول: الشق، والخِلقة، والابتداء، والاختراع، والخلق والبدء[2]، والقبول[3].

اصطلاحا: تعددت أقوال العلماء في بيان معنى الفطرة، ومن أبرز الأقوال ما يأتي:

أولا: قالت جماعة من أهل الفقه والنظر أريد بالفطرة[4] الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي

---

[1]- عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص119.

[2]- انظر لسان العرب: ابن منظور، 5/55-59،

[3]- انظر المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهانيّ، دار المعرفة- لبنان، ص382.

[4]- وهي التي جاءت في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه كان يحدث قال النبي ﷺ قال: " **ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**". ثم يقول أبو هريرة ﷺ: {**فطرت الله التي فطر الناس عليها**}الآية. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام،ح 1292.

لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك واحتجوا على أن الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بقول الله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية- فاطر: 1. يعني خالقهن، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية- يس: 22.

وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار. قالوا: وإنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعا وبنية، ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا[1].

ثانيا: الفطرة الإسلام، وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل، قد أجمعوا في قول الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ الآية- الروم: 30. على أن قالوا فطرة الله دين الله الإسلام[2].

ثالثا: الميثاق الذي أخذه الله من ذرية آدم قبل أن يخرجوا إلى الدنيا يوم استخرجهم من ظهره كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: 172. فأقروا جميعا له بالربوبية عن معرفة منهم به، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على تلك المعرفة وذلك الإقرار. وليست تلك المعرفة بإيمان ولا ذلك الإقرار بإيمان ولكنه إقرار من الطبيعة للرب فطرة ألزمها قلوبهم، ثم أرسل إليهم الرسل فدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية والخضوع تصديقا بما جاءت به الرسل، فمنهم من أنكر وجحد بعد المعرفة وهو به عارف، لأنه لم يكن الله ليدعو خلقه إلى الإيمان به وهو لم يعرفهم نفسه إذ كان يكون حينئذ قد كلفهم الإيمان بما لا يعرفون قالوا وتصديق ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية- الزخرف: 87[3].

[1]- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ابن عبد البرّ، مؤسّسة قرطبة، 18/68-69.

[2]- المرجع نفسه ، 18/72.

[3]- المرجع نفسه، 18/90-91.

والحاصل أن الفطرة ما هو مطبوع في الإنسان ومخلوق عليه فيجد به في نفسه الميل إلى ما به صلاحه، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين: 4. كما خلقه الله في أحسن تقويم فإنه مفطور على الحفاظ عليه وطلب الوسائل المفضية إليه، وبما يوافق العقول السليمة، وتبعا لذلك فهو يجد الخير في اتباع الإسلام لأنه الذي يحفظ الميزان في الحياة الدّنيا، وإذا ثبت ذلك كان نظام الحياة والدّين بالمعنى العامّ والواسع هو الذي يتّفق والإسلام، ولإقامة هذا الدّين القيّم على الإنسان الاهتداء بوحي المولى.

جاء في شرح حديث كل مولود يولد على الفطرة: "والمعهود فطرة الله التي فطر الناس عليها أي الخلقة التي خلقهم عليها من الاستعداد لقبول الدين والتأبي عن الباطل حتى يعرب عنه لسانه، فحينئذ إن ترك بحاله وخلي وطبعه ولم يتعرض له ما يصده عن النظر الصحيح من فساد التربية وتقليد الأبوين ونحو ذلك لينظر فيما نصب من الأدلة الجلية على التوحيد وصدق الرسول لم يختر إلا الملة الحنيفية"[1].

والفطرة هي ما هو مغروس فينا نتّبع به الأصلح والأصوب، وللاهتداء إليه بهديه تعالى. يقول جلّ شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل: 78. فالإنسان عند ولادته لا علم له ولا معرفة، وإنّما يحصّلها ويكتسبها بطرق السمع والأبصار والأفئدة، فمن واجبه ومسؤوليّته الاعتناء بتحصيله أسباب الاهتداء والابتعاد عن المتعلّقة بالشقاء والضّلال. وهو مخلوق ابتداء ليوافق دين الله ويحيى به ما لم يظهر له عارض وسبب يثنيه ويحجبه عنه، وكيف يعقل أن يفطر الله مخلوقاته على غير الدّين الذي ارتضاه لهم؟! الجبلّة التي هو عليها تجعله مهيّأ للانقياد للدّين الحقّ، ولكن اقتضت مشيئة الله وحكمته ما قاله سبحانه: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأعراف: 30.

بعد عرض معاني الفطرة؛ هل من الممكن أن تفسد هي وتتشوّه، في حين يبقى الدّين قائما؟ أو أنّه باق ولكن ليس قائما بما تحمله الكلمة من معنى؟ فيكون لدينا دين على مقاس من ارتضوا بديلا عنه! وهل الحفاظ على الميزان في الفطرة يعدّ معيارا للحكم على المنتمين للدّين بأنّهم أسلم من غيرهم في قيامهم بالدّين؟

[1]- التيسير بشرح الجامع الصغير: زين الدين المناوي، مكتبة الإمام الشافعي- الرياض، ط3- 1408 هـ ، 426/2.

2. تخلّف قيم الميزان للفطرة:

يحوّل الإنسان القيم والمعرفة التي يستقبلها ويتمثّلها من خلال المعرفة التي اكتسبها وانطلاقا من التّربية التي تلقّاها سواء كانت منتهجة ومدروسة أو اعتباطيّة، ويفرزها في سلوكاته وأخلاقه. وإذا كانت حياة الإنسان اليوم مشبعة بـ:

- تجاهل اليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ النمل: 4.وقال الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ ص: 26.

- طلب الانغماس في الملذّات:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ ﴾ سبأ: 20-21. وقال عز وجلّ: ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت: 38.

- اتّخاذ الهوى إلها:

قال المولى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠ ﴾ القصص: 50. وقال عزّ وجلّ: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣ ﴾ الجاثية: 23.

فهناك إفساد يأتي من المدخلات التي يتلقاها الإنسان، ومن العمليّة التّربويّة، لذلك ينبغي الاهتمام بمراجعتهما مراجعة مسؤولة لئلا ينتج لنا دين مشوّه محرّف وبعيد عن الدّين القيم الذي ارتضاه الله لعباده.

وحيث أنّ استمرار تراكم الخطايا على القلب وإحاطتها به تقوّي الجدار المانع والصادّ للحقّ ومنطق العقل السّليم، والخطيئة هي مجانبة الصّواب بنيّة تعمّد اقترافها أو عن جهل، وفي كلتي الحالتين يدرك قلب الإنسان العاقل ذلك ويذكره ويتذكّره ما لم يصحّحه صاحبه بتوبة صادرة عن عقل أيضا. لذا فالذّكرى

والتذكّر ضروريّان باستمرار للفرد لأجل الحفاظ على توازنه وفطرته، ويخبرنا القرآن الكريم بأنّ فطرة الإنسان هي الإسلام وعبادة الواحد الأحد، وأنّ ذلك مغروس فيه، فلا يبقى إلاّ الجزم بأنّ كلّ إنسان يجد في نفسه معرفة داخليّة بأنّ هناك إلـها واحدا تدعوه نفسه لعبادته والخضوع له وحده، ودور القيم التي يحيا بها المرء والتي يكتسبها أن تقوّم طريقه وسلوكه أو العكس. وهذا من معاني: "...**فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه**".

الحفاظ على فطرة سليمة يتطلّب تربية متوازنة سليمة لا تنتهج نهج من يأخذ ببعض الكتاب ويترك بعضه فالنّسق القيمي القرآنيّ يتّسم بالشّمول والاتّساق والتّكامل، وسمة " التكامل لا يمكن أن تأخذ كلّ معناها إلا من خلال تصوّر يوضع فيه النسق القيمي موضع التنفيذ. بل ولا نبالغ إذا ما قلنا بأن الجانب الأكبر من أسباب أزمة التربية في مجتمعاتنا الإسلاميّة يتعلّق بتجزئة المنهج الرباني ليؤخذ منه ما وافق الهوى وليترك منه ما خالفه. وسمة التكامل للنسق القيمي المستنبط من كتاب الله تعني أن لا فائدة من وراء تجزئته والفصل بين عناصره ومكوناته، وتجعل فاعليّته والإفادة من عائده رهنا باحترام وحدته وتكامله.

ويكفي أن نتأمّل في واقع المجتمعات الإسلاميّة اليوم لنرى كيف يساء إلى الإسلام بسبب هذا المنهج القاصر الذي يأخذ ببعض الكتاب دون البعض [...] بل إنّ غيبة التكامل الذي نتحدّث عنه هنا، أي عدم الفصل بين عناصر النسق القيمي الذي حدّده الله سبحانه لعباده، يفسّر سيطرة العديد من القيم السلبيّة التي حرص الله سبحانه على إبرازها في أكثر من موضع ليتعلّم المسلم وتتوقّد يقظته لرفض هذه القيم ومحاربتها"[1]، "وغنيّ عن القول أنّ الدّراسات التي تتجاهل متغيّرات أساسيّة تبقى تعاني من القصور والعجز وتنحرف في التّفسير"[2].

واستنادا لقيم القرآن الكريم ومقاصده العليّة ضمن حدود الفهم البشريّ، كمقاصد الهداية والتّسخير والتعلّم، على الباحث المسلم أن يجتهد في الإفادة بموضوعيّة من علوم الكون المادّي والاجتماعي والنّفسي، فالنّظر والتدبّر المتمعّن سيرشده إلى مراجعة جريئة لقيم العولمة التي فرضت نفسها، ولردّ قويّ وملزم للفلسفات والنّظريات المعاصرة، المناقضة الفطر السّليمة والدّين الذي ارتضاه الله لعباده.

بالموازاة مع هذه التغيّرات الاهتمام بالذّكرى ضرورة ملحّة، الذّكرى بنواميس الكون المادّية والاجتماعية والنّفسية، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ الأعلى: 9-11، والتّربية

[1]- القيم في القصص القرآنيّ: محمد أحمد حريري، رسالة دكتوراه الفلسفة في التربية، جامعة أم القرى- مكّة، 1988م، ص214-215.

[2]- عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: عدنان بن عطية، ص 135.

على قيم الإسلام وأخلاقه، ولكن الغريب أن ما يحدث هو العكس. القيم التي يحيا بها إنسان اليوم أبعدته عن الفطرة وعن ربّه، وتربطه أكثر فأكثر بالعالم المادّي وتشوّه الإحساس الجماليّ والرّوحي لديه. الإنسان صار يبحث عن ذاته؛ الذّات التي ابتعدت عن خالقها وبارئها، وصارت متعلّقة بتقييم الآخرين لها. لقد أفرزت طبيعة العصر إنسانا مشدوها وولهانا بأساليب الحياة العصريّة، عمت بصيرته وضلّلت وجهته. وحتّى المجتمع الذي كان يضطلع بدور مهمّ في حفظ الفرد الواحد؛ أدّى افتقاده – في الغالب الأعمّ – لخصوصياته الحضاريّة والثّقافيّة لطبيعة قيم العلمنة وما بعد الحداثة الغازية[1] إلى أن يعيش هو أيضا اللاتوازن والفساد اللذين نخرا الأخلاق الإنسانيّة كما المحيط البيئيّ لكوكب الأرض، هذا ما جعل وعيا جمعيّا يتربّى في المجتمع ككلّ حسب ثقافتهم وقيمهم التي نشأوا عليها. ولكن تشاركوا في إهمال حاجات الإنسان النفسية الأساسية، وهي الحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى الارتباط بالجذور، والحاجة إلى التسامي، والحاجة إلى منظومة توجيهية يحيا الإنسان في إطارها.

3. إرادة المجتمع:

يميل المجتمع ويتّجه إلى استبطان رؤية موحّدة من طرف الغالبيّة العظمى من أفراده، تميل إلى الثّبات على الحالة المعرفيّة والأخلاقيّة التي تجد نفسها عليها، وهي تمشي مع التّغيير الهادئ خفيّا كان أو معلنا، ذاك الذي يتمّ على مراحل وببطء. إنّ المجتمع كيفما يوجّه يتوجّه، استنادا إلى خاصيّته في التبعيّة، والمستوى الثقافيّ فيما يتعلّق بالمسؤوليّات والاهتمامات له الأثر البالغ في توجيه سلوكه الجماعيّ، ومجرّد تحوّل أفراده إلى "جمهور يزوّدهم بنوع من الرّوح الجماعيّة، وهذه الرّوح تجعلهم يحسّون ويفكّرون ويتحرّكون بكيفيّة مختلفة تماما عن الكيفيّة التي كان سيحسّ بها ويفكّر ويتحرّك كلّ فرد منهم لو كان معزولا"[2]. فممّا يغترّ به الإنسان ليجد الدّافع لاتباع هواه اتباع مجتمعه لنفس قيمه، هذا والفرد الواحد قد تغلبه غرائزه التي تحثّه على إرادة الخير لنفسه وحده إلا أنّ اجتماع الأفراد يهيّء فيهم وفيه ما لا يقدر عليه هذا الفرد الواحد، فيحفّز في الأفراد فعل الخير والتكافل مع بعضهم البعض، وحماية أخلاق الجماعة. ولكن الوضع الحاليثبّط التّأثير الإيجابي للمجتمع حيث انسحب معظم الأفراد على ذواتهم المغتربة والقلقة.

إن تجمع أفراد المجتمع يخرج مكبوتاتهم ومخاوفهم ويجلّي التحدّيات التي تواجههم، وهذا التجمّع يظهر إذا وجد السّبيل ميسّرا. وما يشجّع الأفراد هـؤلاء على إخراج طاقاتهم وطرد مخاوفهم هو الموضوع الجوهريّ الذي يجمعهم ذو الطبيعة الدينيّة بالمعنى الواسع للدّين، فإرادة الأفراد مجتمعين تتبع قيمهم التي شكلت المبادئ الناظمة للتواصل بينهم.

---

[1] – تعرّض مبحث سابق لطبيعة تلك القيم التي تفتك بإنسانيّة الإنسان وتحوّله إلى شبيه آلة مسيّرة وخاضعة.

[2] – علم نفس الجماهير وتحليل الأنا: سيغموند فرويد، دار الطليعة– بيروت، ط1–2006م، ص11.

وحتّى "على صعيد الحياة اللاواعية، ولا سيما ما يتعلّق منها بالعاطفة والوجدان والغرائز والعقائد الإيمانيّة الموروثة، فإن البشر الأكثر عظمة وتفوّقا لا يتجاوزون إلا نادرا مستوى الناس العاديين. والحال أن الجمهور النفسي، الذي يتكوّن من عظام الناس كما من أدنيائهم، إنما يشتغل وفق نمط جمعي لا شعوري، يفقد فيه البشر فرادتهم الذاتية وتذوب كفاءاتهم العقلية في الروح الجماعيّة"[1].

كما أنّ العادات الموروثة تأخذ طابعا خاصّا من الخصائص الثقافية والقيمية والتي لم تعد تحتكم في مجتمعات البلدان المسلمة إلى المرجعيّة الدّينية الخاصّة بها، هذا بسبب أنّ أي فكرة أو معتقد يقوم في البداية على أساس أقوى منه بعد ثباته وتبنّي الناس له. ثمّ يبقى تلقّي النّاس للمعتقد فترة طويلة من دون منازع له أو منافس فيتأصّل ويتثبّت في وعيهم ولا وعيهم الفرديّ كما الجماعيّ، فإذا بقي اهتمام المعلّمين والمنتخبين ثقافيّا بالمجتمع قائما به باستمرار أنتج ذلك فيهم مستوى راقيا من الأخلاق والعلم والثّقافة. وأما إذا أهمل المجتمع وترك لنفسه فسيظلّ وفيّا للقيم التي لطالما نمّت معارفه ومكنوناته النفسية والروحيّة والعقليّة، يظلّ وفيّا ما لم تتسلّط عليه منظومة قيم أخرى تفتنه، تكون لها القدرة حتّى على تزيين الباطل والفساد في عينيه.

إنّ الغريزة الدّينيّة كفطرة عند كلّ المجتمعات ومضافا إليها في لاوعي المُسلِمة منها مُسلَّمات دينهم الحقّ هي أساس قويّ يدعم تنشئة المجتمع تنشئة تعتمد على عمليّة تربويّة متوازنة تستهدف كلّ إنسان مهما كان عمره وتهتمّ بكلّ الأبعاد التي تكوّن شّخصيّته من خلال نظام من القيم يستند إلى المرجعية التي لا تقوم رؤية العالم دونها، فهي ميتافيزيقا النموذج، وتأتي ضرورة استخدامه "من عدم إمكان إدراك الواقع الخام مباشرة، فلا لابد أن يتمّ التعامل معه من خلال خريطة إدراكية تُبقي وتَستبعد. والنموذج، بهذا المعنى، مرتبط تمام الارتباط بأبسط العمليات الإدراكية بل بالحالة الإنسانية نفسها وبطبيعة الإنسان. إن استخدام النماذج أمر حتمي للإدراك الإنساني ولإجراء أي بحث، فلو جابه الإنسان الواقع، ولو جابه الباحث موضوع بحثه بصفحة عقله المادية البيضاء لأصابه الشلل، ولوجد نفسه مذعناً إما لنماذج الآخرين دون وعي، أو لبعض جوانب الظاهرة موضوع الإدراك والبحث، بحيث يرصدها بشكل ذري مفتت غير متماسك. وإذا كان الأمر كذلك فمن المستحسن أن ننطلق من إدراك هذه الحتمية وأن نواجه الواقع بتساؤلاتنا وإشكالياتنا ونماذجنا التحليلية، مدركين ذلك تمام الإدراك، الأمر الذي سيحسّن أداءنا النظري والتطبيقي"[2].

[1]– علم نفس الجماهير وتحليل الأنا: سيغموند فرويد، ص12.

[2]– انظر موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: عبد الوهاب المسيري، 21/1.

وكلّ فرد بما يُزرع في وعيه ولا وعيه منذ الصّغر من رموز ومعاني وتربية خفيّة تستهدفه؛ فهو يهيّأ ليقترب أكثر فأكثر إلى أن يصير مجرّد رقم مستهلك، وإخراجه من هذه القوقعة من متطلّباته إرجاعه إلى الفطرة في مختلف الجوانب المتعلّقة بحياته. فالله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وبيّن له الصّراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف: 108. وكي يحافظ على هذا الميزان وجب عليه أن لا يعتدي على دين الله، وعلى نفسه، وعلى الآخرين، وحتّى يتحقّق ذلك يجب السعي في إقامة دين الله. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾الروم: 30.

4. مظاهر تخلف الإنسان العصري وانحطاطه في المدينة العصرية:

إنّ الخطأ الذي يأتيه إنسان العصر الحالي هو تقبّله وتبنّيه لكل ما تأتي به حضارة الغرب المتفوّق، وكأنّ الأساليب الجديدة التي تبتكرها باستمرار والقائمة على معاملته كرقم في معادلة ربحيّة لها أمر مسلّم به، والخسار سيحلّ بكلّ من لم يلتزم بنظامها وفلسفتها. ولا غرابة بما أنها أضحت المرجعيّة المهيمنة على الكثير من نظم التواصل الإنسانيّ- الإنساني، والمعرفيّ- الإنساني. ومن غير الممكن أن يتبع الناس "الحضارة العصرية في مجراها الحالي لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط. لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم يتعرض للقوانين الطبيعية — وهي قوانين أكثر غموضاً وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدنيوية،كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم. ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي، ولأترابهم أبناء آدم، ولذاتهم الداخلية، وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم، فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا، فإذا انحط وتدهور، فإن جمال الحضارة، بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى"[1].

على سبيل المثال "التعليم الذي تنشره المدارس والجامعات يتكون بصفة رئيسية من تدريب الذاكرة والعضلات، ومبادئ اجتماعية معينة.. فهل مثل هذه النظم ملائمة حقا للإنسان العصري الذي يحتاج قبل كل شيء إلى التوازن العقلي وقوة الأعصاب وأصالة الحكم والشجاعة البدنية والأدبية وقوة الاحتمال"[2].

إنّ إنسان هذا العصر الدّائم التغيّر مهيأ لوضع الاستعداد للانحطاط والتخلّف، والعالم المثاليّ الذي كانت تعد به العولمة، والأيديولوجيّة التي فرضتها جاء بعكس ما بشّرت به..حروب أتت على الإنسان والحيوان والطبيعة،

[1]- الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل، ترجمة: أسعد فريد، مكتبة المعارف- بيروت، ط3-1980، ص11.

[2]- المصدر نفسه، ص40.

ثراء فاحش متزايد لأقليّة من النّاس في مقابل فقر أكثريّة ساحقة، اغتراب الإنسان العصريّ وفقده الخصائص والميزات الإنسانيّة التي تحفظه متوازنا...إلخ. لقد حجب ذلك النّور الذي يجده المرء في داخله –المرشد له إلى السّلوك الصّواب– بتأثير ضغوطات ومشاكل الحياة العصريّة التي تسجنه داخل حلقة مغلقة، وكلّما رضخ لسلطانها زادت الحلقات المقيدة مكوّنة بذلك سلسلة أقوى تشدّه إلى جدار الواقع المرير المفروض عليه بقوّة الأقوى.

فمثلا الإنسان خُلق ليعبد الله، فإن لم يحي ساعيا في تحقيق هذه الغاية، انحرف إلى عبادة هواه، أو أيّ معبود آخر وهذا الهوى يرتبط لا محالة بقيمة الخضوع التي تركت مكانها الواجب؛ وهو عبادة المولى تعالى، وأخذت عوضا عنه مكانها في عبادة ما سوى المولى تعالى. فالطّرف الخاضع يحتاج لأن يُذلّ نفسه والطّرف المخضع يسعى لأن يستكبر ويهين غيره في الغالب.

التحدّي الذي يواجهه المجتمع المسلم هو في التّربية السّائدة والثقافة الطّاغية على الأفراد، التي لا يكاد يكون فيا للعائلة والمؤسّسة التعليمية أيّ تأثير على المدى البعيد، فهما ببساطة لا تقيمان التعليم والتربية وفق النموذج المعرفي الخاص بمرجعيّتها. وفي هذا السياق فإن العائلة في المجتمع المسلم يغلب عليها تبنّي أولويّة هي تدريس أبنائها، وما يتبادر إلى الذّهن أنّ الغاية هي التعلّم لأجل العلم، ولكن بات الجميع يدركون أنّ الغاية هي ضمان مستوى وتأهيل علميّ هو وسيلة لغاية أخرى هي الوظيفة أو العمل، بمعنى ما يكفي صاحبها المذلّة والفقر في عصر بات فيه توفير الضّروريات وسبل الحياة الكريمة صعبا. ولكن مؤدّى هذا الكلام بالنّسبة لمجتمع مسلم ينتمي لأمّة مسلمة أنّ الهدف والغاية من الحياة هو تحصيل وتوفير المعاش!

صار الإنسان يخضع إلى ما يوفّر ويهيّء له أكبر لذّة وأدومها، وهو يكيّف نفسه لأن يطلب تلك اللذّة بما هو متاح له من إمكانيّات وبما يعيشه من ظروف، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ آل عمران: 14. وبحكم إنسانيّته وتآلفه مع الناس من حوله فهو يدخل معهم في العلاقات والتعاقدات لتحصيل سلطان أكبر، فكلّما نمت الجماعة التي ينتمي إليها الفرد وكانت متّحدة في وجه جماعة أخرى منافسة أو عدوّة لها زادت قوّته بقوّتها وسلطته بسلطتها. هنا الحديث عن الانتماء والهويّة التي تحفظ من ينتمي إليها من التيه والوحدة.

الولاء الأوّل للذّة، ثمّ للعلاقات التراتبيّة التي تنشأ عنها، وأفترض أنّ هناك ترابطا قويّا بين خضوع الإنسان للذّة التي تتسلّط عليه– وإن كان كل شيء يؤول إلى اللّذة؛ فالكلام هنا على اللذات التي تتصل بالغريزة الجنسيّة وبحبّ المال

فتفقده الترتيب الذي يحفظ له حياة متوازنة طبيعيّة- وبين درجة قيمة الانتماء للوطن وللأسرة والعشيرة التي تكسبه الاعتزاز بذاته وتقوّي إنسانيّته. فحاجة الإنسان إلى الوطن والأهل ليضمن استمرار نسله بتوفير الحماية له والأمن، أمّا إذا غاب الانتماء لهذا الوطن والصّلة القويّة بالعشيرة والأهل، فتصبح المرأة هي السّبيل للحفاظ على نسله (باعتبار الغريزة الجنسيّة خادمة للحفاظ على النّسل وعلى بقاء الإنسان)، وحبّ الولد نابع من حبّ الذّات لأنّ الإنسان يرى نفسه واستمراره فيه لأنّه من صلبه ودمه، كما يراه من أهل ولايته... لقد فقدت الغرائز في هذا العصر بوصلتها، وهي موجّهة ببوصلات كاذبة تضلّلها الطّريق. كلّ هذا لفساد الفِطر وميزان الحياة، وحتى الفطر السّليمة تحتاج إلى الوحي للثبات على عهدها.

الخلاصة:

الحفاظ على فطرة سليمة خاصّة في عصرنا هذا- الذي طغى عليه التضليل الإعلامي والاستهلاكيّ، وتراجع القدرات والطاقات الروحية والجمالية والأخلاقية- ضرورة واجبة لأنها صمّام أمان يستوعب به الإنسان الخير ويكشف الشّر، ويتبيّن طريق الاستقامة، فحتّى إن اجتهد في اتباع القانون الوضعيّ ليكون مواطنا صالحا، أو اتباع شرع الله ليكون أيضا صالحا على مستوى أشمل، ففساد فطرته وانحرافها يقوده إلى استبطان رؤية من يعادون الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، ويتحوّل ولاؤه لهم حتّى أنّه يصبح مدافعا وبإخلاص عن إجرامهم وظلمهم. وهذا ما يجب أن يعتني به المشرّعون والدّعاة في المجتمع المسلم لأنّ الاهتداء إلى طريق ما يعتمد على الاعتناء بالوسائل المفضية إليه، والثبات عليه يأتي من فقه الحكم المودعة فيه.

قال رسول الله ﷺ عن البر والإثم: " **البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**"[1].

ومن اليسير، بل بالغ اليسر إعادة أفراد المجتمع الذين مسخت فطرتهم وأفسدت عقولهم، فصاروا ينظرون إلى كلّ ما يأتي من تشريعات الدّين بعين الاحتقار والتّشكيك، من اليسير وضعهم على تشريعات الدّين باستخلاص مكامن الحكم والغايات منها؛ والمتدبّر والفقيه والمشرّع يدرك أنها لا تنفصل عن قيم رفيعة تتضمّنها مختلف الجوانب النفسية، الاجتماعيّة، البيئيّة، الصحيّة، الاقتصاديّة والسياسيّة، فهذا من شأنه إرجاع الأفراد إلى فطرهم السّليمة وتبينهم الخلفيّات المعادية لدين الله التي رضعوها فأنبتت عقولهم موافقة لمن يسعون إبعاد دين الله وإحلال دين بديل عنه؛ وقد تمكّن. وفي هذه الحال المجتمع المسلم يواجه تحدّي عيش حياته بنظام لا يملك حيال تغييره شيئا، ولم يملك في إنشائه أيضا شيئا، فإن بقي يعامل هذا الوضع كما الآن فهو يسعى في تأكيد ضعفه وسلبيّته.

إنسان اليوم بمكوّناته الوجدانيّة والعقليّة والسّلوكيّة من الصّعب عليه أن يعيش على غير النّظام الذي فُرض عليه، ومن العسير أن يبدّل دينه المطوّر بديل الدّين القيم بسبب الاضطرابات والتوتّرات والانحرافات التي اجتاحت حياته. وكنتيجة لذلك قد يبقى على طريق الضّلال حتّى ولو كان يريد الخلاص بالاهتداء، فقيم الميزان والطّغيان تظهر أبعادهما في الهدي والضلال والذين بدورهما يتجسّدان في التّشريعات التي تلتزمها المجتمعات والبلدان.

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، ح2553.

المبحث الثاني: الهدي القرآني والتّشريع.

المطلب الأول: هدي القرآن الكريم.

المطلب الثاني: علاقة التشريع بالقيم.

المبحث الثاني: قيم الهداية والتشريع القرآني.

المطلب الأول: هدي القرآن الكريم.

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾البقرة: 256. يدور الفهم الشائع للآية حول إظهار دعوة الإسلام طبقا لمقاييس منتقاة؛ وتبيانها، ومن شاء دخل ومن لم يشأ لم يدخل! والإسلام بذا متخلّف! فبينما تستعمل الدّول راعية نشر ديانات ومذاهب أخرى الأساليب البالغة الحكمة والمكر في الدّعوة والتّرويج؛ لا يجد دين الله من يدعو إليه بمثل الحماسة تلك والقوّة. ثمّ هل حقّا تبيّن للبشر الرّشد من الغيّ؟! إن الاستمساك بالعروة الوثقى يعني قوة التمسّك وهـته القوّة تنال بقوة الإيمان بالله بعد أن يتبين الرّشد من الغيّ، فإن لم يتعلّم المرء الإيمان الصّحيح الذي يعصمه من اتباع الطاغوت فتمسكه بالعروة الوثقى لن يتحقّق.

دارت أقوال العلماء والمفسرين في هذه الآية على أنه لا يجب إكراه أحد على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلية دلائله وبراهينه، والإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا. إن من يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيمانا تاما أوجب له عبادة ربه وطاعته. واستمساكه بالعروة الوثقى هو بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره. وأما من عكس القضية فكفر بالله وآمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم. والله سميع عليم، يجازي كلا منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر. فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين[1].

إنّ القرآن الكريم كتاب هداية، يهدي الإنسان إلى خالقه تبارك وتعالى بتبصيره بالآيات التي أودعها في مخلوقاته من الذرّة إلى المجرّة، كذلك يبصّره بنفسه وبأحوالها ونزاعاتها مع الهوى وشياطين الجنّ والإنس، والآيات التي تناولت الحديث عن الهداية والضّلال كثيرة جدّا. وبالإمكان اعتبار الهدى ممثلا بالتوازن والضلال باللاتوازن.

[1]- انظر تفسير ابن كثير، 682/1. وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص110.

1. ضرورة الدّعوة إلى الاهتداء كما جاءت في القرآن:

يتّفق الجمع العاقل من النّاس على أنّ الله خلق كلّ بني آدم لعبادته، وتبعا لذلك فكلّ المظاهر الحضاريّة التي نحياها إمّا خادمة أو معادية لهذه الغاية، لذلك كانت الحياة المتوازنة الطّبيعيّة كفيلة بتقريب الإنسان من هذه الغاية، والقرآن الكريم الموحى من الله جلّ ثناؤه يقدّم لنا أكفأ السّبل لتحقيق ذلك، فإن ظلّ المنتخبون في الأمّة – في بناء مرجعيّتها وتوجيه فلسفة الفكر فيها- يهملون ما أتى به القرآن، ويغيّرون من أولويّاته ويبدّلون المقاصد التي دعا إليها فهم بذلك يفسدون نظام الحياة وتوازنها. وإنسان هذا العصر في الأساس بات يهرب من اكتشاف نفسه وتذليل سبل الطّمأنينة لها إلى السّعي في تذليل العالم الخارجيّ له بغرض قهره واستغلاله كيفما اتفق له ذلك، ولكن لاحتكام الكون وكلّ ما فيه إلى حالة التّوازن – والله خلقه على هذه الحالة- فأيّ اختلال في هذا التّوازن هو دلالة على اعتداء تمّ عليه، ولأنّ العالم مترابط في أدقّ التفاصيل كما جسم الإنسان – وإن لم نفقه بعد آليات هذا الترابط- فإنّ حالة اللاتوازن تجرّ إلى المزيد من اللاتوازن. ولذلك يكافح الإنسان الخيّر دائما في السّعي إلى تمثّل النموذج الإنسانيّ الأمثل في الحياة بما استطاع إلى ذلك سبيلا.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾الآية- الإسراء: 9. فلا يحتاج المرء قدرات خارقة ليفهم معاني القرآن.. إنه يحتاج ابتداء فطرة سليمة وعقلا متدبّرا حتّى يقوداه إلى الاهتداء، عقل يميز بين الحسن والقبيح، قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ البلد: 10.ويأخذ العبرة من التاريخ وسننه، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ الروم: 9. لكن بكل التلوّث الذي نال من البيئة والصحة والمنطق واللغة.. اختلطت معايير الحسن والقبيح ولم تعد كفاءة العقول تتلمّسها وتهتدي إليها.

قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ مريم: 76. ما يدعو إليه القرآن تطلبه النفوس وما ينهى عنه تستقبحه، ورغم هذا يتمّ النظر إلى هداياته من فئة كبيرة من الناس كواجب ثقيل أو كنافلة ليست ذا بال؟!

إنّ التغطية على جوانب من هدايات القرآن الكريم إلى دينه تعالى لا يتمّ بطبيعة الحال علنا ومباشرة، بل بآليات عديدة درست طبيعة الذّات الإنسانية وصفاتها وخصائصها، فيتمّ التدرّج في تحريف القيم، وجيلا بعد جيل يبتعد الناس عن السبيل القويم كما ذكر في مطالب سابقة. لقد تمّت برمجة إنسان ما بعد الحداثة في مختلف مراحل

حياته حتّى طمست الملكات الفطرية التي يتميّز بها عقله وصبغت، لذلك يجب التذكير المستمرّ بالتكاليف الربانية والسعي الحثيث في إقامة دين الله.

2. أسباب الهداية والضّلال:

الهدي أصله التقدم للإرشاد، من ذلك قولهم: هديته الطريق هداية، أي تقدمته لأرشده. وكل متقدم لذلك هاد.

والهداية الإرشاد إلى الإيمان والتوفيق إليه، وتعرّف وتبيّن الطريق والمسلك، وهدى الله هو دينه الحق، وأما الاهتداء فالإيمان بالله والدخول في دينه تعالى[1].

لذا فالهدي من متطلّباته التصدّر للدّعوة وإظهارها عن بينة ودليل، هذا بدوره يستوجب اعتزاز الدّاعي بما يدعو إليه وفقهه له. فإن لم يتحقّق الاهتداء كما ينبغي له أن يتحقّق، فلن يتبين طريقه وعنه ينجم ضلال وضياع ونسيان للحقّ إذ لم يتلمّس العقل والقلب أنوار الاهتداء.

والضلال أصل يدلّ على ضياع الشيء وذهابه في غير حقه، وقد ورد في القرآن لعدة معان، أهمها[2]:

ضل الطريق: لم يهتد إليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ الآية- المائدة: 105.

ضل سعيه: ضاع هباء ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ ﴾ الكهف: 103- 104.

ضلوا: غابوا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ الآية- الأعراف: 37.

تضل: تنسى ﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ ﴾ البقرة: 282.

أضل أعمالهم: أضاعها فلم يثبهم عليها ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ محمد: 1.

[1]-انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 42/6، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية، ص1142.

[2]-انظر المصدر نفسه، ص698.

أضله: جعله لا يهتدي ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ النساء: 119. وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾الكهف: 17.

ضال: حائر ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ الضحى: 7.

يتضح من هذه الآيات أنّ الضّلال مكافئ للخسار والضياع والنّدم والخيبة، فإذا نظرنا إلى مفهوم الهداية والضلال كمقدّمتين، ونظرنا إلى واقع المسلم والكافر وتعايشهما معاً خلصنا إلى نتيجة، وهي أنّ المسلم يتسبب في إضلال الكافر بدل دعوته إلى الهدي الرباني والدين الحقّ القيّم.

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ الشورى: 44-48. البديهيّ أنّ المسلم في هذه الحياة الدّنيا إن كان يحب الخير لأخيه الإنسان في الإنسانيّة ويسعى للسّلام، يقول تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة: 15-16. البديهي أن يقيم حقّ أخيه في الإنسانيّة كما يقرأ في كتاب الله! ولكن ما هو واقع أن هذا الحب للآخر الذي يدّعيه المسلم أو يصدّق نفسه حقّا لأسباب يقنع نفسه بها بأنه حبّ؛ في حين أنّه اتباع وخضوع للأقوى، هذا الحبّ هو الذي يجعله لا يهتمّ بدعوة أخيه في الإنسانيّة إلى دين الله! وهذه المعادلة لا تستقيم.

الحب	⟺	الاهتداء	+	الهدي

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران: 31.	﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾طه: 123.	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت: 33.

إن حال الدّعوة اليوم غير حال الدّعوة زمن الرسول العدنان عليه الصلاة والسلام، فكفار قريش استيقنوا وصدقوا الرسول محمدا ولكن أبت أنفسهم إلا التكذيب والجحود، وإخوتنا في الإنسانيّة اليوم يصلهم دين ضعيف لم يقمه أصحابه حقّ القيام، ومعظمهم ضحيّة نظام العلمانية الذي شوّه فطرهم وأتلف كفاءة عقولهم كما ذكر في فقرات سابقة.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ المائدة: 105. الإنسان المهتدي هو من يقوم بإصلاح المجتمع بعد أن يصلح نفسه من جوانبها المختلفة، أي هو من يسعى في مجال دفع الذنوب وكذلك في مجال رفع الذّنوب، ولا يسمح للمخالفات أن تحصل، وإذا حصلت المعاصي فيحاول أن يعاقب ويؤدّب العاصي عن طريق الحدود والتعزيرات. والعمل بمجموعة هذه التّكاليف يسمّى الاهتداء، أي لو كان الشّخص مجدّا في تكاليفه الشّخصيّة وساعيا ف ي إرشاد وهداية الآخرين ، وعاملا في الحفاظ على الحدود الإلـهيّة فإنّه بذلك من المهتدين، وليس المعنى أنكم صونوا أنفسكم ولا شأن لكم بالآخرين، بل إن اهتداءكم يكمن في أدائكم جميع المهام الشّخصيّة والاجتماعيّة، وأداء المهام الاجتماعيّة هو اهتمام بالنفس كالامتثال للأوامر الفرديّة"[1].

يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾القصص: 56. "يخبر تعالى أنك يا محمد –وغيرك من باب أولى– لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من

[1]– انظر العقيدة من خلال الفطرة في القرآن: جوادي آملي، دار الصفوة–2009م، ص129.

أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد اللّه سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾الشورى: 52، فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له"[1].

وهناك آيات كثيرة تخبرنا أنّ ضلال الإنسان تتسبّب فيه أسباب سلكها وسعى فيها، وهدايته بأسباب سلكها وحقّقها. هذا مع الجزم بأنّ الله هو المقدّر لذلك سبحانه يفعل ما يشاء ولا يظلم أحدا. من هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ سبأ: 31-35.

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ الإسراء: 16.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف: 28-29.

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الكهف: 57.

[1]- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص620.

3. الهدي والضلال من منظور العقل:

إن الهدي والضلال بما هما على التوالي التقدم للإرشاد والضّياع؛ يضطلع بهما العقل الإنساني، وصفته؛ وهي التعقل؛ جامعة لمجموعة من النشاطات العقلية (بالمعنى المتعارف عليه) التي تمارس عن طريق المخّ، مضافا إليها المشاعر الروحية، ذلك أن قرارات الإنسان وما يأتيه من أفعال تبعا لها تدخل فيها مجموعة معقّدة ومتشابكة من التفاعلات المخيّة والقلبيّة التي لا يزال العلم الحديث يكتشفها. فالإنسان تتدخّل في آلية فهمه وانفعاله وإدراكه لما حوله، واستجابته لها مختلف الدوافع النفسية والجسدية المتداخلة والمترابطة. وقد مرّ في مباحث سابقة من الرسالة تبيان بعض من التشويهات والانحرافات التي أصابت إنسان القرن الواحد والعشرين ولا تزال تلاحقه حتّى قبل أن يخرج إلى هذا العالم، أي وهو في بطن أمّه.

كذلك قد سبق ذكر أهميّة دراسة مواضيع هذه الرسالة من منظور علوم الغرب الحديثة، فقد شكل العصر الحديث المنطلق الأساس الذي صاغ واقع الإنسان اليوم. وهو عصر يؤمن بأن قيمه تعكس الطبيعة البشرية الثابتة، كما ويؤمن وهو الأقوى في صياغة القيم ؛ يؤمن بأنّ له الأحقية في فرض القيم التي يريد.

أدرك الغربيّون — طوال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين- أنّ الاختبارات الإنسانيّة أشدّ تعقّدا وأقلّ قابليّة للتنبّؤ ممّا اعترف به الوضعيّون وأصحاب مذهب المنفعة. فسخر فلاسفة من أمثال نيتشه وبرجسون من اعتقاد الوضعيّين بأنّ الإنسان إن هو إلاّ حزمة من الدّوافع الحيوانيّة، وبأنّ الإرادة والغريزة والطّاقة والدّافع هي التي تحرّك الإنسان. وقد تأثّرت البشريّة بالسّلطة والأسطورة والأكذوبة أكثر ممّا تأثّرت بالعقل والحجّة، ووجد سيجموند فرويد[1] شواهد تدلّ على أنّ السّلوك الإنسانيّ هو أساسا سلوك غير عقلانيّ. وقد أدّت معرفة أهميّة العوامل اللاّعقليّة في المجتمع ببعض علماء الاجتماع وأخصائيّ العلاقات العامّة والدّعاية الحديثة إلى المناداة بالتحكّم في عقول النّاس والتّمويه عليهم[2]. وتؤكّد المعلومات الواردة في العلوم السّلوكيّة أنّ الأفراد يتغيّرون لأسباب عاطفيّة أكثر من تغيّرهم لأسباب منطقيّة، فالإنجاز يرتبط بقلوب النّاس أكثر من ارتباطه بعقولهم. فلسنا نقنع النّاس من خلال المنطق والتّفكير السّليم بقدر ما يتمّ ذلك من خلال شعورهم بالفخر أو الطّموح أو الولاء[3].

---

[1]- طبيب نمساوي ولد عام 1856م وتوفي عام 1939م. يعتبر مؤسس علم النفس الحديث، وله الكثير من المؤلّفات، منها: تفسير الأحلام، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، وإبليس في التحليل النفسي. انظر موسوعة الفلسفة: بدوي، ص122.

[2]- انظر الغرب والعالم: كافين رايلي- المسيري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –الكويت، 1986م، ص366-367.

[3]- انظر القلق وإدارة الضغوط النفسيّة: فاروق عثمان، دار الفكر العربي- القاهرة، ط1- 1421، ص208.

والعاطفة حجة وبرهان من نوع آخر. الإنسان ليس بآلة، بل جسد وروح، وفيه ارتباط بين الإشارات العصبيّة والهرمونات التي تسري فيه. "فمظاهر نفسيّتنا البالغة التعقيد والتنوّع تقوم على أساس عمليّات تجري في المخّ، مثلا غذاء الجملة العصبيّة هو المؤثرات التي يصادفها الإنسان وهو طفل على اختلاف أنواعها"[1].ومما توصل إليه الباحثون بخصوص العقل أن في دماغنا عقلين، وأيضا ذاكرتين فلدينا نظامان مختلفان تماما للمعرفة والإدراك، يتفاعلان فيما بينهما لتشكيل حياتنا العقلية والشعورية. النّظام الأوّل هو العقل المنطقي، وهو مسئول عن فهم الأمور الواضحة في وعينا، ومسؤول كذلك عن التّفكير بعمق وتأمّل[2]. وإلى جانب هذا العقل، هناك نظام آخر للمعرفة، نظام قوي ومندفع يتعامل مع مشاعرنا ومع الأمور المبهمة والغامضة في فكرنا، بل ويتعامل مع مشاعر وأمور لا ندركها على المستوى الواعي على الإطلاق، هذا النّظام هو العقل الانفعالي(العاطفي)[3].

تترجم أحوال العقل هذه في قراراته ومختلف العمليات التي يقوم بها، وحتى تلك التي تناقض وظيفته الأساسية التي هي ضبط الغرائز الأخرى ومنعها من الطغيان والانحراف، فينتقل إلى تهيئة المناخ الفكري والاعتقادي ليلائم ويدعم توجهات الغرائز والصفات الإنسانية التي يكون أثرها سلبيا ومؤذيا إن لم تكن مضبوطة ومهذبة. فالعقل الخاضع لرغبات الإنسان الرعناء يسخر للعمل ضد نفسه، وتنتج عن هذا مفارقة لطيفة، فكلما كان العقل أقوى كان سعيه في الالتفاف على نفسه وتهيئة المناخ الفكري لهوى صاحبه أقوى، وتنتهي المسألة الإنسانية بذلك إلى كونها حساسة جدا للمتغيرات الكثيرة التي تؤثر على الإنسان وتوازناته النفسية[4]. ويتعلم المسلم من القرآن أنه إن سلك طريق الحق والصلاح وفقه الله فيه وله، لأنه ينشد به رضا الله وإصلاح نفسه الذي يتعدّى إلى نشر الصلاح في مجتمعه وبيئته. وأما إن اتبع هواه، وخضع للأقوى المستكبر الظالم، وترك اليأس والخوف يقودان مصيره فهو سائر لا محالة في طريق الضلال.

---

[1]- انظر تربية مشاعر الأطفال في الأسرة: ي.إ. كولتشيتسكايا، ترجمة عبد اللطيف أبو سيف، دار علاء الدين- دمشق، ط1-1997م، ص40.

[2]- مركز العقل المنطقي هو القشرة المخيّة الحديثة، وهي القشرة المحيطة بالمخ البشري. انظر رحلة عقل: عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية- مصر، ط4-2011،ص 181.

[3]- ومركزه لوزة المخّ، حيث الوظيفة الانفعالية والعاطفية، فهي التي تتحكّم فينا حين تسيطر علينا الشّهوة أو الغضب أو الوله في الحبّ أو التّراجع خوفا... وإذا أصاب اللوزة المخيّة خلل تكون النّتيجة عجزا هائلا في التعرّف على المشاعر والأحداث العاطفية، وهي الحالة التي يطلق عليها "العمى الانفعالي". انظر رحلة عقل: عمرو شريف، ص 181.

[4]- انظر عرض نشأة الأديان الوضعية في القرآن الكريم ونتائجه: عدنان بن عطية، ص131.

المطلب الثاني: علاقة التشريع بالقيم.

لكل مجتمع إنساني تشريع ينظم حياته، ويكفل تحقيق الألفة والتعايش والتعاون بالقيام على إعطاء الحقوق وتأدية الواجبات، وحتّى يكون التشريع فاعلا محققا لأهداف المجتمع وطموحاته لا بد أن يعبر عن أحوال المجتمع ودينه وقيمه، وإن لم يوفق في التعبير عن هذا الواقع ومشاكله فالفوضى الاجتماعية والتخلف في مختلف ميادين الحياة والجمود الفكري ستكون طاغية. يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ الآية- البقرة: 30. فهي تبين ميل الإنسان بطبعه إلى الإفساد وإتيان المنكرات إذا ترك لنفسه وهواها وأمرها، فكان لاب دّ له من شريعة وحاكم قائمين على إصلاحه وتقويمه إذا زاغ وطغى، وللحفاظ على فطرته السّليمة وصيانتها ممّا يأخذ بها إلى الانحراف.

قد ظهر في مبحث دور القيم في البناء الحضاريّ كيف أن القيم هي العامل الخفيّ كما الظّاهر في توجيه سلوكات النّاس ورغباتهم واختياراتهم، وهي بذا – القيم- ذات وزن في توجيه التّشريع، فكما يأخذ بسدّ الذّرائع، والمصلحة المرسلة، والقياس، والاستقراء، والاجتهاد، والإجماع؛ تلقي القيم بروحها عليه لأجل فعاليّة أكبر في تحقيق مصالح البشر بما يتوافق مع مقاصد القرآن الكريم بالتكيّف مع أحوال ومقتضيات العصر.

كما سبق أن قاعدة البناء الحضاري وقيم العلمنة التي غزت العالم الشرقي والغربي إنما هي على مقاس وعلوم الغرب، أتت من رحم فلسفتها ومنظومتها القيمية. وقد رأينا أبعاد قيم العلمنة على الإنسان والمجتمع وكيف صيّرته، وحيث أن مهمة التشريع هي تحقيق مصالح البشر في العاجل والآجل والحرص على درء المفاسد التي هي أولى من جلب المصالح، فمن المفروض إذن أن يتفاعل التشريع مع الآثار التي أفسدت الإنسان والطبيعة لأجل التضييق عليها ولأجل أن تحلّ محلّها أساليب الإصلاح والتّقويم! ولكن برؤية شاملة لوضع الدّين عبر مختلف المحطات في التاريخ وطبيعة التطوّر والتعديل الذين مورسا عليه فالحاصل كان التقزيم من دوره وتهميشه في حياة المسلمين كأمّة واحدة. وإن بقي العلماء والباحثون في الشّريعة يتعاملون مع مستجدّات العصر على أساس أنّها ظواهر جدّ طبيعيّة، أو أنّها حتميّة؛ فيكون التعامل معها باعتبارها واقعا يجب التكيّف معه بالتعديل والتغيير لا بالإصلاح، مع ما فيه من إهمال لقيم القرآن وتعاليمه، وجعلها تابعة، وكأن كتاب الله لم يجئ بالحقّ، فيتم التشريع من موقع الضعيف وبموقفه.

1. مفهوم التشريع:

ينظم التشريع علاقات الفرد بالفرد، وعلاقات الفرد بالمجتمع، وهو مرآة لوقائع الحياة بمختلف جوانبها، لأنه ابتداء يرتكز على التفاعلات بين مختلف العلاقات على مختلف الأصعدة والمجالات. و"التشريع في الاصطلاح الشرعي والقانوني هو سن القوانين التي تعرف منها الأحكام لأعمال المكلفين وما يحدث لهم من الأقضية والحوادث، فإن كان مصدر هذا التشريع هو الله سبحانه بواسطة رسله وكتبه فهو التشريع الإلهي، وإن كان مصدره الناس فهو التشريع الوضعي"[1].

ويتبع التشريع في معظم البلاد الإسلامية –بعد الاحتلال الذي تعرضت له– البلاد الغربيّة، والذي أعقبه الاحتلال والغزو الثقافي. وتحت مصطلح الغزو الثقافي يندرج مصطلح الغزو القانوني، وهو غير شائع الاستعمال في الأدبيات الثقافية والفكرية على اعتبار أن –التشريع – مظهر من مظاهر ثقافة الأمة وفكرها. حدد مفهوم الغزو الثقافي بأنه " كل فكرة أو معلومة، أو برنامج، أو منهج يستهدف – صراحة أو ضمنا تحطيم مقومات الأمة الإسلاميّة، العقدية والفكريّة والثقافية والحضارية أو يتحرى التشكيك فيها، والحط من قيمتها، وتفضيل غيرها عليها وإحلال سواها محلها، في الدّستور، أو مناهج التعليم أو برامج الإعلام والتثقيف أو الأدب والفنّ، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة"[2].

وبناء على ما تقدم واستنادا إلى القانون الذي هو " مجموعة المبادئ والقواعد الملزمة والأحكام والتقاليد المرعيّة في مجتمع من المجتمعات" يكون الغزو القانوني هو "عملية إحلال القواعد والتشريعات الملزمة والأحكام والتقاليد المرعية في مجتمع من المجتمعات محلّ غيرها"، وأما الغزو القانوني الغربي للبلاد الإسلامية فهو "عملية إحلال القواعد والتشريعات والأحكام والتقاليد المرعيّة في الدّول الغربيّة وتطبيقها في البلاد الإسلاميّة محلّ الشّريعة الإسلاميّة". إنّ هيمنة القوانين الغربية في البلاد الإسلامية جاء تبعا لقانون الاستعداد والقابلية، محكوما بعوامل متعددة منها ذاتية تتمثل بالضعف والتمزق والجمود ونحوها، ومنها موضوعيّة تتعلق بنفاذ قانون القوة عند توفر شروطه[3]. والتشريع حتى يكون عاملا من عوامل بناء المجتمع وتقدّمه كما هو مقرر في فلسفة القانون ينبغي أن لا يكون مجرد نظريات ومثل عليا مجردة بعيدة عن الواقع، فإذا كان التقليد والجمود على تراث الأسلاف تسبب في الابتعاد عن روح التشريع، فإنّ التبعيّة للغرب ألصقت بالإسلام عدم صلاحيته لكل زمان ومكان وبتخلّفه. والكل أنتج تمنع المجتمع عن التقدم والتطوّر، لأنه في حين كان عليه أن يتفاعل مع أحداث الحياة ومجرياتها بقي مكبلا بالماضي أو مأسورا بأغلال العلمانية.

---

[1]– انظر خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي: عبد الوهاب خلاف، دار القلم– الكويت، ص7.

[2]– انظر التشريع الإسلامي والغزو القانوني الغربي للبلاد الإسلاميّة: ساجر ناصر حمد الجبوري، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1– 2005م، ص253–254. عن مفهوم الغزو الثقافي: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بحث منشور في المجلة الإسلامية الصادرة عن رابطة الجامعات الإسلامية، المغرب، ع17، 1985، ص 10–11.

[3]– انظر المصدر نفسه، ص255.

2. ارتباط التشريع بالقيم:

الشّريعة الإسلاميّة تتميّز بشمولها جميع مناحي الحياة وبقدرتها على استيعاب المتغيّرات الحضاريّة وبصلاحيتها لكلّ زمان ومكان، ولكن هناك دائما متطلّبات ومستجدات تفرض نفسها وبإلحاح، تفرزها الطبيعة الإنسانية والتطور الذي يسم حياة البشر.وتحقيق مصالح الناس ودفع الضّرر عنهم غاية ومقصد دين الإسلام؛ الديّن الخاتم الذي لا يقبل تعالى غيره: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾آل عمران: 85. لذا كان التعويل على الجانب المقاصدي كبير في الحوادث والرهانات الجديدة برصد الحكمة الخفيّة في النّصوص الشّرعيّة، والمصلحة القائمة فيها أيضا.

والعلم بالإسلام والفقه بالشّريعة بقدر ما يُحرص عليه بقدر ما تزيد قوّة الدّين، وبقدر ما ترتّب الأولويّات التّرتيب الصّحيح بقدر ما تكون قوّة الدّين ثابتة وصلبة لا هشّة. فمن الإهدار السّخيف لقيم الدّين والتعدّي عليه الاهتمام المستمر بمواضيع ليست ذات أهميّة، وقد يكون هذا الاهتمام آخذا الوجهة الخطأ بتبنّي الفلسفة الغربيّة وبالتبعيّة الثّقافيّة. والقيم التي تظهر كرد فعل لاستجابات الأفراد للتغيّر ليست متساوية، هناك من يجيد التعامل معها وهناك من يظهر عدائيّة نحوها، وبفقد التشريع أصالة الانتماء إلى الشريعة الإسلاميّة يختلط المشروع بالممنوع فيظهر الاضطراب في أشكال السلوك، وتتهم الفئات المجتمعيّة بعضها بالتقصير وبالتخلّف عن مجاراة الواقع بإشكالاته التي تتولّد فيه، وكل يدّعي جدارة منهجه يصفهُ بالأصلح والأصوب.

فهل هي محاولة مقنعة للالتفاف على الدين وتفريغه من مضمونه الأساسي وعزله عن مهامه الأصيلة والانعتاق من هيمنته على شؤون الحياة وتجريده من سلطته الروحية والأدبية والاجتماعية، واستبدال مرجعيته القيمية بأخرى مصطنعة؟ ألم يكن الدين الإسلامي عبر تاريخه يلبس أثواب الأوضاع الراهنة ويتكيف ليستجيب لضغوط القوى العرفية والسياسية والمجتمعية والعلمية، التي كانت تعمل فيه بأدواتها نحتا وتشكيلا، فتفسره وتقصي منه وتثبت فيه بحسب ما تقتضيه حاجاتها. هل يمكن نفي ذلك عن تاريخ الإسلام أو تخطيء تلك الاتجاهات بالكلية أو بعض منها استنادا على قواعد صريحة تبين الثابت والقابل للتغير، وأن ما حصل من أخطاء كان تجاوزا وتعسفا لا يتحمله الدين، ولكن تقع مسؤولية ذلك على من عملوا على تسخير الدين لأهوائهم، وفي أحسن الحالات على من اجتهدوا ولكنهم أخطؤوا؟ بعبارة أخرى حتى يقف الدين عصيا في وجه من يريدون تخصيصه بأزمنة سالفة، لجعله عجينة مطواعة، يجب البرهنة أن فيه من التوجيهات والإرشادات الإلزامية ما يضمن سلامة الاستنباط منه والصدور عنه لمواجهة مستجدات الحياة ومسايرة السياقات التاريخية المختلفة، وأن ما يسوغ الاختلاف فيه هو الآخر يشغل مساحة يحددها الدين بدقة.والواجب أن يستند التشريع إلى القيم المصلحة التي من شأنها إبطال سحر قيم العلمنة

على الفرد ومجتمعه ككلّ، والواجب اتجاه أمة افتقد أفرادها وافتقدت مجتمعاتها العزة من وقت أن احتلت أو قبل ذلك، أن تسعى لزرع الاعتزاز والفخر لدى المواطنين بدينهم وقيمهم التي اختفت. فالحال الذي نحن عليه ينشئ المزيد من التبعيّة والخضوع، وهما اللذان ينمّيان النفوس الضعيفة ومن ثمّ الجبانة والممتنة لمن تحيا وفق قيمه وفلسفته. فقد العزة يجلب امتهان النفس واحتقارها والذي يجرّ الضعف ويحقق الخضوع للممتهَن، والسيطرة للممتهن. ثمّ بعد ذلك تتحقّق نتائج طبيعية في هذه العلاقة؛ خضوع الأضعف وسلطة واستقواء الأقوى، فيجد الضعيف الحافز في نفسه على بذل وممارسة ذاك الخضوع بالتملق والتقرّب إليه بما يعلم أنه يرضيه ويزيد من سلطته عليه. بينما الأقوى يعامل الأضعف على هذا الأساس وإن لم تبدر منه بعد هذه القرابين.هذا كلّه مع ما هيّأ الأقوى به الأضعفَ من خلال منظومته القيمية. والتهيئة هذه حاضرة منذ الطفولة، وعيش مظاهرها حاضر أمام مرأى المتلقّي في ثقافته ومجتمعه!

3. دور القيم في بناء وتأسيس توازن النظام التشريعي:

إنّ من مظاهر الرفاهية سواء الفكرية أو المادية، الإيجابيّة أو السلبيّة؛ الحرص على التنافس في جلب المصالح، والتعارض حاصل لا محالة بينها وبين أوامر ونواهي الشّرع لذا وضع لنا الشارع قاعدة عامة نسير على وفقها وهي اتباع الأحسن الذي يعلم من الحكم والمصالح المتضمّنة في الشريعة الإسلاميّة، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾الأعراف: 56.وعلّمنا لذلك الموازنة بين المصالح والمفاسد عند تقريره للأحكام الشرعية وأن أساسها رعاية الحكمة وتحقيق المصلحة الراجحة، هذا ما يعدّ من أدوات استنباط الحلول الشرعية للنوازل الطّارئة مع التغيّر المستمرّ للواقع مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ﴾المائدة: 3.

وتحقيق الشهود الحضاريّ يحتّم مراعاة تغيّر أحوال الأزمنة والأمكنة والمكلّفين في سياسة التّشريع بالموازنة بين المآلات المتعارضة تمشّيا مع مقتضيات كل عصر، والقيم المنشودة التي هي قوام معقوليّة كتاب الله وروحه تدرس وفق الترابط بين جزئيّات القرآن وكلياته تمشّيا مع الوقائع المفروضة لتحقيق التدبّر الموصى به، فالنصوص متناهية والوقائع والأحداث متجدّدة والتشريع المستمدّ من القرآن أصل الأصول ينزع منزع المثاليّة والواقعيّة في آن واحد، لذا كان التّركيز على الواقع الاجتماعي، الاقتصادي والسياسي ومختلف جوانبه الأخرى ذا أهميّة كبرى لأنّه لا يمكن فهم النصّ القرآني بمعزل عنها. إنّ النظرة القيميّة المتكاملة تساهم في تحديد الأداة المعرفيّة في التعامل مع هداية الوحي والخروج من النّظرة الجزئيّة إلى الكليّة التي تحفظ نظام الأمّة ومستقبلها حتّى يتمّ ربط الترجيح والاختيار في

مسائل الخلاف بالنظر إلى قيم الشريعة، فينقل العقل المسلم من الانشغال في الجزئيات إلى الكليات للخروج من التقليد للإبداع والأصالة.

كما ويتأكد دور القيم والأهداف في بناء أي نظام قانوني لأنّ المشرع لم يضع القانون عبثاً واعتباطاً وإنما ابتغى هدفاً من ورائه، وفي غير هذه الصورة يصبح التشريع عملاً عاطفيًّا أو عبثيًّا. ففكرة الهدف هي التي تعطي من حيث النتيجة مفتاح تكوين القانون[1]. وتأدية دور المشرّع بكفاءة يرتبط بقوة الدولة ورعايتها العلم والعلماء لما توفره القوة من أمن واستقرار يبعثان على التوجه نحو الارتقاء في التفكير والسلوك، فإن ضعفت الدولة انعكس الأمر سلبا على مجمل جوانب الحياة ومنها التشريع باعتباره انعكاسا للواقع. مثلا بسبب ضعف الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ساد الجمود والتقليد حتى ظهر التعصب المذهبي وأغلق باب الاجتهاد ووصل الأمر إلى اقتباس القوانين الغربيّة ما تسبب في عقدة النقص، ومن دون تفريق بين ما هو إنساني مشترك وبين ما هو من خصائص الأمة ومن مقوّماتها[2].

غاية التشريع تقويم الواقع بالعمل العلمي والعمل العلمي بالرجوع إلى ما أنزل الله. يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة: 48-50. إنها " آيات من كتاب الله – وغيرها كثير– بينت في وضوح أن التشريع الإسلامي لا يخضع للأهواء والرغبات، وما واقع الناس في أغلب صوره إلا مزيج من الأهواء والشهوات يثيرها ويبرزها إلى عالم الوجود ما خفي من الرغبات"[3]. التحدي هو في جعل الأهواء والرغبات والدّوافع تابعة للتشريع القرآني، لا جعل التشريع تابعا؛ تابعا لمشرّع تابع للغرب، تابعا لمشرّع لا يفقه الحكم في التشريع القرآني،

[1]–انظر التشريع الإسلامي: تقي المدرسي، 295/3.

[2]–انظر التشريع الإسلامي والغزو القانوني الغربي للبلاد الإسلاميّة: ساجر ناصر حمد الجبوري، ص6-8.

[3]– الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعيّة: محمد مصطفى شلبي، الدار الجامعية– بيروت، 1982م، ص23.

تابعا لمشرّع لا يؤمن إيمان يقينيا بأن تشريع الله هو الحقّ، فما أثنى عليه الغرب المتفوّق فجائز، وما أعرض عنه فليس ذا بال!فينادى في كل عصر جديد بالتجديد والتغيير في التشريعات والقوانين، ونسمع الكثير عن ضرورته؛ خاصّة فيما يتعلّق بالتشريع الإسلامي، فإن كان الخطاب من طرف الآخر كان موضوعه ضرورة مسايرة التطورات الحياتية الجديدة التي غيّرت الإنسان اجتماعيا وصحيا ونفسيا واقتصاديا وسياسيا... أي بمعنى آخر تلك التطوّرات التي وضعته في ظل الدين العالمي بالمعنى الأوسع والأشمل للدّين. وأما إن كان الخطاب من المشرّع المسلم كان موضوعه ضرورة اللحاق بالرّكب الحضاريّ الذي يقوده الأقوى.

بالنسبة للشقّ الأوّل من الطّرح ؛ قد تبيّن الطّريق الذي ترسمه حضارة الآخر، وكيف أنها تسعى في مصالح ثلّة من الناس على حساب باقيهم، فالأهداف التي ترصدها وتحرسها هي إبقاءهم مسيّرين ليخدموا أرباب المال والقوّة مستعينة في ذلك بقيم صيّرت إنسان هذا العصر مستهلكا للمخلّفات[1] التي يشقى في إنتاجها بأمر الحضارة.

وبالنّسبة للشقّ الثاني، وهو يخصّ المسلمين، فالمسلّم به أنّ الله هو الأعلم بما هو أفضل للإنسان وإن رأى الإنسان برأيه أنه ليس كذلك، بل قد يعتقد أنّ فيه هلاكه. وقد يختلف حول مواضيع يعتقد أنها عقليّة ولا تمتّ إلى الدّين بالمعنى الأخصّ بأيّ صلة، وهذا الاعتقاد هو بالأساس غير عقلاني، فالكون وما فيه مسخّر لأجل صلاح وإصلاح الإنسان، والتكامل والتناغم بين الإنسان والكون قيمة عظمى أتت الشريعة لتحقيقها.وما يشاع بطريقة غير علميّة ولا منهجية سليمة من أنّ التطوّرات الحاصلة في مختلف المجالات، وطبيعة العلاقات الدولية والتحالفات تحتّم مسايرة التّشريع لها وتعديل جوانب منه؛ هو أمر لم يعط حقّه من المتابعة والدّراسة، فلا ينكر أحد مرونة الشريعة الإسلاميّة وصلاحيتها لكلّ زمان ومكان، ولكن ما يجب الاحتراز فيه هو درجة التّغيير وأبعاده على مختلف المستويات، وأهمّ نقطة تتطلّب الحكمة مراعاتها هي النّظرة الشمولية للمواضيع المقصودة، فلا ينظر إليها بمنأى عن باقي الجوانب التي تتصل بها. والمعيار الذي يقيم به الموضوع هو النظر إلى مدى خدمة التطوّر الحاصل؛ مدى خدمته للدّين. على سبيل المثال خروج المرأة إلى الشارع للعمل أفرز سلسلة متغيّرات معقّدة وطويلة في حياتنا. وإن كانت منفعته تعود إلى ربّ عملها بالدّرجة الأولى، فضرره عظيم على نفسيّة المرأة الزّجاجيّة؛ حيث يصير ولاؤها الأول لسيدها في العمل – وهذا من الميزات الملتصقة بالعلمانيّة- وتقهر أنوثتها من طرفه حيث لا يهمّه سوى الرّبح واستغلال خصائصها كأنثى في العمل، و"يرى المهتمون بمجالات عمل المرأة أنها مؤهلة لكافة الأعمال التي تتطلب اقترابا حميما وتواصلا نفسيا مع الآخرين"[2].ثمّ بآلية تلقائية بعد دخولها عالم العمل مقابل المال تفتقد الأسرة تلك

[1]- تشير المخلفات هنا إلى التلوّث والإفساد الذين تعدّيا على ما يستهلكه الإنسان من أكل ودواء وما يتنفسه من هواء...وقد أدّت مجتمعة إلى تخلّف الإنسان عقليا وبدنيا.

[2]- المخ ذكر أم أنثى: عمرو شريف- نبيل كامل، مكتبة الشروق- مصر، ط2-2011م، ص242.

الأنثى المرأة، وتأصل عقيدة تقديس المال –مختفية تحت ثوب الكفاح كما المرأة الغربيّة– على حساب الصحة الاجتماعية والنفسية لخليّة المجتمع. فمثلا يسبب" افتقار تربية الوالدين لأطفالهم إلى التوافق والحنان إلى إطفاء جذوة التعاطف مع الآخرين في نفوسهم ، فيشبون وقد امتلأت قلوبهم بمشاعر لا تبالي بالآخرين من حولهم، ويؤدّي إلى نشأة أمساخ بشريّة تمارس كلّ أخلاقيات الانحراف الاجتماعي والتحرّش"[1]. ولو أن الفقيه نظر إلى هذه الاختلالات والقيم المهدورة بسبب عمل المرأة لتمهّل في التفصيلات المتعلّقة بالموضوع ولاتخذ احترازات تدفع أذاها.

4. مراعاة القيم في تطوّر التّشريع:

للواقع قيمه، ومن خلال التشريع تطلب قيم الواقع الارتقاء إلى قيم القرآن، لأن الأخيرة هي القيم المركزيّة، وقد أثبت التشريع القرآنيّ صلاحيّته لكل زمان ومكان، وهو لا يتبدّل وإنما قد تحدث فروق وتعديلات في التشريعات والقوانين الجزئيّة، وقد ثبت إعجازه فحقّق ما لم ينجح في تحقيقه أيّ تشريع آخر..وحتّى البلدان التي لا تعاني الفقر والمتقدّمة بمقياس العصر، تظهر فيها أمراض اجتماعية ونفس يّة فتاكة. وما ذاك إلا لأن التشريع الوضعي يستحيل عليه أن يكون متكاملا وقويا اتجاه الإنسان، فهو في النهاية من صنع الإنسان، والإنسان لم يتوصّل بعد إلى كشف كلّ الحقائق في هذه الحياة وتلك المتعلقة بالإنسان، فمن البديهي ألا يكون كفؤا في التشريعات التي يصوغها. يقول تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾الآية–طه: 123. ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾النساء: 82. ومن ضمن هذا التدبّر مسايرة الواقع وتقنين التشريعات المناسبة لكلّ زمان ومكان وحسب كلّ ظرف، وهي ضرورة ملحّة تضمن التناغم الحسن الذي يفضي إلى الواقع الأحسن، بطرق أبوابها ورصد القيم القرآنية بفهم الواقع وإلحاحاته، لأجل تحصيل النّماء والنموّ على المستويين المعرفيّ والعملي الاجتماعيّ. ويجلي لنا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾الجمعة: 2-3. يجلي لنا أنّ آيات الله هي تزكية وتطهير، وتتحقق باتباع الشريعة وامتثال الأوامر الربانيّة، والتي بدورها تتحقّق بتعلم الكتاب وطلب التفقه فيه، وكل هذه الأمور مجتمعة هي تزكية ونماء وزيادة وتطوّر، وقد جاء ذكر للمسلمين اللاحقين في الزّمن كتأكيد على استمرار التزكية والتطوّر الإيجابي ما بقي العمل بالكتاب، وهو فضل يؤتيه الله من يشاء، بعدها مباشرة جاء قوله

[1]– المصدر نفسه، ص225.

تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾الجمعة: 5. فاليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ولم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل كتبا لا يدري ما فيها. "حفظوا الكتاب الذي أوتوه لفظا ولم يفهموه ولم يعملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ وقال تعالى واصفا حالهم في موضع آخر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ الأعراف: 179"[1]. وكما أحكام الشريعة من رب العباد، كذلك التفكر والتعقّل نعمة وهبة من الله حتّى نقيم أحكام الشريعة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ الحج: 41. وإقامة دينه تعالى تعني الأخذ بكلّ ما جاء في الكتاب والإيمان به، لا أخذ بعضه وترك بعضه الآخر بحسب الهوى والمنافع الشخصيّة.

والدين بناء رصين متكامل الأبعاد لا يجوز الأخذ ببعضه وترك بعضه، فهناك عبادات لا يجوز التفريط فيها كصرف المال الحلال بالمنهاج الشرعي، وكالدفاع عن حق المحروم والمستضعف وغيرها. إن إقامة الدين تستوجب الوعي بحقيقته وتطبيقه كله، ومخالفة الهوى واتباع هدى الشريعة، وقد يتطرف المرء في جانب ويستخف بآخر، مثلا قد يزين الشيطان للإنسان الاشتغال بالصلاة عن أداء واجب الجهاد، والاهتمام بحروف القرآن دون معانيه[2].والواقع بجانبيه المادي والمعرفي يتغير باستمرار، وأما القرآن فثابت لا يتغير، وهذا يعني أنّ النّص الثابت يتجاوب مع الواقع المتغير عبر الإنسان الذي يتفاعل مع متغيرات الواقع، فيرجع إلى النصّ فيسائله ويحاوره، ليرجع مرّة أخرى بأجوبة النّص للواقع المتغيّر[3]. وهذا ما يفتقده التشريع الإسلامي، حتّى ألصقت به تهم التخلّف.

يقوم التشريع – مع ما فيه من تفصيلات جزئية – على أسس وقواعد شمولية في ضمان المصالح ودفع المفاسد، يمكن الاعتماد عليها مهما اختلفت الظروف دون حاجة إلى تبديل أو تعديل، وهي جزء من مبدأ شامل لشؤون الحياة كلها. يقوم على قواعد كلية تشمل جوانب الحياة جميعاً في توازن محكم بين شتى الاتجاهات في التقنين. ومن أهم المبادئ التي يقوم عليها التشريع ويكون له أثر كبير على تصرفات الناس هو الهدف من الحياة

[1]– انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 117/8.

[2]– انظر التشريع الإسلامي، مناهجه ومقاصده: محمد تقي المدرسي، انتشارات المدرسي– ط1، 2/ 83-84.

[3]– انظر أثر الواقع الاجتماعي في تفسير القرآن في العصر الحديث: الجمعي شبايكي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة– قسنطينة، 2010م، ص169.

الإنسانية، فالإسلام يعتبر الهدف من الحياة هو الإصلاح بمعناه الأشمل، وهو الإيمان بخالق الكون، ووجوب طاعته، وأن طاعته نفع عاجل وآجل، وأن منافع الحياة تؤخذ ويتمتع بها بالعدل، وليست هي هدف الحياة، إنما هي وسيلة لاستمرار الحياة القائمة على الحق والخير، وواجب كل إنسان أن يعرف حق أخيه الإنسان فيها[1]. والنص الإلٰهي حدّد المقاصد والأهداف، ووضع الأسس الكبرى والمناهج المثلى لإصلاح الحياة، ولدفع الفساد عنها، وترك للعقل دوره في استخراج الأحكام الجزئية لكل حادثة من الأحداث[2].

إن من سنن الله التعارف وتبادل وتطوير المعارف والعلوم، ومن الخصائص التي خلق عليها الإنسان؛ الطّموح والتطلّع إلى الجديد وحبّ المعرفة. وتضادّها من القيم، قيم التّقليد واتباع عادات الآباء، والحجر على التّفكير والعقل...إلخ. يقول تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ المائدة: 103-105.

محاربة الإسلام للبدعة لا تعني توقف مسيرة التطور والتقدم في الأمة، إنما العكس تماما هو الصحيح، إذ إن الإضافات التي يزيدها كل جيل في الدين ثم يجعلها من الدين تشكل عقبة في طريق التقدم والتطوير، أما أصل الدين وسننه فهي صالحة لكل زمان. ويزعم البعض أن الدين يمنع أي تطور لأنه يصبح بدعة، كلا إنما نسبة أي شيء مستحدث إلى الدين هي البدعة وإلا فإن الدين الإسلامي لا يمنع التطوير في الحياة بما لا يخالف حقائق الدين والقيم السامية التي أمر بها الله سبحانه[3].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ الأنعام: 159. كيف من الممكن أن يختلف المسلمون عن بعضهم؟ هل هناك اختلاف في أصول الدين ومبادئ الوحي؟ لا، إنما الاختلاف في تفسير هذه المبادئ وتطبيق تلك الأصول على المتغيرات، فإذا

[1]- انظر القرآن إعجاز تشريعي متجدّد: محمود الزين، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث- الإمارات العربية المتحدة، ط1- 2004م، ص30 وما بعدها.

[2]- انظر المصدر نفسه،ص35.

[3]- التشريع الإسلامي، مناهجه ومقاصده: محمد تقي المدرسي، 92/2.

فسر كل واحد منهم النصوص حسب رأيه ثم نسبه إلى الدين وقال: هذا هو الدين فقد ابتدع، وافترى على الله كذبا. وكذلك من يسكتون عن إقامة شرع الله فهم مفرقون ومضيعون للدين، وليس ببعيد عنا سكوت النصارى عن بدع التثليث ورواسب الشرك اليونانية التي دخلت في المسيحية وتسببت في تحريف دين سماوي وضلال مئات الملايين من البشر عن دين الله الحقّ[1].

الخلاصة:

لا تعني الحريّة التي يتمتع بها الإنسان في الإيمان بأي عقيدة أو في الكفر أن ينزع المسلمون أيديهم من الدّعوة ومن التعريف بدين الله القيّم كما جاء في كتابه الكريم، وقبل ذلك على المسلمين أن يعودوا عودة صحيحة قويّة إلى دينهم بفهم سليم بعيدا عن التقليد وعن الأخذ ببعض الكتاب وترك بعضه، ففاقد الشيء لا يعطيه.

إن الإرادة القويّة في القيام بالدّين تنبع من القوّة التي يتمتّع بها صاحب الدّين، فالقوة كما هو معلوم تولّد العزم الذي بدوره يولّد الحركة. ولكن لأسباب كثيرة يتخلّف هذا المفهوم، ومن أهمّها الاستغناء بالحياة الدّنيا عن الآخرة، واضطراب أدوار المواطنين ونقص كفاءاتهم.

[1]- انظر التشريع الإسلامي، مناهجه ومقاصده: محمد تقي المدرسي، 2/92-94.

المبحث الثالث: القيم في القرآن

المطلب الأول: مصطلح القيم في القرآن

المطلب الثاني: أنواع القيم القرآنيّة

المبحث الثالث: القيم في القرآن

المطلب الأول: مصطلح القيم في القرآن

بالإمكان اعتبار القيمة عمليّة تبتدئ بتوجيه الإنسان، مع الأخذ بعين الاعتبار أحاسيسه، غرائزه، ميوله الناتجة عن البيئة، وعن الحالة الصحيّة والنفسية والاجتماعيّة، وتنتهي العمليّة في اختياراته المتحقّقة في الواقع. وعلى الرغم من تفاوت استعدادات التأثير وقابليات التلقي؛ تبقى العملية القيمية ذات أهميّة قصوى في حياة الإنسان، وهي لا تقتصر على مرحلة محددة من عمره، بل تمتدّ في كلّ سنين حياته.

وإذا كان الإنسان ابن بيئته التربوية إلى درجة يصعب عليه الانفكاك عنها أو الانفلات منها، وإذا كانت معارفه ومكتسباته ظنية لا ثقة فيها، فمعنى ذلك أنه لا بد له من قيم ترتكز إلى اليقين والثّبات تحقّق له عملية انتشال من خارج نفسه ومعارفه وبيئته التربوية، ولا بدّ له من معرفة يقينية يطمئنّ إلى مصدرها ويؤمن بها، ويستبين طريق الهدى من خلالها، وهي هنا معرفة الوحي المعصوم في الكتاب والسّنة، الذي توافرت له شروط النقل المعروفة، فهي يقينية ومعصومة ومصدرها الرب المربي الذي خلق الإنسان، وهو أعرف بدوافعه ونوازعه وطبائعه وخصائصه، وتبقى بطبيعتها ومصدرها بعيدة عن التحيّز والتأثّر بالإنسان، بعيدة عن أهوائه وشهواته وميوله وعصبيّاته[1]، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾الملك: 14.

تساهم عدّة أبعاد في تكوين شخصيّة الإنسان من قبيل البعد العقلي، الوجداني، السلوكي والأخلاقي، والتي تتجاوب مع عدّة أهداف؛ روحيّة، عقلية، وجدانية، اجتماعية وأخلاقية. وهي تتحقّق وتأخذ محتواها من خلال نظام من القيم، تتّصل كلّ فئة منه بجانب من جوانب الشخصيّة الإنسانيّة لتشكّلها وفق نموذج معّين[2]. ونظام القيم هذا يزرع في الوعي واللاوعي منذ الصغر رموزا ومعاني خاصة تهيئ الفرد ليكون على شاكلة ما بمظاهر الحضارة والثقافة السائدة، لذا نرى أناسا يحيون بقيم متشابهة على الرغم من انتمائهم لمرجعيات مختلفة. وعند الفرد المسلم يسبب التنافر بين المعتقد والسّلوك الذي يلمسه منذ نعومة أظفاره اختلالا في توازنه يجعله يبحث عن أمثل الطّرق التي يجدها في ذاته لمحاولة العودة إلى حالة التوازن، ولذلك فالتّعويل الكبير في إرجاع التوازن على القيم التي اكتسبها، ولكن الغلبة ستكون للبدائل الجاهزة التي فرضت نفسها بقوة الأقوى لإعادة تقييم القيم المتوارثة،

[1]- انظر القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر: عبد المجيد بن مسعود، ص27-28.

[2]- انظر المصدر نفسه، ص34.

فتكون النتيجة ابتعاده أكثر عن الإسلام الصّحيح.

"إن القيمة في القرآن هي قيمة الأفعال والسلوك، وقد عبر عن هذه القيمة بلفظ الخير، وأحيانا أخرى بلفظ القيمة. وتتضح حقيقة ذلك من استعراض بعض الاستخدامات لهٰتين اللفظتين. ففي مجال الخير استعملت في مجال الحكمة والمعرفة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾البقرة: 269، وفي مجال العقيدة والإيمان بالله جاء قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران: 110، وفي مجال الشخصية الإنسانية جاء قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ القصص: 26[1].

وتأخذ القيمة معناها في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ الكهف: 103-105. فقيمة الإنسان تتحدّد يوم القيامة من قيمة ووزن سعيه وعمله في الحياة الدّنيا.

وتناول القرآن لموضوع القيم والأقوم ينطلق من مقدّمة أصيلة وثابتة نجدها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: 9. ومقدّمة أخرى في قوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: 30. وهما تصححان مسار تناول القيم من خلال الهداية للأصلح والأقوم والأحسن لأجل إنشاء أفراد معتدلين والحفاظ على تلك التنشئة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين: 4؛ نفسيا، اجتماعيا، صحيّا، لغويّا، تواصليّا وتعارفيّا، قال عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ الآية- الحجرات: 13، بما يتناسب والهدف من الخلق والوظيفة في الوجود.

[1]- انظر القيم في القصص القرآني: عبد الله حريري، ص 52، عن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام: مقداد يلجن، مكتبة الخانجي- مصر، ط1-1973م، ص307-311.

ولقد ارتبط مدلول القيم في القرآن بـــمحاور ثلاث مهمّة: الدّين، قوامة الرّجل على المرأة، ويوم القيامة.

1. الدّين

يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: 161. إنه الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح الذي عليه الأنبياء والمرسلون، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركين[1].

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ التوبة: 36. فالدين القيم هو الشرع المستقيم الذي يتضمّن امتثال أمر الله[2].

ويقول سبحانه: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يوسف: 40.

إن هذه الأرباب سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله ليست من الربوبية في شيء، ولكن البشر في الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء ويخلعون عليها صفات ويعطونها خصائص لم ينزل الله بها من سلطان، ومنشأ هذا الحال الوقوف عند المألوفات والتقيد بالحسيات وهو مركوز في أكثر الطباع. والحكم لا يكون إلا لله، وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعاً لله في أولى خصائص ألوهيته سبحانه، فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري، ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية ويستمد القوانين من مصدر آخر. ويقرر يوسف عليه السلام أن اختصاص الله سبحانه بالحكم

[1]- انظر تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص282.

[2]- انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 148/4.

تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة هو وحده الدين القيم[1].

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: 30.إن إقامة الوجه للدين حنيفا، غير مغير ولا مبدّل، هو الدين القيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة إلى الضلالات والبدع المحدثة[2]. وقد وضع الله في العقول والقلوب استحسان جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة واستقباح غيرها، وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما أن لا أحد يبدل خلق اللّه فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه اللّه، وهذا هو الدين القيم الموصل إلى اللّه وإلى كرامته، ولكن أكثر الناس لا يتعرفون الدين القيم وإن عرفوه لم يسلكوه[3].

قال سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾الروم: 43. جاء هذا الأمر الرباني في معرض الحديث عن الفساد الذي ظهر في البر والبحر والذي أغلبه بسبب الشرك، وهناك تناسب عكسي-بالنّظر في تاريخ البشريّة- بين القيام بالدّين الحقّ وبين الحروب، وتناسب مطّرد بين نكران الدّين ومحاربته وبين القتل والدّمار والحروب، فمتى ظهر الفساد علمنا أن إقامة الدين القيم قد تخلّفت.ونتيجة لكلّ هذه المعاصي يظهر الفساد في البرّ والبحر، يختلّ الميزان القسط، ويجر الفساد الفساد وينبته.

ويتضمن الدّين القيم الإخلاص في العبادة لله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة: 5. "ويعني بالقيِّمة: المستقيمة العادلة"[4]. فدين الله يعود إلى أصل واحد، وهو يوافق الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها، وفي الآيات الأولى من سورة البينة دقيقة مهمّة وهي أنّ المشركين وأهل الكتاب لا ينفكّون ويتحرّرون من قيود الخضوع لغير المولى سبحانه حتّى تأتيهم البينة، وهذه البينة الواضحة والقويّة هي دين القيّمة الذي أتى به كل الرّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسّلام، ولكن هذا الوعي والقوة في الدين وعدم اللبس هو الذي سبب تفرّقهم وانسلاخهم، لأنّ الانتماء إليه

[1]- انظر في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، 2013م، 1990/4. وروح المعاني: الألوسي، دار إحياء التراث العربي- لبنان، 245/12.

[2]- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1 - 1420 هـ،99/20.

[3]- تيسير الكريم الرحمـٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص640.

[4]- جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري،541/24.

واضح وبيّن والخروج منه كذلك سيبدو واضحا بيّنا، ويكون الخروج بالافتقاد إلى إخلاص الدّين لله لأسباب خفية وظاهرة. وفي الآية التنبيه إلى الحرص على إقامة الدين والقيام على ذلك بالاجتهاد حتّى لا يطغى الفساد والشّرك الذي يأتي في عدّة حالات ومسمّيات، فلا يقوم هذا الدّين الحقّ الموصوف بالقيم إن فقد أحد مقوّماته.

ومن أسباب تخلف الإقامة فساد الفطر التي خلقنا عليها[1]، ومن أهمّها تخلّف الرجل والمرأة في الميدان الإنساني والحضاري، لقد باتا يحاربان ضد الفوارق الفطرية الطبيعية بينهما.

2. قوامة الرّجل على المرأة:

يقول تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾الآية- النساء: 34.

شأن الرجال القيام على النساء قيام الولاة على الرعية بالأمر والنهي ونحو ذلك، قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضا بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع. وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله. وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء[2].

ومن المظاهر المشوّهة لمؤسسة الزواج خضوع الرجل للمرأة ما يؤدّي في الغالب إلى تسلّطها عليه، ما يتسبب في اختلال ميزان الحياة، ففي حالة الفطرة السليمة يحتاج الإنسان أن يكون سيد نفسه، وقبل ذلك عابدا لمن خلقه وجعل فطرته أن يعبده، ولكن إنسان هذا العصر لم ينجح في عيش هذه الحالة المتوازنة بسبب طبيعة حياته الخاضعة للكثير من الأوامر الخارجيّة (الدولة، الأعراف، الوظيفة، مظاهر العلمنة...). كما أن هناك ظروفا أقوى من الرّجل والمرأة تتعلّق بالحالة الصحيّة والجسديّة، فالتلوّث البيئي المتزايد باستمرار يفسد طبيعة التكوين البشريّة.

---

[1]- انظر مطلب الفطرة والتطرف، ص94.

[2]- انظر روح المعاني: الألوسي، 23/5، تيسير الكريم الرحـمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص177.

على سبيل المثال تجمع عوامل معينة مثل الزيادة في الوزن، والأمراض المزمنة وزيادة الدهون في الدم، تحول الهرمونات الذكرية إلى أنثوية.

إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة التي يسعى الدين العالمي الجديد للعلمانيّة أن يطمسها ويحاربها لا تأتي من وجود الرحم والحمل أو من طريقة التعليم، فهي ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك لأنّ عقول الذكور والإناث مختلفة بالفطرة وليس بالتنشئة. ولقد أدت محاربة هذه الحقيقة الجوهرية إلى ترسيخ تلقي الجنسين تعليماً واحداً، ومنحهما سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وجهازها العصبي. القوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم، فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، لذلك يتعين على النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور[1].

لقد تسبّبت التغييرات السلبية التي مسّت علاقة الرجل بالمرأة في إنقاص كفاءة أدائهما لأدوارهما المتناسبة مع فطرتهما؛ بل وتسببت في تشويه قيمهما، فأصبح الأفراد منحرفين على مستويات الفكر والإنتاجيّة والصحّة العقليّة والبدنيّة، وترتدّ هذه التراكمات بالضرر والفساد على كلّ المستويات باعتبار الأسرة خليّة المجتمع. قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾الروم: 41.

وتنبع أهميّة هذا الموضوع لكون المرأة هي الأم التي تربّي الأطفال حتى يكونوا أسوياء وذوي كفاءة في المستقبل لعمارة الأرض، وهذا يتطلّب منها تضحية تؤجر عليها يوم القيامة، ولكن لأن المرأة كالتابع للرّجل فلا بدّ من أن يبرع في إصلاحها، وبفقده القوامة عليها فستنظر إليه بدونيّة لأن طبع المرأة يتطلّب القيّم الذي لا يغفل عنها أبدا، ومن ثمّ تتطلّع إلى طموحات ومطامع تصدّها عن واجب الأمومة والحياء، فتضيع تبعا لذلك الأسرة نواة المجتمع. وقد تبرع في تبرير ذلك لنفسها إذا لم تحسب حساب يوم القيامة التي توضع فيه الموازين القسط، ويسأل كل مسئول عن رعيّته، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب: 72.

[1]- انظر الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل، ص108-111. والمخ ذكر أم أنثى: عمرو شريف- نبيل كامل، ص115.

تخلّف المسلمون عن دورهم في إحلال الخيريّة وحفظ النظام والسّلام، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران: 110، وصار السعي منهم سعيا في تحصيل متع الحياة الدّنيا بعد أن أبعدوا حساب يوم القيامة عن عقولهم وقلوبهم. قال سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾الجاثية: 23-24. لم تعد الآخرة ذات قيمة، مع أن التقييم النهائي يظهر فيها، يقول تعالى في كتابه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾الأنبياء: 47.

3. يوم القيامة:

يقول سبحانه في كتابه العزيز: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ الإسراء: 18-19. والآيات التالية لها تبيّن كيف آل الأمر بالمسلم إلى هذا الحال المرعب، فبداية يتّخذ إلهه هواه أو أي إله تحت مسمّى آخر، ويخضع للإله الجديد الخفيّ فتتملّكه الأنانيّة ويهمل مساعدة من حوله لأنّه لا يقدّم التضحيات فهو لا يعدّ العدّة لليوم الآخر، وتدور حياته حول تحصيل الملذّات، وتتوالى تبعات سلوكاته وتمثّلاته الجديدة الطّارئة من استهانة بإتيان ما نهى الله عنه، لأنّه يريد استثمار علاقاته وممتلكاته في التنعّم، ويصيبه الكبر والغرور، وقد يجهر بالطّعن في مسلّمات كتاب الله أو دينه بعد أن رأى أمثاله كثرا من المحيطين به مما يكسبهم الجرأة في إسماع أصواتهم! وأنى لهم ذلك يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ سبأ: 52-54.

ويقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾البقرة: 212. الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ولم ينقادوا لشرعه ازينت الحياة الدنيا في أعينهم وقلوبهم، فاطمأنوا إليها وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، وهم مع هذا احتقروا المؤمنين، واستهزأوا بهم[1]. ولكن الرزق الذي يدوم إنما هو يوم القيامة، ويفوز به الذين اتقوا الله، وهم في مقام أعلى وفوق الكافرين. ومن معاني القيمة الدوام والاستمرار، لذلك كانت القيم التي يحصل الإنسان من ورائها الخير والفلاح هي الأصلح والأصوب، وأما القيم التي تبتعد عن الدين بمعناه الشامل فلا تحقّق سوى الذلة والخسارة. وفي الغالب يهوي المرء إلى هذا التفكير بسبب فتنة الحياة الدّنيا وزينتها.

وفي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾آل عمران: 77، يدخل كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، فيوم القيامة لا يكلمهم الله غضبا عليهم وسخطا، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم[2].

إنّ يوم القيامة هو اليوم الذي يحاسب فيه الإنسان على ما قدّم في الحياة الدنيا من عمل، وهو يشمل معاني إقامة العدل، والمكافأة على اتباع التعاليم الإلٰهية والعمل بها، وإزالة العوج من خلال محاسبة كل من أفسد ميزان الحياة بالمعاصي والتكبّر والإفساد، الميزان فيها هو ميزان الأعمال. وتتحدّد إقامة الإنسان من خلال الجزاء الذي يلاقيه كل فرد، فإما النعيم والجنة، وإما الجحيم والنار. يقول عزّ وجلّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾الكهف: 105.

[1]- تيسير الكريم الرحـمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص95.

[2]- انظر المصدر نفسه، ص135.

المطلب الثاني: أنواع القيم القرآنية

خلق الله الإنسان ليعبده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات: 56، وجعل الابتلاء سنته سبحانه في خلقه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾الملك: 2. والابتلاء اختبار من الله عز وجل للإنسان في أي جانب من الحياة الدّنيا؛ إن في الخير أو في الشرّ، فعمله وسعيه فيها ينتهي إلى الخير والشرّ. ويتحدّد العمل بالصواب والخطأ، أو بالحسن والسيئ، بانتمائه لأحدهما، وقرار المرء باختياره الشر أو الخير ومن ثمّ تحققه في الواقع هو الذي يجعلنا نحكم بأن هذا الإنسان اختار أحدهما. ولكن هل يجد نفسه مجبرا على هذا العمل؟ أو أنه حرّ في اختياراته وقراراته فيما يأتي من عمل ويذر؟!

يقسم الجواب على هذا التساؤل إلى شقين:

- يختار الإنسان الخير والشرّ تبعا لإرادته التي تقوده إلى إتيان أحدهما.

- وإرادته التي تسبب التحريك تتجاذبها قوى مختلفة، والقوة ذات التأثير الأكبر هي التي تلازمه وتأثر على اعتقاداته وأفكاره وسلوكاته، أو بإجباره على تغييره لها بما لها من سلطة.

إن القيم باستمراريتها ودوامها تغيّر وتعدّل وتقوّم، فهي في اتصال مع نظام الوعي واللاوعي في الإنسان. وحيث أن وظائف الجسم تنظم بجهازي تحكم رئيسين، وهما: الجهاز العصبي، والجهاز الهرمونيّ[1] أو جهاز الغدد الصماء؛ وهما قابلان للتبدل والتطور تبعا للظروف المحيطة بهما والبيئة، فتتغير طبيعة استجابتهما تبعا لتغيّر أدائهما. وإذا كانت القيمة هي ما يتطلع المرء إليه وإلى تحقيقه على حسب القوة المتوفرة له، ويضحي في سبيله بغيره من البدائل المتوفرة ضمن حدود الحريّة المتاحة له وقوّة إرادته؛ فيرجع أصل العمليّة في إتيان الخير وترك الشرّ، أو العكس، إلى القوة والإرادة. لذلك ارتأى البحث أن يؤول بأنواع القيم القرآنيّة إلى قيمتي القوّة والإرادة.

1. القوّة:

تبين في مطلب مصطلح القيم في القرآن ضرورة الاهتمام بإقامة الديّن بما تحمله الإقامة من معاني الثبات والسّعي بقوة، والإخلاص في هذه العمليّة للمولى تعالى. والقوة في القرآن هي في البيان، وفي مواجهة الكفر والضّلال، وفي العدل، وفي الحفاظ على الفطرة السليمة...إلخ. من المواضيع التي جاء فيها الحديث عن القوة في القرآن؛ العجب بالقوة والطغيان في الأرض والاستكبار لما للقوة من فتنة. قال سبحانه حكاية عن القوم الظالمين:

[1]- الهرمون: هو مادّة كيميائيّة تفرز إلى سوائل الجسم من خلية واحدة أو من مجموعة خلايا، ولها تأثير تحكمي فيزيولوجي على خلايا أخرى في الجسم.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فصلت: 15.

وكي يزول هذا الإفساد في الأرض جاء الأمر الإلـٰهي بإقامة الدّين الصّحيح القيّم بقوّة حتّى لا تنفكّ عراه وتتحقّق الخيريّة التي تحفظ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يتهيّأ بتحصيل أسباب القوة، قال سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾الأعراف: 145. أي أخذها بجد واجتهاد على إقامتها، وفي هذا دليل على أن أوامر اللّه – في كل شريعة – كاملة عادلة حسنة[1]، وتحمل أسباب استمراريتها في نفسها. وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور: 55.

والقوّة قوّتان؛ قوّة الفئة المؤمنة، وقوّة الفئة الباغية التي عادة ما يشار إليها في القرآن بالملأ؛ وهم يمثلون الجماعة التي حازت مختلف السلطات في قومها وبلدها فتسلّطت على المستضعفين، قال تعالى حكاية عن قوم نوح عليه السّلام: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود: 27. وفي كل زمان وعصر هناك من يمثل الملأ الذين يرتبط وصفهم بالقوّة، سواء المالية، أو القانونية، أو الدّينية المحرّفة كما في قصص الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام. ومفهوم القوة يتضمّن القدرة على التأثير على الآخرين وإخضاعهم لإرادة القوى الفاعلة في أي موقف اجتماعي كان أم سياسي أم اقتصادي أم ثقافي. وفي هذا العصر[2]تعدّ قوة الصفوة الجديدة من رجال الأعمال والخبراء في مجالات الاتصالات والإعلام والمثقفين عامة ورجال الدولة من

[1]– انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص303.

[2]– علوم العصر تساعد في فهم مواضيع القرآن، لذلك يأتي الاستشهاد بنصوص قد تبدو للوهلة الأولى ذات صلة غير مباشرة بعنوان المطلب، والمطلوب هو التأسيس لفهم يهتمّ بما هو قائم من علوم، كيف لا وهي من العلوم التي أسست لعصر ما بعد الحداثة، وهو بدوره طغى بقيمه وأكسبها الشرعيّة والإنسانيّة بمختلف أنواع القوى التي يملكها. ففي هذا العصر الذي ضعف فيه الإنسان لغويا وروحيا وجماليا وحتّى عقليّا؛ صار من الضّروري الاستشهاد بنفس الحجج والبراهين التي من خلالها يدلّس من تسبّب في هذا الواقع.

الفواعل ذات التأثير القوي كما الدّولة مع تفاوت بينها.

من القصص التي تناولها القرآن الكريم وأكّد عليها كثيرا قصّة موسى عليه السلام وفرعون، وقد كان سيدنا موسى يتميّز بالقوّة؛ أرسله الله ليخلّص بني إسرائيل المستضعفين من فرعون الذي حاز أسباب القوّة والظلم في الأرض بغير حقّ. يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الزخرف: 51-54. يتبجّح ويستكبر القويّ هنا وهو فرعون بما حاز من ممتلكات وتمكّن من خيرات، وهي زخرف الحياة الدّنيا، وتمثّل ما هو ماديّ وملموس، حتّى أنّه أعلى من شأن وقيمة موسى عليه السلام –في سياق استخفافه بقومه وجداله– بارتباط رسالته بالذّهب المعدن الثمين، أو الملائكة الذين ليس من عادة البشر رؤيتهم.وقومه يتبعونه وتعمى أبصارهم وبصائرهم على رغم البراهين والمعجزات المشاهدة والماديّة التي جاء بها موسى عليه السّلام، فكانت قوّة أخرى أثّرت عليهم ووجّهتهم وهي تسلّطه وإخضاعه لهم بعد أن سلبهم حرية عقولهم بطول استعباده لهم.

أما حاليا فأتاحت الثورة الصناعية والعلمية للغرب القوة والسيطرة، بتأسيسها لتحول عميق داخل الحداثة يتجلى في الانتقال من حضارة العلم والتقدّم إلى حضارة الاستهلاك والترفيه بالاستمرار في التقدّم في فنون الإنتاج، حتّى أضحت الإنتاجية هي ميزة الأمم الحديثة[1].والسّبب في ذلك أنّه مدفوع بفلسفة القوّة، وبالنزعة الماديّة، وهي تلك "الفلسفات التي استلهمت من التقنية العلمية، وتميل إلى اعتبار كلّ شيء لا إنسانيّ مجرّد خامّة أوليّة، ولم تعد الغايات تدخل في الاعتبار، وإنّما القيمة قاصرة على براعة العمل فقط. ويبدو أنّ العالم الحديث يتحرّك في الزّمن الحاضر نحو حلّ مماثل لحلّ العالم القديم: نظام اجتماعي تفرضه القوّة، يمثّل إرادة الرّجال الأقوياء أكثر ممّا يمثّل إرادة عامّة النّاس"[2].

مما تتمثّل به هذه القوة العلم الذي يمتلك عند الغرب المتقدّم " دورا أساسيّا في إعطاء المشروعيّة للنظام الاجتماعي والسياسي الحديث. وبالتالي فالنزعة العلميّة لها أبعاد لا تتمثّل فقط في جعل المؤسسات العلمية أكثر إنتاجيّة وإنما أيضا في إضفاء الشرعيّة[3] على النظام السياسي والاجتماعيّ المؤسّس على العقلانيّة التقنيّة"[4]. والغرب

[1]– انظر الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة – نموذج هابرماس–: محمد نور الدين أفاية، إفريقيا الشرق– المغرب، ط2– 1998، ص113.

[2]– انظر تاريخ الفلسفة الغربيّة– الكتاب الثالث– الفلسفة الحديثة: برتراند راسل، ص10.

[3]– انظر الفلسفة والعلم، ص44.

[4]– انظر الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة – نموذج هابرماس–: محمد نور الدين أفاية، ص61-62.

الحديث منذ بداياته إلى الآن، كان دائما مدفوعا إلى الأمام من طرف قوتين أساسيتين: إرادة المعرفة وإرادة السيطرة. بل إن الرغبة العارمة في المعرفة تعزز وتقوي الرغبة في التغيير، ومن ثم الميل نحو التوسع والتحكم في فضاءات متعددة[1].

تمثّل قيمة القوّة فاعلا محرّكا، وقد يرقى لأن يكون موجّها حتّى لإرادات الغير إن لم يجد قوّة أخرى مواجهة له تحدّ من تقدّمه وتسلّطه. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ الآية- غافر: 29. وفرعون مثال عن كلّ متكبّر قويّ تعلّم تبرير أفعاله لا بمقاصده وإرادته بل بالنجاحات التي يحصل عليها أو الإخفاقات التي يمنى بها[2]، لأنه يرى نفسه قويا وليس هناك من هو أقوى منه، فـ" الذي يمتلك في ذاته وعيا فخورا حقيقيّا بالحريّة والقدرة يكتسب الثقة ويفرضها، ويستدعي الخشية، ويتسلط على المخلوقات ذوي الإرادة الأضعف من إرادته، وعلى العلاقات الأقلّ أمنا واطمئنانا. إنّ الإنسان الحرّ الحائز على إرادة واسعة عاتية يجد في هذه الحيازة معياره القيمي: فهو، من أجل الحكم على الآخرين، يقدّر أو يحتقر بالاستناد إلى ذاته وقياسا عليها"[3]. حيثما حلّت القوة كانت مسيطرة على من هم أضعف، وإذا كانت القوّة المسيطرة هي تلك التي لا تراعي الإنسان بمختلف مكوناته فهي قوة طاغية مفسدة وتنشر الضعف والهوان، والقيم التي تندرج تحت مسمى هذا النوع من القوّة كقيمة في القرآن؛ هي قيم الخوف والتقليد الأعمى والحجر على العقل وتعطيل وظيفته.

إنها نفسها التي أنتجت إنسان الحضارة العصرية الذي يتّصف بكثير من الجهل وحدّ معين من الذّكاء، وأيضا بجانب من الضعف العقلي الذي يتركه تحت تأثير البيئة التي يتفق وجوده فيها، ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق. والحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وأيضا نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم عديمة القيمة، كمبادئ الثورة الفرنسية. ولذا فنحن قوم تعساء؛ ننحط أخلاقيا وعقليا، وأكثرنا ناعمون، عاطفيون، شهوانيون، قساة، مجردون من الإحساس الأدبي والديني والشعور بالجمال. والجماعات التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي، على وجه الدقة، الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من

[1]- الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة – نموذج هابرماس-: محمد نور الدين أفاية،ص108.

[2]- العقل في القرن العشرين: برتران سان- سرنان، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة-سوريا، 2000، ص3.

[3]- أصل الأخلاق وفصلها: فريدريك نيتشه، ترجمة حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- لبنان، ص55.

عودة غيرها إليها، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيّدها العلم حولها[1].

وأما إذا كانت قيمة القوّة في إقامة دين الله كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ الحديد: 25؛ فتندرج تحتها قيم الرّحمة والعدل والنماء والازدهار. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ المائدة: 66. ويقول سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾النور: 55.

2. الإرادة:

2.1. مفهوم الإرادة:

لغة: أراد يدل على مجيء وذهاب من انطلاق في جهة واحدة. تقول: راودته على أن يفعل كذا، إذا أردته على فعله. والرود: فعل الرائد، يقال بعثنا رائدا يرود الكلأ، أي ينظر ويطلب[2].

اصطلاحا: هي الدافع الذي يجده الإنسان في نفسه للقيام بأمر ما[3].

كما تعني الإرادة[4]:

– صورة الفعالية الشخصية التي تتضمن في شكلها التام تمثل الفعل الواجب إنتاجه، تصور الأسباب الموجبة للقيام به أو لعدم القيام به، الشعور بقيمة هذه الأسباب، قرار التصرّف بموجبها، والتوصل إلى التنفيذ أو الامتناع النهائي عنه. تكمن الإرادة فقط في كوننا نتصرف بحيث لا نشعر البتة بأية قوة خارجية تكرهنا على تصرّفنا.

---

[1]– انظر الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل، ص35–42.

[2]–انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 457/2.

[3]– انظر الإرادة الإنسانية في ضوء القرآن الكريم– دراسة موضوعيّة: محمد حلس، أطروحة ماجستير، الجامعة الإسلامية– غزّة، 2009م، ص2–3.

[4]– انظر موسوعة لالاند الفلسفية: أندريه لالاند، ص1563.

– صفة الطابع الكامن في القوة الكبيرة نسبيا التي يتماهى معها الفاعل بوعي، والتي تستمر بها نزعة ما وتغدو فعالة على الرغم من مقاومة نزعات أخرى. إنها فكرة قيمة يحكم عليها بأنها عليا، لكنها لا تحسّ حاليا بهذه الصفة، مكافحةً ضدّ قيمة جذّابة ويعتقد أنها أدنى منها.

المعاني السابقة تمثّل الإرادة عند الإنسان، وأما الإرادة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ الآية– الكهف: 77 فهي إرادة حقيقيّة، وتعني توفّر وحصول الأسباب التي تمكّنه من التهدّم، ولكن الخضر بتعليم الله له عرف أنه آيل إلى ذلك، فأقامه وأعاد تشييده وأزال أسباب انهدامه، وفعل الإقامة من الخضر هو الذي غيّر إرادة الجدار بإيقافه لمسبباتها. وعلى هذا تمثّل الإرادة تهيّؤ الأسباب التي تصيّر الفكرة،أو الحالة المتغيّرة عن التي سبقتها، تصيّرها فعلا.

إن الإرادة وليدة أفكار وسلوكات وسلسلة تفاعلات طويلة في بدن وعقل الإنسان، فإذا تكرّرت نفس الحوادث والانفعالات والأسباب، فستنتج نفس الاختيارات. و"العلوم العصبية الحديثة قد توصلت إلى الآليات المخية التي تقوم بالاختيار[1]. ففي البداية يطرح نصف المخ الأيسر الاحتمالات المختلفة تجاه الموقف الواحد، ثم يقوم فصي المخ الأماميين بالاختيار بناء على قيم الإنسان"[2]. لذلك تمثل القيم معيارا يمكّن من الاختيار بين البدائل المتاحة، وماذا إذا لم تكن هناك بدائل بل اختيار واحد قد حدّد سلفا تبعا لسلسة من الانفعالات والرّغبات والذّكريات والتّقييمات وأداء الهرمونات والغرائز الموجّهة،وبالتنسيق مع العالم المحيط؟!

2.2. الإرادة كظاهرة بيولوجيّة:

تتمثّل أكثر الأشكال البيولوجيّة بدائيّة للقصديّة في أشكال الرّغبة التي تشمل الحاجات الجسديّة كالجوع والعطش، ويحقق المرء إرادته حيالهما بمجموعة عمليات متسلسلة كالآتي:

يتسبّب فقدان الماء في الجسم بأن تفرز الكليتان بروتين ضغط الدّم.. تصل هذه المادّة إلى الدّماغ وتهاجم أجزاء منه تسبّب زيادة في معدّل الرّسائل العصبيّة في تلك الأجزاء، وهذا بدوره يجعله يحسّ بالرّغبة الشعوريّة للشّرب. وهناك بعض أنواع العطش توفّره حقيقة أنّ المرضى الذين يعانون من بعض أنواع الأورام الخبيثة التي تضغط على نفس الجزء من الدّماغ يشعرون بالعطش دائما وبدون انقطاع، ولا يمكن لأيّة كميّة من الشّراب أن

[1]– وهي تبقى فرضيات، لأن العلم التجريبي مبني على ذلك، فلا حقائق مطلقة فيه.

[2]– أنا تتحدث عن نفسها: عمرو شريف، ص36.

تروي ظمأهم. أمّا المرضى الذين يعانون من ضمور في الأجزاء نفسها فلا يشعرون بالعطش أبداً[1].

ولكن ما مدى تمتّع الإنسان بالإرادة في العمليات الأخرى، وما مدى اتصافها بالحريّة؟

3. الحريّة:

الشّائع أن الإنسان حرّ فيما يأتيه من أفعال ويذر لأنه يملك إرادة من خلالها يختار ما يراه يوافق رغبته، ولكن الإرادة حتّى تعبّر حقّا عن دواخل وقيم صاحبها فلا بدّ من أن يتمتّع هو أوّلا بالحريّة، لأنه بعيدا عن الحريّة تصبح إرادته ضعيفة، أو لا تتحقّق أصلا.

3.1. مفهوم الحرية

لغة: هي ما خالف العبودية وبرئ من العيب والنقص[2].

وفي موسوعة لالاند جاءت معان عدّة للحريّة[3]:

معنى عام: حالة الكائن الذي لا يعاني إكراها، الذي يتصرف طبقا لمشيئته ولطبيعته.

معنى سياسي واجتماعي: يكون المرء حرا في أن يفعل كل ما لا يمنعه القانون، حرا في أن يرفض القيام بكل ما لا يأمره بفعله.

معنى نفسي وأخلاقي: هي حالة الفاعل الذي يعرف ما يريد، ولماذا يريده، والذي لا يتصرّف إلا بمقتضى الأسباب التي يوافق عليها.

تبعا لهذه التعريفات فالحريّة هي التصرّف الذي يقود صاحبه إلى إتيان أفعال يكون مسئولا عنها، وتميّزها الأعمال التي تدعم الخير العامّ، لأن كلّ قانون وتشريع فهو يدّعي مراعاة المصلحة العامّة، ويهيئ المواطنين لتوافق رغباتهم تلك المصالح، فتصبح الحريّة شكلا هي العمل الذي لا يعارض مصالح الأقوى، ومضمونا هي تجنيد المواطنين لتخدم إراداتهم ورغباتهم تلك المصالح.

ولقد أصبح الإنسان عاجزا عن تقويم الخيارات المطروحة أو إدراك حقيقة التشوّهات الحاصلة بغية تصويب الأخطاء وتصحيح الحلول. ولذا لم تعد لديه المقدرة على النظر إليها بشكل نقدي، وأصبحت المقدرة الأساسية عنده هي القدرة على التكيّف مع القوى الاجتماعيّة المهيمنة وأداء الوظيفة الموكلة إليه، ولم تعد لديه من حريّات

---

[1]- انظر العقل واللغة والمجتمع- الفلسفة في العالم الواقعيّ: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 1427، ص144.

[2]- انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 6/2.

[3]- موسوعة لالاند الفلسفية: أندريه لالاند، ص729.

سوى حريّة اختيار بديل من البدائل المتوافرة التي يقع اختياره عليها بعد الانغماس في حسابات رشيدة تدور داخل الإطار المعطى[1].

إن معاني الحريّة التي جاءت في القرآن جاءت مقترنة مع إقامة دين الله الحقّ، فبغير هذه الطّريق لا تتهيّأ الحريّة للإنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ النساء: 97-98.في الآية استفهام تقرير يبين أنه قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، وأما من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ الفتح: 17. ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل[2].

إن المسلم مسئول وملزم بدين الله، فيه صلاحه، وشقاؤه بابتعاده عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ الزمر: 2. وبعبوديته لله وخضوعه لإلزامات الدين تتحقق حريته، لأن الله هو الملك الحق الذي يأمرنا وينهانا فنطيع، وعلى المسلم أن يطلب أسباب ذلك، وتتجسّد هذه الحريّة بإقامة دين الله في هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج: 41. فإن طلبت الحريّة في غير هذا الموضع صارت عبوديّة وقيدا، لأنها بذا تصل المسلم بغير مسبب الأسباب. وأما إن هرب إلى إنكار الدّين أو بعضه فهو يركن إلى هوى النفس، أو إلى سلطة أخرى، لأنه لا يمكن لأي إنسان أن يعيش بلا أفكار أو معتقدات أو سلوكات، فحتما هو يتبع مرجعيّة ما أو يخضع لسلطة ما. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف: 54.

[1]- انظر العلمانيّة الجزئية والعلمانيّة الشاملة: عبد الوهاب المسيري، 146/1.

[2]- انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص195.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ البقرة: 251. لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى وإظهار دينه، ولكن الله مكن المسلمين من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها[1].تعطينا هذه الآية العبرة من كلّ معارك التاريخ الإنساني في سبيل الحريّة[2]، فالشعائر والعبادات لا بدّ لها من حماية تدفع عنها الذين يصدّون عن سبيل الله، وتمنعهم من الاعتداء على حريّة العقيدة وحريّة العبادة حتّى تتحقّق للمسلمين ولغيرهم حريّة العبادة والعقيدة في ظلّ دين الله الحقّ.

إنّ الإنسان في اتخاذه قراراته ومزاولته العمليّة لها يستند إلى رؤيته الشخصيّة التي تكونت خلال مختلف مراحل حياته، فهو لم يكن حرّا بالمفهوم الذي يخلي ساحة أيّ تأثير خارجي عليه، لأنّه دائما وباستمرار متعرّض لتأثيرات خارجيّة. وهي مرتبطة أيضا بأخرى داخليّة، فكل قرار يتّخذه يستند إلى حيثيات وتفاصيل متسلسلة وسابقة له. وحيث أن القيمة تمثّل الإدراك المعرفي والإرادة النفسية التي تستند إلى مرجعيّة محدّدة؛ فالقول أنّ فواعل كثيرة تؤثر في إرادة الفرد حتّى يتبنّى قيما مخصوصة، والتحدّي الذي يواجهه الفاعل المؤثّر سواء أكان فردا أو مؤسسة أو جماعة.. هو توجيه هذا الفرد باستثمار مدخلاته المعرفيّة لتوافق القيم التي يريده الفاعل أن يتمثّلها. وإنسان هذا العصر تشوّهت قيمه وتغيرت الحقائق عنده،وطغت عليه قوانين لا تناسب طبيعة احتياجاته وقدراته وغدا مسلوب الإرادة!

3.2. حرية الإرادة

إن هناك تجارب مشهورة أجريت تبيّن سلوك الجموع من الناس في استبطان وتمثّل مواقف وقرارات من هم أعلى منهم سلطة معنويّة أو ماديّة أو قانونيّة...إلخ. نذكر هنا تجربة ملغرام للأهميّة البالغة التي خرج بها صاحبها، وهو ستانلي ملغرام[3]. توصل ملغرام إلى مجموعة من النتائج أهمها أن الطبيعة البشرية غير جديرة بالاعتماد عليها لتبعد الإنسان عن القسوة، والمعاملة اللاإنسانية، عندما تتلقى الأوامر من قبل سلطة فاسدة، فنسبة كبيرة من الناس مستعدون لتنفيذ ما يؤمرون به دون أخذ طبيعة الأمر بعين الاعتبار، وبدون حدود يفرضها الضمير مادامت الأوامر صادرة عن سلطة شرعية. والأمر يتعلق بإحساس عميق بالواجب نحو السلطة متأصّل في الأفراد المدربين

[1]– انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص 108.

[2]– الحريات من القرآن الكريم: علي محمد الصلابي، بدون تاريخ، ص15.

[3]– عالم نفسي شهير بحث عن مدى مسؤلية مرتكبي الجرائم المنتسبين إلى دول أو تنظيمات عن أفعالهم.

منذ الولادة على أن الطاعة للسلطة صواب وأن عدم الطاعة خطأ وأن استجابتهم هي رد فعل وليست ثمرة التفكير والتروي لذلك فهي تأتي بشكل انسيابي وبتلقائية[1]. هنا تظهر المهمة الحقيقية للعقل، وهي فحص القيمة الصحيحة لكل الخيرات التي يبدو اكتسابها متوقفا على سلوكنا إلى حدّ ما[2]. فإذا تدبّر الإنسان في الآيات المبثوثة في الكون فستتصل فطرته بمفاتيح قدرة الله سبحانه وعظمته، وإذا ما لم يتأمّل عطّل قدراته العقليّة التي وهبه الله إياها وكان محجما عن طريق الهداية، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾فاطر: 37.

الخلاصة:

حتّى تتجسّد الإرادة لا بدّ من توفّر الحريّة، والحريّة المطلقة ليست ممكنة التحقّق، فالإنسان يحيا وهو ملزم بقوانين دينيّة، ووضعيّة، واجتماعيّة، وبيولوجيّة...إلخ، فليس بإمكانه فعل ما يريد لأن الله خلقنا في هذا الكون نحيا وفق سنن، منها سنّة السببيّة. ومن قواعد سنة السببية أن الإفساد والفساد يتسببان في الإفساد والفساد، والأنظمة التي خلقها الله في العالم الذي نحيا فيه مترابطة ومتصلة، فالنظام الغذائي، والبيئي، والاجتماعي، والمالي...إلخ تتأثر ببعضها وتؤثر في بعضها البعض. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ البقرة: 168-170. وقال سبحانه: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ طه: 71. تبين الآيات أن إفساد الأكل الحلال الطيب بآخر مصنّع ومعدّل بما يغيّر خلقة الله سببه اتباع الشيطان الذي توعد بأمر بني الإنسان بتغيير خلقة الله، قال تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ

[1]- ينظر: عن سيكولوجية الانصياع والطاعة تجربة ميلجرام: بيشوي القمص، 2015، مقال مرفوع من الشبكة العنكبوتيّة.

[2]- موسوعة لالاند الفلسفية: ص1523.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ النساء: 119-120، وهذا بدوره يؤدّي إلى تشويه البناء الصحي والنظام الإلـٰهي.

وقد ثبت أن التغيرات البيئيّة، كالتغدية ودرجة الحرارة وكذلك التغيرات الداخلية كالانفعال، يمكن أن تغير من نشاط الجينات، بل ويمكن أيضا تمرير تلك التغيرات (في النشاط) إلى الأجيال التالية[1]. كذلك ثبت أن الآلية البيولوجية الفطرية لا تنفرد بتوجيه عملية بناء البروتينات، بل تشاركها آلية أخرى، وهي آلية بيولوجية مكتسبة محورها العوامل البيئية التي تتحكم في الجينات[2]. وما تتمّ دراسته الآن وتطبيقه على أرض الواقع هو الحد من حريّة الإنسان من خلال نمذجة مساراته العقليّة حسب أهداف محدّدة. وهذه الأهداف تخلق في مطامع ومطامح الأقوياء ذوي الإرادة النافذة. ومن الأدوات والأساليب المساعدة على ذلك استثمار خصائص الجسم الإنساني، فمثلا كان "الاعتقاد السائد بأن خلايا المخ ومساراته العصبية غير قابلة للتجديد أو التغير، ولكن ثبت أن المخ وخلاياه يعتبر تراكيب ديناميكية متغيرة وليست ثابتة، بل ويصل الأمر إلى حد ظهور خلايا ومسارات عصبية جديدة بعد البلوغ تبعا لاحتياج الجسم"[3].

الإرادة تحتاج إلى الصّيانة والاعتناء بالعوامل التي توفّر القوّة في الأخذ بالدّين وإقامته، فإن غابت هذه العوامل فستغيب تلقائيّا الإرادة الحقّة والمسئولة.

[1]- تعتمد آلية التحكم في الجينات على ما ثبت أن الدنا DNA يمثل فقط نصف محتوى الكروموسومات، أما النصف الآخر فيتكون من بروتينات تنظيميّة. وتشكل هذه البروتينات غلافا يحيط بالدنا ويمنع قراءة ما به من المعلومات؛ ومن ثمّ يمنعه من ممارسة مهامّه. وهنا يأتي دور المؤثرات البيئيّة، كالتغذية ودرجة الحرارة، وكذلك التغيرات الداخلية كالانفعال، فهي تغير من شكل الغلاف البروتيني، فينفصل عن الدنا مما يسمح بقراءته وتنفيذ ما يحمل من معلومات. عن أنا تتحدث عن نفسها: عمرو شريف، ص112.

[2]- أنا تتحدث عن نفسها: عمرو شريف، ص112-113.

[3]- انظر المخ ذكر أنثى: عمرو شريف- نبيل كامل، ص 334.

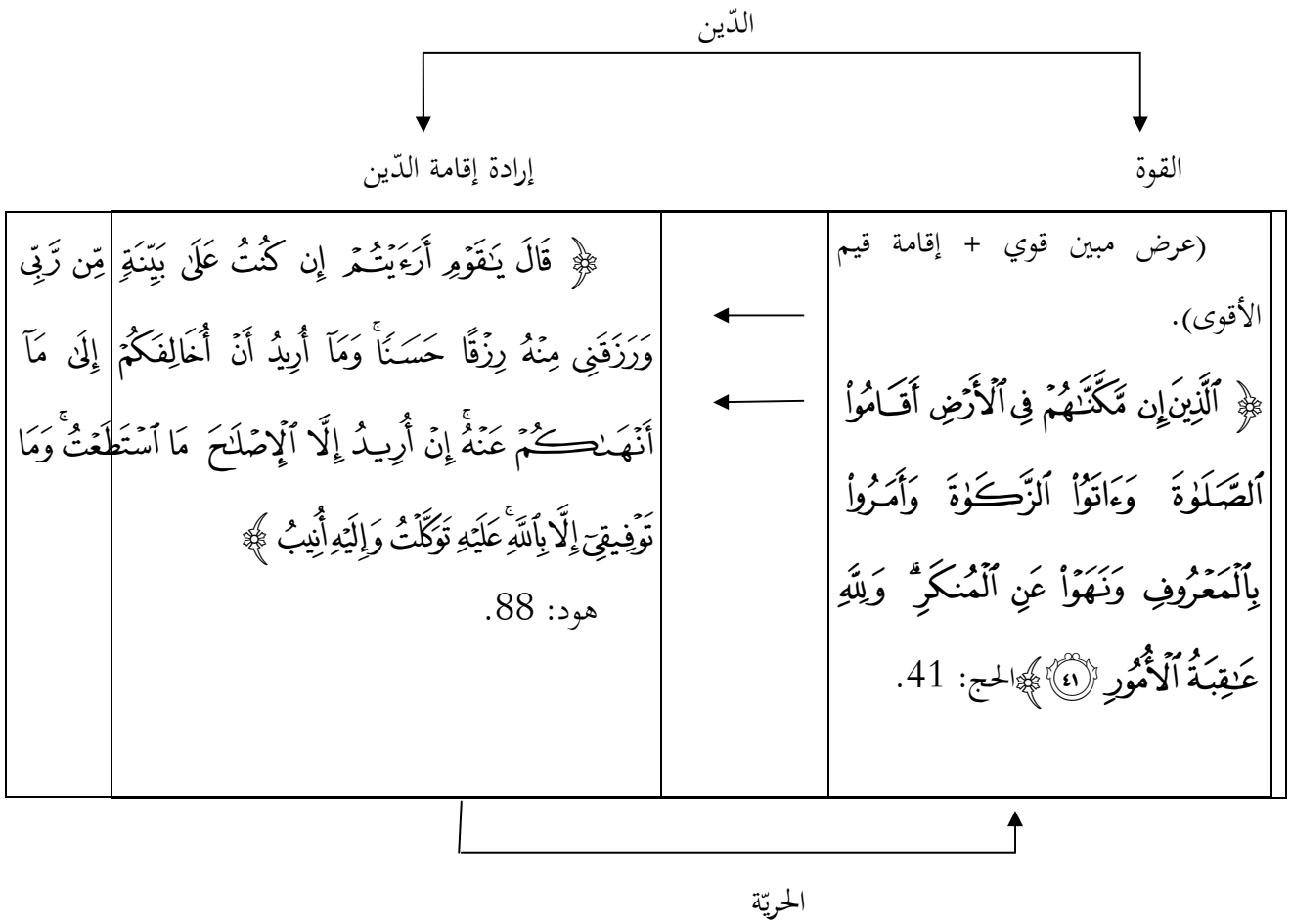
الدّين
القوة
إرادة إقامة الدّين
(عرض مبين قوي + إقامة قيم الأقوى).
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾الحج: 41.
﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾
هود: 88.
الحريّة

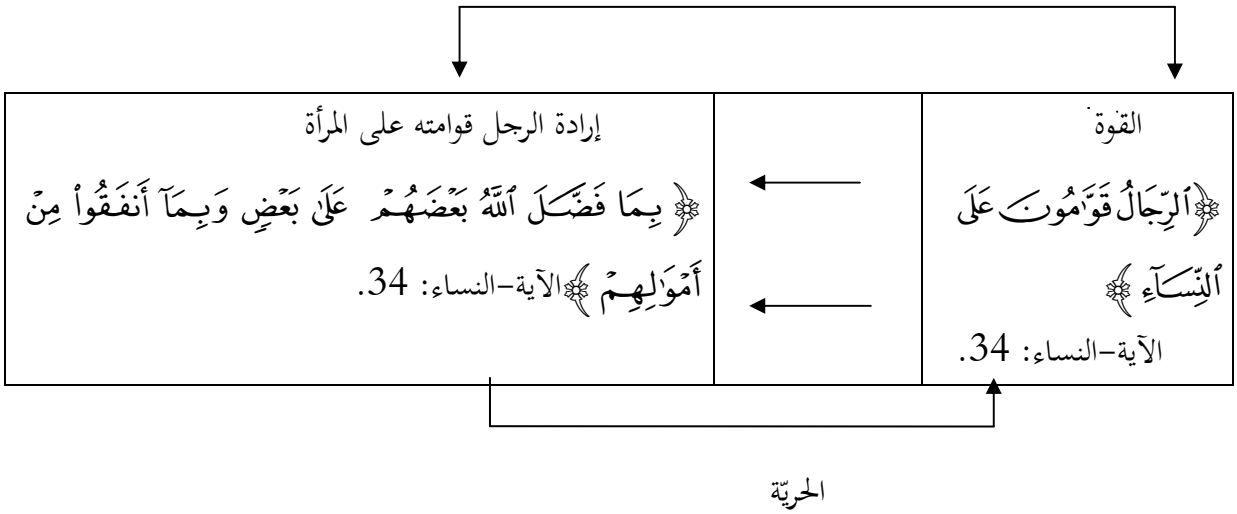
قوامة الرجل على المرأة
القوة
﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾
الآية-النساء: 34.
إرادة الرجل قوامته على المرأة
﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾الآية-النساء: 34.
الحريّة

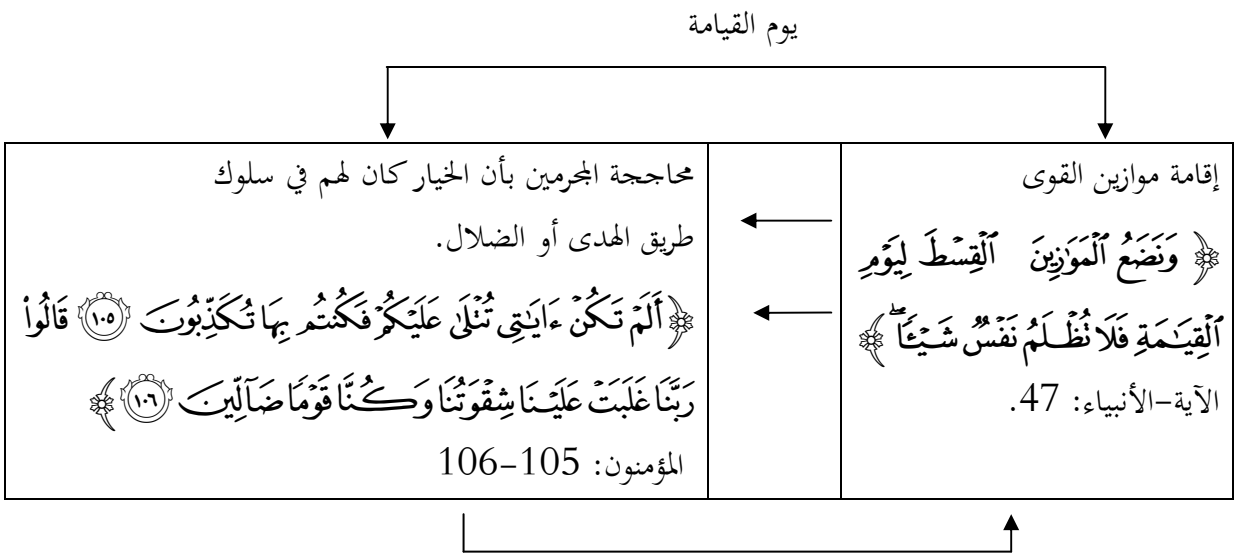

﴿ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾

الأنعام: 28

الفصل الثالث:

البعد القيمي للعدل

الفصل الثالث: البعد القيمي للعدل.

المبحث الأول: العدل بوصفه خلقا إنسانيا في القرآن.

المطلب الأول: العدل في القرآن.

المطلب الثاني: البعد الأخلاقي للعدل في القرآن.

المطلب الثالث: أثره الاجتماعي والاقتصادي.

المبحث الثاني: العدل بوصفه قيمة معرفية للنصوص القرآنية.

المطلب الأول: البعد القيمي للعدل (العدل مرجع معرفي).

المطلب الثاني: قيمة العدل في استنباط الأحكام وفي عملية الترجيح.

المطلب الثالث: قيمة العدل في البعد الهدائي للقرآن.

المبحث الأول: العدل بوصفه خلقا إنسانيا في القرآن.

المطلب الأول: العدل في القرآن.

المطلب الثاني: البعد الأخلاقي للعدل في القرآن.

المطلب الثالث: أثره الاجتماعي والاقتصادي.

الإسلام هو ختام الرسالات التي بعث الله بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلّم لهداية الناس وإصلاحهم، وأهمّ الأسس التي شرعها لهم لإقامة حياة كريمة طيبة هي العدل والقسط والحفاظ على الميزان. والقرآن الكريم كتاب الله فيه من الآيات الكثير عن الأمر بالعدل والنهي عن الظلم، فالعدل من أهم قيم القرآن، وإقامته تحافظ على الرقي والأمن في المجتمعات.

وينظر الإسلام إلى العدل نظرة شمولية تتجاوز نطاق العالم إلى الكون كله، ويرى أن الظلم المنصب على الإنسان لا يقتصر على حجب حاجاته الأساسية فحسب، بل يتجاوزها إلى مظالم أخرى أشد تعقيدا منها تقييد حريته وتعطيل مطامحه، فالمبادئ العادلة تستجيب لحاجات الناس جميعا وليس لإحداها فقط. ويذكر القرآن أن الإنسان سيد حر على الأرض مستخلف فيها لإعمارها، والكون من حوله مسخر له بما فيه من طاقات كي يحقّق الاستخلاف والإعمار.

لذلك يلتزم المسلمون بإقامة القيم التي تحقّق العدل كما جاءت في القرآن طاعة لله ولرسوله، ولا يبتغون من خلالها خدمة مصالحهم الشخصيّة فقط والتي تؤدّي في الغالب إلى اتباع الهوى والتملّص شيئا فشيئا من تحقيق العدل. قال سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الشورى: 15. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ النساء: 135.

والقواعد المتعارف عليها في العدل متقاربة إلى حدّ بعيد بين مختلف المجتمعات والأنظمة والبلدان، جعله الله سنّة من سننه؛ يقيم الدّولة حتّى وإن كانت كافرة، وإن غاب فلا قيام لها، والعبارة المشهورة" العدل قوام الملك" تشير إلى ذلك. والعدل لا معنى له في عالم الإنسان إن لم يحرص على إقامته بالقانون، لأنه إذ ذاك سيبقى مجرّد أقوال، فأهمّ ما يحافظ على العدل القائمون عليه، وإن تخلّف هؤلاء في مهامهم فالفوضى والفساد والضّلال ستجد طريقها إلى أدقّ الجزئيات في حياة الإنسان.

لذلك العدل يحتاج قوة القانون، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ الحديد: 25. وفي العصر الحديث يتطلّب تحقيقه والحفاظ عليه مراعاة ودراسة أحوال العصر، فالحديث عنه بدون مراعاتها قد يرقى لأن يكون لغوا يراد منه التّضليل والتّشتيت والتعطيل.

المبحث الأول: العدل بوصفه خلقا إنسانيا في القرآن

المطلب الأول: العدل في القرآن

1. مفهوم العدل:

لغة: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضادين: أحدهما يدل على استواء، والآخر يدل على اعوجاج.

– فالأول العدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة.

– والعدل: الحكم بالاستواء. ويقال للشيء يساوي الشيء: هو عدله. وعدلت بفلان فلانا، وهو يعادله. والمشرك يعدل بربه، تعالى عن قولهم علوا كبيرا، كأنه يسوي به غيره.

– والعدل: قيمة الشيء وفداؤه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ البقرة: 123، أي فدية. وكل ذلك من المعادلة، وهي المساواة.

– والعدل: نقيض الجور، تقول: عدل في رعيته. ويقال: عدلته حتى اعتدل، أي أقمته حتى استقام واستوى.

– فأما الأصل الآخر فيقال في الاعوجاج: عدل وانعدل، أي انعرج[1].

وعلى هذا تكون له دلالة مادية ودلالة معنوية، حسب السياق الذي يرد فيه. فهو بالمعنى المصدري المادي يدل على التوازن بين أمرين في الكم والكيف. وهو بالمعنى المعنوي يدل على تحقق التوازن في الحكم بين طرفين متقابلين، على أساس المماثلة بينهما في الاعتبار[2].

اصطلاحا:

العدل هو "الأمر المتوسّط بين طرفي الإفراط والتفريط"[3].الإفراط في تخويل ذي الحقّ حقّه، أي بإعطائه أكثر من حقّه، والتفريط في ذلك، أي بالإجحاف له من حقّه. وكلا الطرفين يسمّى جوراً، وكذلك الإفراط والتفريط في تنفيذ الإعطاء بتقديمه على وقته أو تأخيره.

---

[1]– انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 246/4-247. ولسان العرب: ابن منظور، 430/11. والتعريفات: الجرجاني، ص152.

[2]– منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام : محمد الكتاني ، بدون تاريخ، ص228. الكتاب مرفوع من الشبكة العنكبوتية.

[3]– التعريفات: الجرجاني، ص152.

والعدل"مساواة بين الناس أو بين أفراد أمّة في تعيين الأشياء لمستحقّها، وفي تمكين كلّ ذي حقّ من حقّه".

فهو مساواة في استحقاق الأشياء وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها وبدون تأخير. فالأوّل هو العدل في تعيين الحقوق، والثاني هو العدل في التنفيذ ، وليس العدل في توزيع الأشياء بين الناس سواء بدون استحقاق[1]. وهو لا يكون إلا بتطبيق قواعد مقررة أو أحكام مسبقة أو قيم محددة[2].

والعدل" تنفيذ حكم الله". أي أن يحكم الناس وفقا لما جاءت به الشرائع السماوية الحقة كما أوحى بها الله إلى أنبيائه ورسله. وإذا كانت الشريعة الإسلامية جماع هذه الشرائع وتكملة لها، فإن العمل بها هو إذن –كما قال كل علماء الإسلام– تحقيق للعدل الذي أمر الله به. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: 44. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الآية– المائدة: 45. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المائدة: 47[3].

التعريف المختار:

استنادا إلى المعنى اللغوي للعدل، وللمفاهيم الثلاث المذكورة فالتعريف المختار للعدل هو "الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور دينا"[4]. فالعدل يتطرّق إلى الحقوق والواجبات، وقد تستحدث آليات ووسائل تعين على إقامته، فيكون الاعتبار فيها لعدم مخالفتها شرع الله ودينه.

العدل "كنظام للكون قائم على التوازن والانسجام، وهو مرتبط بالحق بكل معانيه، وحينما يرتبط بالحق بمعناه المصلحي ينصرف إلى مراعاة تمكين المظلومين من حقوقهم وجعلهم يمارسونها بحكم ما تقتضيه الحياة الاجتماعية من توازن ومساواة بين الناس. وهذا هو جوهر العدل الاجتماعي القائم على دفع البغي أو رفع الظلم، وهو ما يطلب من أي سلطة قضائية لتمكين ذوي الحقوق من حقوقهم، طبقاً للأحكام الشرعية أو القوانين الوضعية. وإذا كان العدل مرتبطاً بمعنى الحق أشد الارتباط، وكان الحق له وجودان: وجود بمعناه المطلق ووجود بمعناه الوضعي، فإن وجوده المطلق يعني التوازن داخل نظام الكون، كما أراده الله حينما خلق الكون بالحق وأقامه

[1]– انظر التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، دار سحنون– تونس، 1997م، 5/94-95.

[2]– انظر منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام : محمد الكتاني، ص228.

[3]– النظريات السياسية الإسلامية: ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث– القاهرة، ط7، ص328.

[4]– التعريفات: الجرجاني، ص152.

على سنن لا تتغير، وأن الحق بمعناه الوضعي أو المصلحي، هو التوازن الذي تقوم عليه العلاقات الاجتماعية"[1].

2. مجالات العدل:

- العدل في الحكم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾النساء: 58. وهو نص مطلق شامل في الأمر بالعدل والحكم به، للمسلمين ولغير المسلمين، فالعدل هو أساس انتظام الحياة ويمس كلّ مجالاتها.

غالبا ما يعدّ هدف الدّولة الرئيس هو العدل وفق إرادة الحاكم. وقد تكون إرادة الحاكم عادلة أو لا تكون، تبعا لقوانين الدولة التي قد تتضمن بعض عناصر العدل الفقهية والأخلاقية والاجتماعية، أو تؤكد فقط مصلحة خاصة شخصية أو غير شخصية. ولذلك وجب على الحاكم أن يحدد حجم عناصر العدل التي يجب أن تتضمنها قوانين الدولة. ويمكن لها لأجل الحفاظ على بقائها أن تقدم بعض التنازلات لحساب بعض المصالح المكتسبة التي كثيرا ما تنتقص من العدل الاجتماعي والقانوني إلى حد أنها قد تعاقب معارضين أبرياء بحجة أنهم يخرقون القوانين[2].

- العدل لجميع المكلفين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ النحل: 90.

- العدل في معاملة غير المسلمين. قال سبحانه: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾الممتحنة: 8-9.

-العدل في الشهادة: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ الآية- الطلاق: 2.

---

[1]- انظر منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام : محمد الكتاني، ص233.

[2]- انظر مفهوم العدل في الإسلام: مجيد خدّوري، ترجمة دار الحصاد، دار الحصاد- سوريا، ط1-1998م، ص29-30.

-العدل في كتابة العهود والعقود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾البقرة: 282.

-العدل في العلاقات بين الدول الإسلامية: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الشورى: 15.

- العدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ الأنعام: 152.

- العدل عند البغض للغير. قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾المائدة: 8.

- العدل عند الإصلاح بين الخصوم. قال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ الحجرات: 9. وفي الآية الأمر بالعدل من خلال عدم تجاوز حدّ الإذن في الانتقام.

- العدل بين الزوجات. قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾النساء: 3.

3. أنواع العدل

يبسط العدل قيمته على جميع الأصعدة، ويتدخّل بالإصلاح وتحقيق الميزان في حياة الأفراد والمجتمعات والدّول من خلال مختلف مجالات الحياة لتحقيق المصالح ودفع المفاسد.

3-1-العدل السياسي:

هو مقوّم أساسي من مقومات الدولة، وسبيل الأمن والاستقرار. وقد جاء في الحديث النبوي أن أول السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة هو الإمام العادل. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "**سبعة يظلهم الله في ظله: الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة ربه...**"[1] الحديث. ويتّضح في أقوى صوره في حقّ المحكومين في مساءلة المسؤولين والرعاة، قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ ص: 26.

إن صلاح أي نظام واستقراره متعلّق بإقامة العدل، لذا كان أهمّ قيمة وتدبير مركزيّ يتطلّب العناية وتوفير الوسائل والآليات اللازمة والمناسبة له، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قد تختلف أساليبه من مجتمع لآخر، والذي يظهر بصور ومسميات أخرى عند غير المسلمين. ومن شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يبقي الوعي الجماعي لأفراد المجتمع متيقّظا لما يطرأ أو يقع من فساد وظلم، فلا يتقوقع كل فرد على نفسه مهملا غيره. عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ الآية- المائدة: 105. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**"[2].

لذا كان تحقّق العدل السياسي ييسّر تحقّق باقي الأنواع.

3-2-العدل الاجتماعي:

وهو يكفل لكل فرد العيش الكريم كما لباقي الأفراد، حيث يتعين أن يتحقق هذا العدل ليكون المجتمع بيئة مناسبة ووسطا آمنا للتعايش بين أفراده وبين مؤسساته. والعدل الاجتماعي يمنع أي مظاهر للظلم من استغلال

[1]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ح629.

[2]- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر برقم 2168، قال الألباني: صحيح.

وسرقة وإهمال...إلخ، ويحرص على أن يكون الجميع سواسية في توزيع الثروات والقيام على تأدية الواجبات ونيل الحقوق. ويتعاون أفراد المجتمع فيما بينهمبما يستطيعون لتحقيق هذا العدل، لأنهم إن تخلّفوا عن ذلك فسيعود الأثر السلبي للفرقة ولتضييع التعاون بينهم؛ سيعود عليهم بالأثر السلبي. قال ﷺ: "**مثل المُدْهِن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استَهَموا سفينة؛ فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به، فأخذ فأسا فجعل ينْقُرُ أسفل السفينة فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء. فإن أخذوا على يديه أنجَوْهُ ونجَّوْا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم**"[1].

3-3-العدل المالي:

ويتمّ بالحفاظ على المعاملات التي تحفظ حقوق الأفراد والمؤسسات وحتّى الدّول، وتجريم تلك التي تضادّ العدل وتكون ظالمة، وسيأتي في مطلب لاحق ذكره.

3-4-العدل الأخلاقي:

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه – أو قال لجاره – ما يحب لنفسه**"[2].ما يحمل الفرد في المجتمع ضمن مختلف المجالات السياسية والقضائية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية مراقبا نفسه حاملا لها على العدل طواعية ورغبة منه، فلا ينتظر أن يجبر على ذلك بالقانون ومراقبة الغير له. فالعدل في البيت والأسرة والتربية، والإحسان مع كل شيء وكل شخص دائما وفي كل ظرف في جميع ميادين الحياة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النحل: 90. قال تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: 135.

---

[1]- أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، برقم 2686 عن النعمان بن بشير.

[2]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، ح45.

4. عدل الله في القرآن:

تواطأت على حسن العدل الشرائع الإلـهية والفطر السوية والعقول الحكيمة، لأن به يقوم الحق وتستقيم الحياة فلا يطغى ظالم أو قوي على من دونه، ما يقيم الأمن والاستقرار في المجتمعات.

والإسلام قام على العدل ومحاربة الظلم، يقول سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ آل عمران: 140، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ الأعراف: 40-41، وأيضا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ الأنعام: 129.

وجاء في الحديث القدسي: "**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم...**"[1].

4-1-قيام الله بالقسط:

من صفات الله عزّ وجلّ العدل، ومن أسمائه المقسط. قال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ آل عمران: 18.

قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ " شهد"، فجاء قولهم: حكم وقضى، بين، وأعلم. فمعنى شهادة الله الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار. فالله إذا شهد أنه لا إلـه إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإلــه فلا يعبد، وأنه وحده الإلــه الذي يستحقّ العبادة، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه[2].

ولفظ القيام بالقسط مع الشهادة يتضمن قولا وعملا، فإذا شهد قائما بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة. وإذا اعتبر القسط في الإلـهيّة كان

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح2577.

[2]- انظر التفسير الكبير: ابن تيمية، دار الكتب العلمية- بيروت، 3/ 137- 140.

المعنى أن الإلـه وحده قائم بالقسط[1].

والله عادل، يعامل عباده بالعدل المطلق، فلا يظلم أحدا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾النساء: 40. وتبين الآية أيضا أنه يحسن إلى عباده فيعطي من عنده على سبيل التفضل عطاء عظيما سماه أجرا لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته[2].

4-2-أمر الله بالقسط

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ ﴾ الأعراف: 28-29.

ويقول تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ الكهف: 49، أي فلا يكتب عليه ما لم يعمل، أو يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم[3].

ومن الآيات التي تبيّن نفي الله الظلم عن نفسه قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾الآية- غافر: 31، إنما يهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فينفذ فيهم قدره[4].

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ ﴾الأعراف: 4-5. لقد أقروا وشهدوا على أنفسهم بالظلم، والمراد بقولهم كنا ظالمين أنهم ظلموا أنفسهم بالعناد وتكذيب الرسل، والإعراض عن الآيات، وصم الآذان عن الوعيد والوعظ، وذلك يجمعه

[1]- انظر التفسير الكبير: ابن تيمية، ص147.

[2]- انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، 544/1.

[3]- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، 679/2.

[4]- انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 143/7.

الإشراك بالله. فالله لم يظلمهم، وقد عاينوا العذاب بالصفة الموعود بها على ألسنة رسلهم[1].

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ الإسراء: 15. فيه إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ ﴾ الملك: 8-9. وكذا قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ الزمر: 71[2].

5. أوجه العدل في القرآن:

جاء ذكر العدل في القرآن بألفاظ عدّة تدلّ عليه، كلفظ القسط، وأيضا كالنّهي عن الظلم. فالموضوعات التي تناولته متعدّدة، وتشمل المعاني الآتية[3]:

- الفداء: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: 48. والفِدية هي ما يقدمه الإنسان جزاء عن تقصيره في عبادة كالحج أو الصيام، أو لاستنقاذ نفسه من عذاب أو أسر[4].

- القيمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ المائدة: 95. قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين، أو يصوم عن إطعام كل مسكين يوما[5].

---

[1]- انظر تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس، 1984م، 24/8.

[2]- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 52/5.

[3]- انظر قاموس القرآن: الحسين الدامغاني، دار العلم للملايين- لبنان، ط4-1983م، ص317.

[4]- انظر تفسير القرآن العظيم : ابن كثير، ص256. وتيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص839.

[5]- انظر المصدر نفسه، ص243.

- الواحدية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾النحل: 90. عن ابن عباس، قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقوله والإحسان: فإن الإحسان الذي أمر به تعالى ذكره مع العدل هو الصبر لله على طاعته فيما أمر ونهى، في الشدّة والرخاء ، والمكره والمنشط، وذلك هو أداء فرائضه[1].

- الشرك: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ الأنعام: 1. أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكا وعدلا واتخذوا له صاحبة وولدا، تعالى عن ذلك علوا كبيرا[2].

ومما يوضح معاني العدل الواردة في القرآن مدلول الظلم الذي هو نقيض العدل، إذ بضدها تتبين الأشياء. فالقرآن يعتبر من الظلم الإشراك بالله فالمشرك ظالم لأنه ينكر الوحدانية، والكافر ظالم لأنه ينكر النعمة، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ السجدة: 22، إلى غير ذلك من معاني الظلم الكثيرة في القرآن.

6. مرادفـات العدل:

مما جاء مرادفا للعدل في القرآن: القسط- الحق- السواء-الميزان- الإنصاف.

- القسط: " القاف والسين والطاء أصل صحيح يدل على معنيين متضادين والبناء واحد. فالقسط: العدل. ويقال منه أقسط يقسط. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾الآية- المائدة 42. والقسط بفتح القاف: الجور. والقسوط: العدول عن الحق. يقال قسط، إذا جار"[3].

- الحق: نقيض الباطل[4]، ويطلق على العدل[5] كقوله تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ الآية- ص: 22.

---

[1]- انظر جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري، 279/17.

[2]- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 239/3.

[3]-معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، 85/5-86.

[4]- لسان العرب: ابن منظور، 49/10.

[5]- انظر قاموس القرآن: الدامغاني، ص139.

- السواء: السوي هو العدل كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ طه: 135. وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ مريم: 43. يعني عدلا مهتديا[1].

- الميزان: ويعني العدل الذي به يتحقق التوازن في الخلق. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ الرحمٰن: 7-9.وضع الله الميزان أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل يدخل فيه الحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات ويقام بها العدل بينهم، ولو رجع الأمر إلى العقول والآراء لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض. فكانت إقامة الوزن بالقسط الذي تصل إليه المقدرة واجبا مع النهي عن ضده، وهو الجور والظلم والطغيان[2].

- الإنصاف: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ الأعراف: 159.أي يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم[3]. وفيها دلالة على ارتباط العدل بإحقاق الحق، وبتطبيق معايير وقيم تجسد الإنصاف بين المختلفين والمتنازعين.

إن المتدبّر للقرآن الباحث عن مقاصده والمتطلّع إلى قيمه يلاحظ أنّ الكثير من الأحكام والمسائل لا تقوم لها قائمة بلا عدل، وهو أمر بديهي، فالله جعل العدل قياما للنظام في الحياة الدّنيا، وبلا نظام الفوضى هي التي تسود.

والملاحظ بعد استقراء معاني العدل في القرآن الكريم، أننا نجده يستعمل العدل في معان ثلاثة رئيسة:

أولا: التسوية في المقادير والقيم، وبين الأشخاص في الاعتبار.

ثانيا: الإنصاف للمظلوم من ظالمه، ورفع الظلم عن المظلومين عند القضاء.

ثالثا: تحقق التوازن الكفيل بانتظام الكائنات وحياتها، فلا يطغى بعضها على بعض، وبهذا المعنى نفهم قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنعام: 115؛ "أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه"[4] في تدبير الكون بإجراء سننه على مبادئ التوازن والتكامل.

---

[1]- انظر قاموس القرآن: الدامغاني، ص254.

[2]- انظر تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص828.

[3]- انظر المصدر نفسه، ص305.

[4]- انظر المصدر نفسه، ص 270.

المطلب الثاني: البعد الأخلاقي للعدل في القرآن

الخلق هو الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها[1]. لذا فهو هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال؛ سواء الباطنية أو الخارجية التي تظهر في السلوك. والأخلاق في القرآن هي مبادئ وقيم تنظم حياة الإنسان وترشده إلى السبيل الأمثل لتحقيق الغاية من خلق الله تعالى له، فالأخلاق في الإسلام قواعد للعمل وليست مجرّد ترف عقليّ أو شعور وجداني.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ ﴾ النحل: 64، ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ ﴾ الأعراف: 52. هذه التعليلات لإنزال الكتب فيها ما فيها من البيان لقصد المولى في وضع تكاليف الشريعة؛ ألا وهو الاعتناء بمصالح العباد، وهي لا تقوم إلاّ بحفظ مقاصدها من الخلق، وهـته المقاصد والغايات أعلى مرتبة فيها هي تلك التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدّنيا. وأهمّ ما يكفل قيام هـته المصالح العدل كوسيلة وكغاية، فهو أصل عامّ تنضوي تحته تشريعات كليّة وجزئيّة ترتبط به، وممّا يدلّ على ذلك أنّ الله تعالى يقيم الدّولة الـعادلة وإن كافرة ولا يقيم الظالمة وإن مسلمة. قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ الشورى: 15.

إن العدل قيمة مركزية تحفظ مقاصد الناس في نفوسهم، نسلهم، عقولهم، أموالهم، ودينهم، وتتحقق بعد ذلك أهمّ نتائج إقامة العدل إذن الحريّة التي تتيح الإبداع والعمل على تحقيق الرفاهية الإنسانيّة. أمّا إن كان العدل غائبا حلّ محلّه الجور والفساد وتعطّلت تلك المصالح التي بها العبادة والعمارة ومن ثمّ الحضارة.

وليس العدل كما يريده المسيطرون أصحاب القوة والأمر في عالم الإنس. فيجب التربية على التفريق بين العدل الذي يأمر به رب العباد وبين العدل الذي يرسمه صاحبو السلطة الفعليّة، ومن أهم سبل التفريق بينهما أن العدل الإلهي مطلق يؤدّي إلى الرقي والسّلام، والآخر يشوبه الخطأ والنية الفاسدة وقد يؤدي إلى الجور والاستعباد!

[1]- انظر لسان العرب: ابن منظور، 85/10.

فالعدل الذي شرعه الله هو ميزان يضبط التعاملات بين الأفراد والجماعات، ومطلق لا يخضع للأهواء ولا يتغير، ويشكل ضوابط ومعايير لإقامة مجتمع العدل والإنصاف، وللابتعاد به عن الظلم والانحراف.

1. العدل والواحديّة:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾لقمان: 13.

لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ الأنعام: 82، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لا يظلم نفسه. فقال رسول الله ﷺ: "**ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: {يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}**"[1].

ووجه كونه عظيما، أنه لا أفظع وأبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئا بمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم ينعم بمثقال ذرة بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟![2]

إن الله بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى الكاملة لمن أعظم الظلم والضلال أن يُعبد غيره، أو يبدّل دينه الذي أمر بإقامته واتباعه؛ بغيره من هوى متبع أو شرع محرّف، فالله الخالق المدبّر هو الأعلم بما يصلح لعبيده الذين خلقهم. والواحديّة قيمة مركزيّة في القرآن تحرّر الإنسان من كل ما يقيّده ويستعبده فيعيش متوازنا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: 162، وتعني التسليم لله في الحكم والأمر والقدر والشرع، والحرص والسعي فيما أمرنا الله به وجعله قياما للدين، يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحديد: 25. تبين الآية أن القرآن يقيم بالعدل

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، ح124.

[2]- انظر تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص 648.

وحول العدل باقي القيم، فهو سور منيع يشدّها ويقوّيها، وقيمة مركزيّة ذات أبعاد تمدّ جذورها في مختلف فروع الدين كما أصوله، وكلياته كما جزئياته.

يقول سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾الأعراف: 180-182.يأمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى، وأما الذين يلحدون أي يشركون في أسمائه فالله سيجزيهم ظلمهم. وعن ابن عباس أن الإلحاد التكذيب، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف. وممن خلق الله أمة قائمة بالحقّ تقوله وتدعو إليه، وبه تعدل، أي تعمل وتقضي[1].قال رسول الله ﷺ: " **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**"[2].

2. شمول العدل:

أمرنا الله تعالى بالعدل مع جميع البشر؛ المسلم منهم والكافر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة: 8،فالذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، من أخلاقهم وصفاتهم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائهم وأعدائهم، وألا يجوروا في أحكامهم وأفعالهم فيجاوزوا ما حدد لهم في أعدائهم لعدواتهم لهم، ولا يقصّروا فيما حدد لهم من أحكامه وحدوده في أوليائهم لولايتهم لهم، وأما قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ فإنه تعالى يقول: ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة[3].

لقد كانت دعوة الأنبياء دائما تؤكد على مختلف أنواع العدل؛ الاجتماعي، الأخلاقي، الاقتصادي والسياسي، فبغيابه يطغى الظّلم الذي يرتبط بالكثير من المحن والمصائب التي تحلّ بالإنسان والأرض، قال تعالى:

[1]- انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 516/3.

[2]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق والحديث عن ثوبان، ح1920.

[3]- انظر الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، 95/10.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾الروم: 41.فالظلم أفظع ما قد يتعرّض له الإنسان لأنّه اعتداء على حريّته وكرامته، وكلّ الشّرور تنسب إليه، وبالمقابل فإنّ الخير ينسب إلى العدل وهو الذي يحقق للإنسان إنسانيته.

وهنا يتّضح الفرق بين التشريع الإلـهي والقانون الوضعي، فإن القوانين التي يضعها الناس بدافع الحاجة لاستعمالها، حتى مع افتراضها الالتزام بمبدأ العمل، قد تذهب إلى تحديد العقوبة بالإعدام على القاتل- على سبيل المثال- ولكنها لا تمس نفس العازم على ارتكاب الجريمة، أي أنها تخيفه من غير أن تصلحه، أما في شرع الله عزّ وجلّ فإن المرء هو قاضي نفسه مؤقتا على الأقل، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه، يمكنه أيضا أن يتقي الوقوع في الخطيئة التي يشعر بأنها كبيرة من الكبائر، فإن الصوت الذي يناجيه من داخل نفسه قد أنذره بادئ الأمر أنه يمحص له النصح قبل أن يقرعه باللوم[1].

من ثمّ فإنّ العدل كقيمة شاملة وخلق، ينظّم باقي الأخلاق حتّى لا تعدل عن الصّراط القويم، ويكفل تحقيق أبعاده كما جاءت في القرآن الكريم، ولكن بمراعاة المبادئ القرآنية التي تخصّ العدل والتي ذكرت سابقا من مثل تطبيقه على كل المكلفين بغير تمييز، والاهتمام بتطوير الآليات التي تيسّر إقامته...إلخ.

وحتّى مع الأمر بالعدل والنهي عن الظلم، جاءت الدّعوة والترغيب في الإحسان وليس مجرّد العدل. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ الشورى: 40-43. فمرتبة العدل جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص. ومرتبة الفضل العفو والإصلاح عن المسيء، مع جزاء الله أجرا عظيما وثوابا كثيرا. وشرط الله في العفو الإصلاح فيه ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

[1]- انظر الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام: مصطفى حلمي، بدون تاريخ، بدون طبعة، ص107، ونقلا عن مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو: بارتملي، ص18.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فتقع من الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم[1].

3. الوسطيّة والتوازن:

من أبعاد العدل الأخلاقية كذلك تربية الفرد على الاهتمام بالتوازن الذي أمرنا الله به، التوازن بين مختلف القوى وبين مختلف الحاجات والدوافع في هذه الحياة. يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ الآية- البقرة: 143. ووسطا أي عدولا[2]، والوسطية قائمة على العدل في معاملة هذا الإنسان، فهي تخاطبه بما يوافق تكوينه وفطرته.

"إنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

فالوسط في التصور والاعتقاد يجعلها لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها.

والوسط في الارتباطات والعلاقات يجعلها لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة؛ ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً لا هم له إلا ذاته، إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه. ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة. وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق"[3].

---

[1]- انظر تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص760.

[2]- انظر جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1-2000م، 144/3.

[3]-انظر في ظلال القرآن: سيد قطب، 131/1.

لقد ركز القرآن على معنى العدل الذي يحقق التوازن بين حقوق وواجبات الأفراد، والجماعات، وهو المعنى الذي نزلت الشرائع كلها لتحقيقه وقامت عليه السمٰوات والأرض. فيخضع الجميع لسلطة القانون بدون أي تمييز. وهذا ما يربي على كبح نزعة الظلم في النفس، وعلى تعلّم تحقيق الخير ونفع الغير بالأساليب المشروعة، والتعوّد بذا على الإنكار على كلّ ظالم ومستبدّ مهما كانت مكانته في المجتمع. فطبيعة نفس الإنسان الأمارة بالسوء وترصّد الشيطان به يحتّم التذكير الدّائم ويبيّن في وضوح الضّرورة القصوى لتطبيق العدل وإقامته كما جاء في القرآن، فالإنسان بين ضعف وقوة إيمان، وبين نداء واجب الصلاح ونداء الهوى.

إنه "لو لم تكن في وجود الإنسان نفس أمارة، ولو لم يكن خارج وجود الإنسان شيطان يلهم النفس الأمارة، وإذا لم تكن هناك من دعوة إلى الشر والفساد، ولو لم يكن هناك من إمكان لجنوح الإنسان إلى الشر والفساد، لما كان هناك حسن أيضا، لأن الحسن إنما يكون حسنا إذا كان الإنسان قادرا على فعل الحسن وقادرا في الوقت نفسه على فعل القبيح، وإنه يختار من بينهما فعل الحسن. وأما إذا كان الطريق إلى فعل القبيح مغلقا، وكان بدلا من قانون ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾الشمس: 8، مجرد فألهمها تقواها فقط، وكان لدى الإنسان ميل إلى التقوى مجردا عن الميل إلى الفجور، لن تكون التقوى تقوى حقيقية؛ لأن التقوى إنما تكون تقوى عندما تكون لدى الإنسان رغبة وميل إلى ممارسة الفجور، ومع ذلك يؤثر التقوى والعدالة.[...]فإن الصلاح إنما يكتسب الصلاح إذا كان هناك نفس أمارة، وكان هناك شيطان، وأمكن سلوك كلا الطريقين على السّواء: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ البلد: 10. ولكن الإنسان بحسن اختياره يسلك الصراط المستقيم[1].

وهذا ملحظ دقيق وتنبيه واجب استحضاره، فالامتحان الحقيقي هو عندما يوضع المرء أمام خيارات تتطلب منه سلوك أصوبها وخيرها، وهذه القاعدة تنطبق على العلاقات على مختلف الأصعدة، بين إنسان وإنسان، بين إنسان ومؤسسة، بين دولة ودولة حيث تتجلى مظاهر العدل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ المائدة: 8. ولذلك فإن أمة الإسلام هي الأمّة الوسط، وخير أمة أخرجت

[1]- العدل: محمد قدردانقراملكي، ترجمة حسن مطر الهاشمي، دار الكفيل، ط1-2016م، ص156-157 نقلا عن مجموعة آثار(الأعمال الكاملة): مرتضى المطهري،4/276-279.

للناس، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ آل عمران: 110-111. تشير الآية إلى أن الخيرية تبقى قائمة ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومما يندرج تحته نصرة المظلوم وإقامة العدل. ولكن واقع أمة المسلمين غير ذلك، فهي لم تنتصر حتى لنفسها من الظلم والعدوان الحال بها، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضا مضيّع، وبما أن القرآن نسب الخيرية لأمة المسلمين فواجبها أن تجتهد في تمثّله.

4. تضييع العدل:

إن إقامة العدل تعني انتفاء الظلم ودفعه والتصدّي له في مختلف ميادين الحياة، ولا يخفى ما لتضييع العدل من أبعاد خطيرة وتداعيات مدمّرة للمجتمعات. إذا ما اختل ميزان العدل في المجتمع فإن أول شيء يفقد هو السلم الاجتماعي لأن الفرد إذا لم ينصف ولم يعط حقوقه فهذا يعرضه للشعور بانعدام القيمة والمكانة في المجتمع، وقد يأخذ الأمر أبعادا خطيرة بإصرار الأفراد أو الجماعات على تحصيل الحقوق بأساليب من شأنها أن تنشر الفوضى وانعدام الأمن.

5. البعد الحضاري للعدل

إن الالتزام العملي بالعدالة من أهم العوامل المؤثرة في تكامل المجتمعات وازدهار الحضارات، وبالمقابل فالخروج عن جادة العدل والانحياز إلى الظلم والجور والاستبداد من أهم عوامل سقوط الأمم وانهيار الحضارات. ولقد جاء في القرآن وصف حال الأمم التي أقامت العدل واستقامت عليه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ المائدة: 66. وجعل عاقبتها الفلاح في المدى المنظور، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ النور: 55. هذا من وعوده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها،

ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين[1].

وأما مآل الأمم الظالمة فقد جاء في وصفه قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ يونس: 13-14. يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم. وإن اعتبر من بعدهم واتعظ بمن قبلهم واتبع آيات الله وصدق رسله، نجا في الدنيا والآخرة. وإن كان فعلهم كفعل الظالمين قبلهم، كان لهم نفس المصير[2].

والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره ، والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحد حقّ الإله الأعلى في أن يكون إلـها واحدا، وأن ينقل ذلك لغيره. تلك هي قمة الظلم؛ لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾الآية- لقمان: 13[3].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾العنكبوت: 40.

"تتحدّث الآية عن قوّة تلك الحضارات والمصير الذي أوصلها إليه بطشها وعدوانها وإفسادها في الأرض بغير الحقّ، إنّها الآيات التي تقصّ علينا آخر فصول معاندتهم وإصرارهم على التّكذيب بأنبيائهم، ومن ثمّ هلاكهم بالعقوبات والعذابات التي أصابتهم.

[1]- انظر تيسير الكريم الرحمـٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص573.

[2]- انظر المصدر نفسه، ص359.

[3]- انظر تفسير الشعراوي، ، ص11637.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبها وجرائمها، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم؛ فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال"[1]. كل خروج عن الطريق الذي رسمه الله لعباده فهو ظلم للنفس ابتداء، وللغير. وللزيادة في قوّة الاتّعاظ، ولمن لم يتأثّر ويلتفت لما جاء في القرآن فالله تعالى قد أرشدنا إلى طريق آخر وهو النّظر في الآثار التي بقيت من بعدهم، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ النمل: 69.

6. البعد الجمالي لقيمة العدل:

في مقابلة بين مفهومي العدل والظلم يقول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ النحل: 76. فالأول لا يقدر على شيء، لا قليل ولا كثير ويخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها، ولا يكون كفؤا وندا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه[2]. فجليّ وظاهر أن العدل في التزام صراط الله، والظلم في جحود ونكران قدرة الله وتدبيره.

والقرآن يدعو الموحدين لنبذ ميزان الطغيان وإقامة ميزان العدل الذي هو ميزان الخالق في خلقه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ الرحمٰن: 7-9. ويدعوهم إلى التفكر في خلق السماوات والأرض بالحق الملازم للعدل: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾الروم: 8. حينما يغيب التدبّر والتفكّر فيما خلقه الله بما يحمله التدبّر من

[1]- علي المحمد الصالحي: الضوء المنير على التفسير، مؤسسة النور- دخنة، بالتعاون مع مكتبة دار السلام- الرياض، بدون طبعة، 377/6.

[2]- تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص444.

معاني إعمال العقل: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ الذاريات: 20-21. وأيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت: 38؛ فإنّ العدل أيضا يتخلّف، وحتّى إن حضر على بعض المستويات؛ فما ينقذ المتفكّر والمتدبّر هو تفعيل جميع الملكات التي حباه الله بها. قال سبحانه: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ ﴾ البلد: 8-10. لأن من أبعاد غياب العدل أخلاقيا عدم التدبّر والتفكّر فيما خلقه الله، فمن يتدبّر في الميزان الذي يقيم الطبيعة ودقائق الأمور في النظام الذي يتعلّمه الإنسان في حياته سيتربّى عليه ويحرص على تمثّله، والأمر مشابه لمن يعيش في مجتمع أو دولة تطبّق قانونها حرصا على إقامة العدل، فينشأ مقدّرا لقيمته ولأبعاده الإيجابية والبناءة. ومما يعين على ذلك تربية الأفراد على تمثل العدل والاهتمام بتحقيقه، فحيثما يولي المسلم أو الإنسان وجهه يرى تجليات العدل في الطبيعة وفي نفسه، في مخلوقات الله من أصغرها إلى أكبرها.

وعلى مستوى آخر، المستوى المتعلّق بالحفاظ على الميزان والعدل في البيئة التي نحيا فيها، وفي سبل العيش؛ فالعدل فيه غائب عند غالبية البشر كما جاء في مطلب سابق، وهو سبب في افتقاد الحرص على هذا العدل حيث نشأوا في ثقافة تقدس الاستهلاك والإنتاج لأجل الاستهلاك.

على مستوى آخر نجد العدل الذي يخصّ العلاقات بين الدّول، وبخاصّة بين القوية والضعيفة، وغياب هذا المستوى أرسى قناعات ووعيا جمعيّا مغلوطا بشأن رعاية قيمة العدل في تلك العلاقات، فتحوّلت إلى قيمة الخضوع من الأضعف اتجاه الأقوى! وهي بعيدة كل البعد عن العدل في المشترك الإنساني.

ومن أبعاد العدل الأخلاقية في القرآن إقامته في الجانب الاجتماعي والاقتصادي، فهذان الجانبان مرتبطان بالقيم الاجتماعية والاقتصادية التي تحدد صيغ أداء فعاليات الحياة في أي مجتمع، وهي تولد التوازن الاجتماعي على مستوى النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي. والحديث عن أثر العدل هو حديث عن تحقيق آلياته وسبل تربية الأفراد على استشعار أبعاده الحقيقية الملموسة على أرض الواقع، لأن الحديث عن خلق ما أو قيمة بدون عيشها يفقدها معنى القيمة بما تحمله من معاني الإقامة والاستمرارية والخير.

المطلب الثالث: أثر العدل الاجتماعي والاقتصادي.

لا يمكن الفصل بحال بين الوضعية الاجتماعية والاقتصادية، فكل واحدة تؤثر في الأخرى إيجابا وتطويرا وتزكية ونماء، أو سلبا وتدهورا وإفسادا وإهدارا. وتحقيق العدل وإقامته واجب محتم لعيش كريم وحياة مطمئنة، وكلما تخلف في أحد مفاصل الحياة الاجتماعية والاقتصادية فقدت الجماعة أو المجتمع اللحمة والتعاون بنسب ما. والعدل بما يعنيه من إعطاء كل ذي حق حقه والحفاظ على التوازن فهو يلزم طواعية أو كراهية إقامة مظاهر التكافل الاجتماعي، فقد وضعت الشريعة لمصالح العباد في الدارين، وأمر الإنسان بالعدل والإحسان ومنه العدل الاجتماعي لأجل إصلاح الأمة بأفرادها ومؤسساتها، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص: 77.

إن إقامة العدل تربّي أفرادا متوازنين ومجتمعا متوازنا يلمس القيمة المتأتية من عمله واجتهاده، فلا يذهب سدى، ولا يسرق، ولا يبخس حقه. وهذا ما يساهم في تحقيق السواء والاعتدال والسكينة النفسية...إلخ. العدالة الاجتماعية تشجع على بذل المزيد من العطاء المثمر مع نيل رضا الله الذي يعد بالخيرات والعطاءات، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ النحل: 112. بينما غياب العدالة الاجتماعية من شأنه أن يجرّ مختلف الآفات الاجتماعيّة والاقتصادية من غشّ، سرقة، إفساد، كفران النعم، ظلم، عدوان، وأكل أموال الناس بالباطل.

1. التكافل الاجتماعي:

كذلك من آثار العدل البالغة الأهميّة إقامة تكافل اجتماعي شامل، فمهما يكن من تفاضل بين الناس في الرزق فإن مبدأ العدل الذي نادى به الإسلام يفرض على مجتمعه ألا يترك الضعفاء تدوسهم أقدام الأقوياء في سيرهم المتدافع الطموح، ويوجب عليه أن يأخذ بأيديهم ليقووا ويصلب عودهم ويكفوا أنفسهم بأنفسهم، فإن عجزوا فإن لهم في أموال القادرين حقا معلوما يحقق لهم تمام كفايتهم، بحيث يكفل لهم مستوى كريما من المعيشة يتوافر فيه الغذاء والكساء والمسكن والدواء. يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ المعارج: 24-25، ويقول تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ الآية- التوبة:

103، وهذا ما يعبر عنه في عصرنا باسم التضامن الاجتماعي أو التكافل الاجتماعي. كما أن هذا التكافل لا يقصد به مجرد إسعاف سريع يقضي به بعض الحاجات، بل المقصود منه كفالة مستوى للمعيشة لائق به وله صفة الديمومة، فمثلا هناك من الفقهاء من يرى وجوب إعطاء الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب لأمثاله بحيث تغنيه الزكاة غنى دائما لا يحتاج معه إلى الزكاة مرة أخرى، وبهذا تنقله من يد آخذة إلى يد معطية، وتحوله إلى قوى الإنتاج بعد أن كان في عداد المستهلكين[1].

والضمان الاجتماعي هو الضمان المعطى لكل مواطن ليكون قادرا في الأحوال جميعها على تأمين وسائل العيش له ولعائلته بصورة لائقة محترمة، فإعطاؤه اليوم ضمان له في المستقبل. وإن على الدولة مسؤولية ضمان إشباع أوسع ومستوى أرفع في الحياة لكل فرد في المجتمع على أساس الحق العام للجماعة في الاستفادة من الثروات[2].

إن فقه قيمة العدل وإقامته في الدّولة والمجتمع يظهر في مختلف مفاصل الاجتماع والاقتصاد من إنفاق، وإنتاج، وعمران، وحماية للبيئة وحفاظ على نعم الله وتحقيق للتكافل الاجتماعي.

2. الازدهار الاقتصادي:

– موضوع علم الاقتصاد: هو السلوك الاقتصادي للإنسان الذي يتجسد في علاقة الإنسان بالأموال، أو بالأحرى علاقة الإنسان بالإنسان من خلال الأموال، علاقته بالأموال من حيث إشباعها لحاجاته المختلفة. وكليات هذه العلاقة تنحصر في اكتساب الأموال وإنفاقها، وقد أرجع علماء الاقتصاد هذه الكليات إلى أربع شعب؛ الإنتاج والاستهلاك والتبادل والتوزيع[3].

والجانب الاقتصادي في حياة الإنسان قد احتل في القرآن موقعا كميا وكيفيا، فقد تكرر ذكر المصطلحات ذات الطابع الاقتصادي فيه، ومنها: المال، الملك، الرزق، الكسب، الإنفاق، الزكاة، الصدقات، الربا، التجارة، الزراعة، الضرب في الأرض، الميراث، العقود، المعادن، والصناعات... إلخ[4].

---

[1]– انظر دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة– مصر، ط1–1415هـ، ص380–383.

[2]–انظر بيان القرآن الكريم لأثر العدالة الاجتماعية والتوزيعية في إصلاح المجتمع: يحيى محمد علي– ساجدة صالح، مجلة مداد الآداب، الجامعة العراقية– كلية الآداب، عدد خاص بالمؤتمرات 2018–2019م، ص516–517.

[3]– انظر نظرات اقتصادية في القرآن الكريم: شوقي أحمد دنيا، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب– جدة، 1428هـ، ص12.

[4]– انظر المصدر نفسه، ص15.

يقول ابن خلدون: "ثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وإنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك و الحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح توزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين و ضروراتهم. فأهل مدين أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم و حاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال و بقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظاً من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب و الرزق أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم. ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته"[1].

ودعامة الحرية الاقتصادية تقوم على احترام الفطرة والكرامة الإنسانية وتضبطها وتكملها دعامة أخرى هي العدل، وهو أساس متين يدخل في تعاليم الإسلام كلها، العقائد والشرائع والأخلاق. ومما جاء به القرآن أن الله قد يبقي الدول والأمم مع الكفر ويؤجل حسابها للآخرة، ولكنه لا يبقيها مع الظلم والبغي في الأرض. وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود: 117. "والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساءوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولا يهلكهم الله بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد. وقد نزل عذاب الاستئصال على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لما حكى الله عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق"[2].

[1]- المقدمة: ابن خلدون، مطبعة الشرفية حضرة، ص403-404.

[2]- انظر مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية-لبنان، ط1-2000م، 61/18.

فصّل الله وأبان للإنسان ما له وما عليه في المعاملات المالية والجانب الاقتصادي، ولأن العدل هو قوام ذلك فقد حذّر القرآن من كل ما يخالفه، فنهى عن الاستكبار والمباهاة والالتهاء بالتكاثر؛ ما يحيل العملية الاقتصادية إلى عبثية. قال سبحانه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾الشعراء: 128-129. والعدل بما يعنيه من إحقاق الحق وإقامة دين الله فهو يعني إقامة اقتصاد بإنتاج مشروع ونافع، فلا يطلب إنتاج محرم أو خبيث.

ومن آثار العدل في الاقتصاد عدالة التوزيع التي تظهر في الإنتاج الأفضل من خلال تحفيز كل عامل وصاحب جهد وموهبة وإعطائه حقّه. وكذلك "توافر حدّ الكفاية لكل فرد لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ طه: 118-119. فحد الكفاية يعني مستوى أرقى في المعيشة وهو قابل للزيادة حسب اختلاف الزمان والمكان[1].

3. العدل في الإنفاق:

إن الإسراف وهو تجاوز الحد المناسب نهى عنه الله، وجاء نعت الكفار المتكبرين في القرآن بهذا الوصف، فهو يقود إلى العجب بالنفس والقوة، وألا أحد يكافئ المسرف فيما حصّله من نعم وخيرات، فيظن أن الفضل فيها له خالص، فلا يحقّ لأحد أن ينتفع به معه، والإسراف يقود إلى الوقوع في حالة الترف، وهو الإغراق في التنعم والتوسع في أسباب الرفاهية. والترف في القرآن أول سمات أهل النار الذين استحقوا سخط الله وعذابه الأليم: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الواقعة: 41-46. فالمترفون في نظر القرآن أعداء كل رسالة، وخصوم كل إصلاح وتقدّم، وأتباع كل قديم ولو كان ضلالا، إنهم يريدون أن يظلوا غارقين في النعمة والمتاع الأدنى. ومما يزيد بؤس البائسين ويضاعف ألم الحرمان على المحرومين في المجتمع، أن يروا الواجدين يسرفون في الاستمتاع بطيبات الحياة، وإذا استمر هذا الحال تأججت قلوب المحرومين حقدا وضغنا على المترفين المسرفين، وانقسم المجتمع إلى طبقات متناحرة متحاسدة[2]. في حين أن الشرع والعدل يوجبان الموازنة بين المصالح،

[1]-انظر بيان القرآن الكريم لأثر العدالة الاجتماعية والتوزيعية في إصلاح المجتمع: يحيى محمد علي- ساجدة صالح، مجلة مداد الآداب، الجامعة العراقية- كلية الآداب، عدد خاص بالمؤتمرات 2018-2019م، ص520.

[2]- انظر دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي: يوسف القرضاوي، ص224-225.

وتقديم ما يخدم الجمهور الأعظم من الناس على ما يخدم فئة محدودة.

إن الإنفاق الفردي والصدقة الاختيارية والتكافل الاجتماعي، وغيرها من فاعليات العطاء التي يمارسها المسلم إزاء إخوانه تمثل جزءا أساسيا من برنامج العدل الاجتماعي في القرآن، وتلعب دورا كبيرا في إحداث التوازن والانسجام والتعاون والترابط بين أفراد المجتمع المسلم وفئاته، لا سيما في الفترات التي تغيب فيها السلطة ويتأذّى الفقراء والمعدمون، فتمتد إليهم اليد التي لا تمن، ولكن تعطي وتواسي. ومع ذلك لا يعدو أن يكون هذا العطاء على أهميّته مساحة محدودة فحسب من المساحات الشاسعة لبرنامج العدل الاجتماعي الذي رسم القرآن والسنة خطوطه العريضة. فمثلا يرد الحضّ على إشباع الجائعين وسدّ حاجاتهم الأساسية كجزء أصيل من متطلّبات الإيمان، والتوقف عنه يخرج أصحابه من حظيرة الدّين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحاقّة: 33-36. وهذا الحضّ ما دام قد اقترن بالإيمان، لن يكون بكلمات تقال، إنما بالفعل الدائم والحركة المستمرّة، وبمجرّد ما تغدو ممارسة جانبيّة فهي تبتعد عن الحقّ والصّلاح[1].

4. المآل القيمي للعدل الاجتماعي والاقتصادي:

ثمّة آيات تصل إلى آفاق أبعد في أثر العدل الاجتماعيّ تطلب من المسلمين دولة وجماعة أن يقاتلوا لإنقاذ المستضعفين في الأرض، يقول سبحانه: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ النساء: 75. وهذه الآية التي يطرحها القرآن ليتحرّك المسلمون على المستوى الجماعيّ، تقابلها آية أخرى تدعوهم إلى أن يتحرّكوا على المستوى الفردي وأن يقتحموا العقبة، بكل ما يتضمنه فعل الاقتحام من قوة وعنف وإرادة: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ البلد: 11-16[2]. وأي مترف أو غني تستحيل حياته إلى تكديس للمال والناس

[1]- مقال في العدل الاجتماعي: عماد الدين خليل، 2006م، ص51-53.

[2]- انظر المصدر نفسه ص54-55.

محتاجون فله أن يتصور أن هذا الخطاب موجه إليه، وأنه غريب عن المجتمع الذي ينتمي إليه[1]. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ التوبة: 34-35.

ووقف سدا منيعا في وجه الفساد والمفسدين وسن التشريعات الرادعة لإيقاف المنحرفين عند حدّهم ومحاربة الخارجين على نظامه، وعلى أمن المجتمع وسلامه[2]. قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾المائدة: 33. وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾المائدة: 38.

إن بأمر القرآن بالإنفاق في سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾الآية-البقرة: 267. وأيضا في قوله سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ الأنعام: 141، وأداء الحق المترتّب على إنعام الله على العباد، وأمره بالزكاة وحثّه على التصدّق وفعل الخيرات؛ إنما يحث على الإنتاج والاجتهاد في الكسب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ الملك: 15. وقال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾الآية- هود: 61. كما رغّب في ذلك بالجزاءات المختلفة التي تنتظر أصحابه. فيتجلّى تحقيق العدل أيضا في صورة انتقال المال من الغني إلى الفقير، فلا يبقى الفقير فقيرا بالآليات التي جاءت لتحقيق العدل.

[1]- انظر مقال في العدل الاجتماعي: عماد الدين خليل، ص57.

[2]- موازين القرآن الكريم: عز الدين بليق، دار الفتح للطباعة والنشر- لبنان، ص300.

ولحفظ الحقوق ومنع العدوان لم يشرع الإسلام الحرية المطلقة من كل قيد، كالحرية التي توهمها قوم شعيب: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾هود: 87، بل هي مقيدة بما يجعل الجميع في مأمن من طغيان طباع الإنسان التي ذكرت في مطلب سابق من حبه الشّديد للخير والمال: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ العاديات: 8، وحرصه وشحّه: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾الآية- النساء: 128، إلى غير ذلك من الطبائع التي يحتاجها الناس في التدافع وعمارة الأرض، وكما خلقها الله في الإنسان شرع وأوجب ما يهذّبها ويحفظ من مغبات عدوانها في التعاملات بين الناس وسعيهم في مصالحهم.

ومن أثر العدل الاجتماعي والاقتصادي تحريم المعاملات الظالمة التي تحمل مفاسد لها أبعاد خطيرة في تدمير الصلات داخل المجتمع الواحد وأيضا بين البلدان، ومن أهمّها تحريم الربا والاحتكار: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: 130. ومن أسباب تحريمه تحصيل الفئة المرابية للزيادات في الأموال من غير تعب ولا مشقة، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع الناس والتضييق عليهم، وأيضا فيه محاباة للأغنياء على حساب الفقراء، وإهدار للجانب الإنساني في سبيل الكسب المادي، وفيه ما فيه من الإهدار لقيمة الرّحمة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة: 275. وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾البقرة: 278-279.

وأيضا تحريم الرشوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ المائدة: 42.﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ أي: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد[1].

[1]- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 117/3.

ومن الآثار عدالة التوزيع والتوسط في الإنفاق، فالله ينهى عن الإسراف في كل شيء، قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ الفرقان: 67. أي كان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار قواما معتدلا لا مجاوزة عن حد الله ولا تقصيرا عما فرضه الله، ولكن عدلا بين ذلك[1]. وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر، وألا يضيق أيضا ويقتر[2]. ويؤدي العدل في الإنفاق إلى عدم كنز الأموال بل إلى تشغيلها، وقد نهى الله عن ذلك بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾الآية- التوبة: 34. ويتسبب اكتناز النقود في تعطيل وظيفتها بحبسها وإخراجها من محيط التداول، ما يؤدي إلى كساد سلع المنتجين وتدني مستوى التشغيل[3]. وإضافة إلى تسبب هـته الفئة في التفاوت الطبقي في المجتمع بغير حقّ، فإنها ترى لنفسها الفضل على من دونها، تحتقرهم وتنعتهم بالأوصاف السيئة، فيصفونهم بالأراذل والأدنياء، وأنهم لضعفهم هم أول من يتبع الأنبياء. قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ الشعراء: 111، وقال سبحانه: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ هود: 27. وكان هؤلاء الملأ يرفضون ترك مناصبهم الاجتماعية وامتيازاتهم الماديّة فينكرون الوضع الجديد الذي يدعوهم الأنبياء إليه: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ هود: 87. لقد صار طغيان حبّ الدّنيا المرجع في حكمهم على غيرهم، وفي ميزانهم لدعوة الأنبياء عليهم السّلام. إن ظلمهم وعدلهم عن العدل جعل قيمهم وأحكامهم خاطئة فاستوجبوا لأنفسهم العقاب الإلـهي، مثلما حكى القرآن مصارع المستكبرين والظالمين، يقول تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ الأعراف: 96. وقال سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾النحل: 112. فالعدل يحقق قيمة السلوك الاقتصادي ورغد الحياة الاجتماعية.

---

[1]- جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري، 302/19.

[2]- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب- الرياض، 2003م، 72/13.

[3]- انظر بيان القرآن الكريم لأثر العدالة الاجتماعية والتوزيعية في إصلاح المجتمع: يحي محمد علي- ساجدة صالح، ص522.

5. العدل في تسخير الأرض للإنسان:

يقول عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾الجاثية: 12-13. جوانب التدبر هنا تعطينا رؤية شاملة عن علاقة الإنسان بما سخر الله تعالى له من موارد ونعم، خاصة وأن الآية جاءت في سياق خلق آدم عليه الصلاة والسلام، والإنسان عامة والمسلم خاصة مأمور بتحقيق العدل الذي يحفظ التوازن والسلامة في الانتفاع من خيرات الله، وبالمقابل فمن يفسد نظام العدل والتوازن فهو يعطّل ويؤذي النظام الذي خلق الله عليه الكون. وقد جاء في بعض من آيات القرآن جمع بين ذم الفساد والإشارة إلى أنعم الله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾الآية-البقرة: 60. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الآية- الأعراف: 85. والقيمة التي ترمز إليها الآيات هي المحافظة على نعم الله وحفظها من الفساد، وعدم الإفساد فيها.

والعدل بما يعنيه من توازن واعتدال يتطرّق إلى موضوع الاستهلاك بأكل الحلال الطيب ضمن آيات جاءت في سياق العمل بما جاء في كتاب الله، فالتغذية السليمة تساعد العقل في الحفاظ على توازنه وتعرفه على الفطرة السليمة. قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ البقرة: 168-170. وقال تعالى:﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ الأنعام: 30-31.

المبحث الثاني: العدل بوصفه قيمة معرفية للنصوص القرآنية.

المطلب الأول: البعد القيمي للعدل.

المطلب الثاني: قيمة العدل في استنباط الأحكام وفي عملية الترجيح.

المطلب الثالث: قيمة العدل في البعد الهدائي للقرآن.

المبحث الثاني: العدل بوصفه قيمة معرفية للنصوص القرآنية

المطلب الأول: البعد القيمي للعدل

1. العدل مرجع معرفي

العدل في القرآن بيّن والظلم أيضا، وقد جاءت النّصوص الكثيرة التي تزيل اللبس عن تصوّر العدل، وتحدّد مجالاته وتؤكّد وجوبه. ويدرك المسلم أنّ الخلل إنما هو في الجهة المسؤولة عن تطبيق العدل وإقامته. فالقرآن أولى عناية بالغة بالعدل، وأوجبه وجوبا مطلقا وأمر بتحقيقه في الأقوال والأفعال والشهادات والعلاقات والحكم...إلخ. وهو من أهم مبادئ الإسلام التي لا يدخل فيها الاستثناء ولا تخضع للضرورات، لذلك كان مرجعا معرفيّا يحتكم إليه ضمن المرجعيّة الدّينية. وكون العدل مرجعا معرفيا يعني التأسيس له من القرآن، وليس محاولة التأسيس له والتقليد من منظومة أخرى. على سبيل المثال يستنبط مفهوم الإنسان العادل من القرآن، وغير العادل من القرآن أيضا، حيث جاء نعت الأخير بالظالم والمجرم والمشرك بالله تعالى.

ومع أن العدل مرجع معرفيّ ففي تفصيلات وجزئيات النصوص والأحكام تظهر دائما مستجدّات وتحدّيات جديدة يجب الترجيح بينها. والتدليس والتشويش على الأحكام والترجيحات يتسبب فيه بنسبة كبيرة الافتقاد إلى الاحتكام إلى المرجعيّة الدّينية، وأيضا لمزاحمتها بمقدّمات ومسلّمات من مرجعيّات أخرى، فيقع الخلط والاختلاف المفضي إلى النّزاع أو المفضي إلى الضّلال والتيه. فـ "حضور المرجعيّة مركزيّ في بناء منظومة القيم ولا يتناقض مع طبيعة القيم الكونيّة كالعدل، لأنّ المرجعيّة تحدّد المفهوم، وفي نفس الوقت تعمل على ترسيخه في المجتمع"[1].

يرقى العدل لأن يكون سبيلا قويّا لتوحيد أمّة المسلمين والحفاظ على وسطيتها في الوقت الذي ساهمت الكثير من الأسباب في ضياع الوحدة التي أمر بها المولى تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾الآية- البقرة: 143. والوسط العدلُ، وذلك معنى الخيار، لأن

[1]- القيم الإسلاميّة في المنظومة التّربويّة- دراسة للقيم الإسلاميّة وآليّات تعزيزها: خالد الصّمدي، منشورات المنظّمة الإسلامية للتّربية والعلوم والثّقافة- إيسيسكو- 1429هـ، ص13-14.

الخيارَ من الناس عُدولهم[1]. وحتّى يحققوا الوسطية والخيريّة لا بدّ من إقامتهم العدل بالحكمة والميزان والقوّة. فأبعاد العدل القيمية تتبيّن في الواقع العملي كحفظ الأمن، النماء والازدهار والتزكية، والتسوية بين الناس في التمتع بالحقوق والقيام بالواجبات. وقبل هذا التحقّق لا بدّ أن يكون هناك تصور نظريّ للعدل يستند إلى أسس المرجعيّة، ويضع للأفراد تصوّرا واضحا للعدل الذي يُحكم به . "فإن لم يؤسس مفهوم العدل على أرضية من القيم والمرجعيات الثابتة، فسيكون عدالة عرضية تتحكم فيها المصالح النافذة، أو عدالة هشة يتفكك بناؤها كلما تطور مفهوم الناس عن الحقوق والواجبات. أما إذا اكتفي بشكلانية التطبيق العام للقانون من أجل تحقيق العدالة، فحينئذ يصبح العدل تابعاً لسلطة القانون، بدل أن يكون القانون تحت سلطان العدل.

وهنا تبرز فكرة العدل التي تحيل على مرجعيات وتصورات عديدة عن القيم الإنسانية، ومن ينظر في التراث الإسلامي سيجد مفهوم العدل ينبثق من هذه التعددية، بين مرجعية قرآنية شاملة وأخرى تشريعية خالصة، وبين فكر أخلاقي وكلامي متأثر بالأوضاع الاجتماعية السائدة بالنسبة لكل عصر[2]. ولكي لا يضيع ما كسبه الإنسان مما يدخل في المشترك الإنساني البنّاء يجب الاستعانة بوسائل ومعايير الفهم، و" أهم معيار يمكن الاعتماد عليه في اختيار المنهج الملائم والأنسب للفهم هو ألا يتصادم مع النص أو العقل أو الواقع. ثم تأتي بعد ذلك عدة معايير:

1. معيار ارتباط الفهم بالنص والواقع أحيانا، حيث يؤخذ بنظر الاعتبار اللفظ والسياق والتعددية التي فيها يكامل النص بعضه البعض الآخر، وكذا الواقع الذي يتفاعل معه فعلا وانفعالا.

2. معيار الوجدان الفطري للإنسان، معيار البساطة والاقتصاد، معيار المنطق؛ فكلما استطاع النسق أن يحقق أعظم قدر من القرائن الاستقرائية المستمدة من ظواهر الخطاب كانت له القدرة على أن يكون أكثر فاعلية في القرب من الموافقة والقبول"[3].

3. كذلك دراسة التصورات والأفكار باعتبار بيئتها وظروفها التي نشأت فيها.

ولهذه المعايير والاعتبارات "يغلب أن يأتي النقص عند تطبيق الحق لا من نسبية هذا الحق ولكن من نسبية فهمه، ويتوقف ذلك على مستوى الثقافة والفكر وغلبة الضعف البشري. وهذه كلها مما لا يكون للعدل أو الحق

[1]- الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، 142/3.

[2]- انظر منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام : محمد الكتاني، ص234-236.

[3]- أثر الواقع الاجتماعي في تفسير القرآن في العصر الحديث: الجمعي شبايكي، ص185-186.

مسئولية عنها لأنها الطبيعة البشرية، ولأن إغواء الشيطان للإنسان يأخذ كما يذكر لنا القرآن فنونا وصنوفا. ومع هذا فإن الإسلام قد وضع المبادئ والضوابط وحدد التصرّفات في حالات عديدة بعينها تضيق من مجال النسبية وتدفع الضعف"[1].

2. أثر القيمة المعرفية في توجيه العدل:

تحتّم القيمة المعرفيّة لمواضع العدل في القرآن وجوب أن ينطلق لا من التركيز على المجتمع العادل وصور العدل الواجب تحقّقها في مختلف ميادين الحياة فحسب، بل على المقارنات القائمة على الواقع لرصد تقهقر أو فعاليّة العدل كما تحفل بذلك على سبيل المثال قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فلا بدّ من تفعيل واستحداث الطرق المناسبة والحكيمة لإنزال الظلم وإعلاء العدل، وهدي القرآن إنما جاء بهذه القيم المعرفيّة التي تثمر الفعاليّة، وشريعة الإسلام جاءت لما فيه مصالح الأفراد ومصالح الأمة، والمصالح في الدنيا بطبيعتها معقولة المعنى يدركها ويعقلها الإنسان بالفهم والترجيح والموازنة. والعدل قيمة جبل الله الناس على محبتها، ولكن مع هذا فالظلم وحبّ النّفس صفات تقف بقوة في وجه إقامة العدل، ولهذا تصبح الوسائل والآليات التي تعتمد للحفاظ على العدل ذات أهميّة بالغة، وهي متعلّقة بمدى حضور القيم الأخلاقية عند الأفراد، ومتعلّقة بدرجة أكبر بسلطة القوّة.

إن العدل كقيمة معرفية نظام ثابت من حيث المبدأ شامل من حيث القضايا والمسائل، عام لكل الأفراد، تتخطّى قيمته الخيريّة للمسلمين إلى غيرهم حتى مع أعدائهم بضوابط معلومة. قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ المائدة: 8.

وأما العالم فينظر مدفوعا بغريزة الإنسان إلى تمثّل واستبطان قيم الأقوى والمهيمن – وتمثّلها العلمانية التي أنشأتها الحضارة الغربيّة– سواء أكان ذلك بصورة كامنة خفيّة أم ظاهرة معلنة، لذلك ينبغي الاهتمام بتقييم آثار عصر العلمانية انطلاقا من الواقع الحياتيّ، واستحضاره وأخذه بعين الاعتبار عند المقاربة بين القرآن والواقع، أي عند الترجمة وقراءة المعرفة وإنتاجها من النص القرآني. فمع مرور الزمن تتثبّت وتترسّخ الأفكار المحدثة حتى تكاد تفقد تلك الأصيلة معناها، ويعتاد كلّ جيل ما كان غريبا ومريبا في الذي سبقه بسبب التقليد واتباع الهوى،

[1]– نظرية العدل في الفكر الأروبي والفكر الإسلامي: جمال البنا، دار الفكر الإسلامي– مصر، ص100.

فينتقص من قيمة مختلف القيم المعرفيّة حسب الثقافة السائدة ومختلف الظروف المتداخلة مع مكونات الحضارة. ويلزم لذلك حمل الناس باستمرار على تعلّم الدّين وتوعيتهم لأجل تفعيل تدبّرهم بخصوص الوقائع المتجدّدة، حيث لا يخفى وجوب مراجعة المسائل والقضايا المستجدّة بما يحفظ الدّين وقيمه ومقاصده من الضياع والتّحريف والتّبديل. و"اعتبار الواقع كعامل إبستيمولوجي مهم في قراءة المعرفة وإنتاجها من النص القرآني، هو إجراء تفرضه حتمية التطابق بين النص والواقع بما يحفظ للنص القرآني بقاءه ويصونه من التشويه ويحميه من التناقض"[1].

بيّن علماء الاجتماع أنّ المعرفة تتخذ مسارها بحسب الوضع الاجتماعيّ للعارف، فالطّبقات المختلفة تكوّن لنفسها أنواعا مختلفة من المعرفة. وعلى الرّغم من أنّه قد تكون هناك طرق لتحديد صدق جزئيّة معيّنة من المعرفة أو خطئها؛ فإنّ الشّيء الذي ينبغي الاعتراف به هو أنّها معرفة من أجل طبقة معيّنة في ظرف تاريخيّ محدّد. مثال ذلك أنّ تراث البحث العلميّ الغربي الحديث برمّته في اهتمامه بالفصل بين الملاحظ والشيء الملاحظ، وفي اتّجاهه إلى التفتيت والتّخصيص وتأكيده على رؤية الأشياء في شكل كمّي، إنما يعكس احتياجات طبقة ناشئة تنادي بالتفرّد، وكلّ توجّهها نحو السّوق[2]. ولهذا كان الخطر الذي تتعرّض له الأمم المستوردة أو التّابعة خطر مقصور عليها دون غيرها، فهي حين تقوم باستيراد قيم وميتافيزيقا غريبة عنها – وإن كان باسم العلم- إذا بها تتخلّى عن قيمها وميتافيزيقاها الخاصّة لحساب قيم وميتافيزيقا أمم أخرى. وإذا قبلنا مقدّمات الرّؤية التي تعتبر الإنسان في الأساس إنسانا اقتصاديّا تستبعد عنه الحدّ الأدنى من الشّعور بالأمن والاستقرار، ومن العلاقات الاجتماعية، ومن الاتصال بالطّبيعة، ومن الثّبات في القيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة السّائدة (فهي جميعا غير قابلة للقياس)، فإنّ ذلك سيفضي إلى قبول مقولاته الاقتصاديّة والسياسيّة، وستبدو حينها محايدة وبريئة حين يتمّ عزلها عن أساسها الميتافيزيقي؛ أي المعرفي، أي الذي يتناول القضايا النّهائيّة والكليّة الخاصّة بالإنسان[3].

إنّ المدركات القبلية المستقرة في ذهن المفسر والباحث، "وتتمثل عادة بمجموعة المبادئ والقيم التي تتصل بالفطرة والتي تأتي من النظم والظروف الاجتماعية، وأيضا الأدوات التي يستخدمها والعمليات العقلية والشعورية وملكات الحدس والخيال والإرادة التي يمارسها، والعنصر الثالث هو الحقائق الموضوعية المرتبطة بالواقع؛ أي

[1]- أثر الواقع الاجتماعي في تفسير القرآن في العصر الحديث: الجمعي شبايكي، من المقدمة، ص ن.

[2]- انظر الغرب والعالم: كافين رايلي- محمد المسيري، ترجمة هدى حجازي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، 1986م، ص368.

[3]- ينظر العلمانيّة الجزئية والعلمانيّة الشاملة: عبد الوهاب المسيري، 1/112-113.

خصائصه الكمية والكيفية، وعلاقاته بما حوله. يتم التفاعل بينها في العقل الإنساني الذي يقوم بتنظيمها ضمن ما يسمى بالخبرة الإنسانية، وهذه الخبرة هي المضمون الذي يستخدمه الوعي لفهم الواقع الطبيعي والاجتماعي، وإدراك موضوعاته وظواهره، وتفسيرها وبيان دلالاتها وإمكانات توظيفها في الفهم والسلوك[1]. فالعقل لا يدرك الواقع مباشرة وإنما يدركه من خلال نموذج معرفي محمل بالأشواق والأوهام والأهواء والذكريات والأساطير والمصالح. ولذا فهو يستبعد بعض التفاصيل ويبقي بعضها الآخر، ويضخم بعض ما يتبقّى، ويمنحه مركزية، ويهمش الباقي[2]. وحيث أنّ الإنسان يؤسس ردود فعله المستقبيلة للأحداث المتشابهة طبقا لخبرته السابقة في التعامل معها، فهذا التعلم يتطلّب مشاعر والتي بدورها تطوّرت كرد فعل مصاحب عندما أضاف العقل العملة وهي القيمة التي يقيم بها الاحتياجات الأساسية أثناء معالجته للخيارات المختلفة لاتّخاذ قرار، وباكتشاف هذا الواقع يمكن تجاوزه والتعامل معه، ومن دون اكتشافه يبقى الفرد المسلم مستندا ومعتمدا في قيمه واختياراته في الحياة للتي تربّى عليها أنّها الصواب والأصحّ. وبعد أن كانت للمجتمعات " خصوصيات ثقافية أو دينية مقدسة؛ أصبحت تخلي موقعها أمام الشرعيّة الدوليّة بوصفها مرجعيّة لا سبيل إلى تجاوزها. وأصبحت هذه الشرعيّة مبررا للنخب العلمانية والليبرالية الحاكمة في بلدانها للتخلي عن القيم الإسلاميّة"[3].

إن كل هذه المناظير التي ذكرت تتدخّل في مفهوم وتشكيل القيمة المعرفيّة للعدل في القرآن، وتؤثّر في المفسّر والمتدبّر لكتاب الله، حيث غلبة هذه الشرعيّة من جهة، وغزو مظاهر العلمنة حياة الإنسان المسلم من جهة، وتراجع خطاب الدّين والقرآن تراجعا رهيبا في حياة المسلم، كلّ هذا أفسد فطرته وكتم على موروثاته حول الدّور المهمّ للدّين في حياته وضرورته. ولكي يواجه هذه القيم الطارئة التي أضحت مترسّخة يحتاج أن يكون بها على بينة وعلى قدر من المعرفة، وأن يفقه مقاصد القرآن وقيمه ضمن منظومته الكلية الشاملة.

[1]- انظر إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر: ص188.تحرير حسن مكاوي وآخران، ص188. عن منهجية التكامل المعرفي- مقدمات في المنهجية الإسلامية: حسن ملكاوي، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2011م، ص120.

[2]- العالم من منظور غربي: عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، 2001، ص48.

[3]- انظر التأصيل الإسلامي لمفهوم القيم: فتحي ملكاوي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد54، خريف 1429هـ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص15.

من المفكرين البارزين الذي تناولوا العدل في مصنفاتهم الفيلسوف أحمد ابن محمد مسكويه[1] الذي عمق مفهوم العدل بصورة متميزة في كتابه تهذيب الأخلاق، وفي رسالته عن ماهية العدل. فلقد صنف العدل في ثلاثة أصناف، وهي العدل الإلهي، والعدل الطبيعي، والعدل الاجتماعي الذي سماه العدل العرفي، وهذا الأخير يقوم على أساس التوسط بين طرفي الجور والإنصاف. وهو في كتابه تهذيب الأخلاق لا يضع العدل في أعلى مراتب الفضائل وحسب، ولكن يحدّد فاعليته داخل منظومة القيم الإنسانية كلها، من حيث هو وحدة قادرة على ضبط التوازن بينها جميعاً، فكأنه ميزان ضامن لجعل كل فضيلة أو قيمة أخلاقية لا تنقص ولا تزيد عما يراد منها داخل السلوك الإنساني. ويعطي مسكويه للعدل مفهوم الوحدة الذي يعكس النظرة الشمولية للعدل داخل النظام الكوني، فإذا كان الكون قائماً على الكثرة اللامتناهية من الظواهر والأشياء والكائنات، فإن لهذه الكثرة قانوناً يجعل منها منظومة لا تتصادم مكوناتها، ولا تتناقض ولا تتصارع طالما هي منضبطة مع ذلك القانون الأسمى. فإذا نظرنا إلى الحياة الإنسانية، متمثلة في سلوك فرد من الأفراد، وجدنا أن العدل هو ذلك القانون الأسمى المباشر الذي يحقق التوازن في حياة الفرد أو في حياة المجتمع. وهنا يتمثل العدل في نظر مسكويه في ضبط العلاقات بين الأفراد، فيتمثل في قسم الأموال أخذا وعطاء، وفي إدارة الشأن العام والتعامل مع الغير، بيعا وشراء، إنتاجا واستهلاكا، تعاونا وتجاذبا للمصالح، وفي رفع الظلم الذي يقع على الآحاد، من جور البعض على البعض، وذلك برد التوازن إلى نصابه[2].

وينبغي التفريق في سياق الحديث عن العدل في التراث الإسلامي بين نتاج الفكر الكلامي والفلسفي الأخلاقي، وبين نتاج الفكر التشريعي أو الفقهي في التراث الإسلامي، ذلك أن مفهوم العدل في هذا الأخير لم يكن مذكوراً إلا نادراً في إطار تحقيق مقاصد الشرع العليا، ولكنه كان حاضرا كفعل إجرائي تجسده الأحكام الشرعية، وتتغياه الاجتهادات والاستنباطات للأحكام التفريعية في نطاق ما حدده الإسلام من حقوق وواجبات ومسؤوليات فردية وجماعية. أي أن الفقهاء المسلمين، وإن لم ينشغلوا بمفهوم العدل، فإنهم لم يقصروا في إبراز أن مقاصد الشريعة من خلال أحكامها الكلية تساير الحياة في جميع مستوياتها، وتضع آليات التنمية لتحقيق العدل على أرض الواقع. وهذا ما تناولته بالتفصيل مدونات الفقه الإسلامي في أبوابها المتعددة، كفقه العبادات، وفقه

[1]- أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه: توفي عام 421 هـ ، مؤرخ بحاث، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والانشاء. من مؤلفاته "تجارب الأمم وتعاقب الهمم"، و"تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق". انظر الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين- بيروت، ط5-1980، 1/211-212.

[2]- انظر منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام : محمد الكتاني، ص241-243.

المعاملات، وفقه الأسرة والأحوال الشخصية، وفقه الحدود والقصاص والديات، وفقه السياسة الشرعية، وفقه العلاقات الدولية، وفقه المساطر القضائية. وكل هذه الأبواب قائمة في أحكامها على توخي العدل والإنصاف بين الأفراد والجماعات، وحفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات، مما هو معروف لدى المتخصصين"[1].

المطلب الثاني: قيمة العدل في استنباط الأحكام وفي عمليّة التّرجيح

إذا ما كان الواقع المعيش للمجتمع أو الأمّة لا يفي باحتياجات الأفراد ولا يحقّق لهم العيش الكريم فالمنطق يدلّ على أن ثمّة اختلالا في التّوازن وهدرا للطّاقات أو كبحا لها، ومن أهمّ المظاهر التي تترجمه عدم إقامة العدل، لأنّ تحقّق التوازن والخيريّة مؤشّر على سيادة العدل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الآية- الحديد: 25. يتّخذ العدل كأصل وقيمة يحتكم ويرجع إليها في استنباط الأحكام وفهمها، وفي عمليّة التّرجيح بينها انطلاقا من واجب تحقيق العدل وإقامته مع استحضار مركزيّته بين القيم والمأمورات في القرآن. ويقول تعالى في آيات تبيّن مركزيّة العدل في هذه العمليّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ النساء: 58.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل: 90.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات: 9.

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة: 8.

[1]- منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام : محمد الكتاني، ص243-244.

يسهم العدل بما يحمله من معاني كقيمة مستمرة ومثمرة باستمرار، يسهم في تخليق وصياغة الوسائل والآليات التي تحفظ الإنسان وطاقاته وتنمّي قدراته، وتمدّ فطرته بالمغذيات القيمية الملائمة، كما وتراعي تطوّر مسيرته الحضاريّة وارتقاء تاريخه الفكريّ. ويعني العدل التحرّر من التسليم بأحكام جامدة لم تراع مقاصد ومتطلبات الفرد، أو تولدت من الأوضاع القائمة وتلك المتصفة بالجمود. وفي إطار استنباط الأحكام وفهمها يجب مراعاة التساؤلات التأسيسية والاهتمام بها ، وهي تلك التي تضع الفرد على بينة بخصوص حقوقه وواجباته. كما وتوضح الآليات والإمكانيات التي تتوفر عليها الفئة المطبقة للعدل، والأهداف المعلنة والخفية التي ترصدها الجهة المسئولة عن تحقيق العدل وإقامته. فلا يمكن بحال الحديث عن قيمة العدل في استنباط الأحكام وفهمها دون دراسة الجهة المسئولة عنه، لأنّها هي التي توجّهه الوجهة المنحرفة أو العدل، فتكيّفه على حسب مصالحها وتوجّهاتها القيميّة.

نظريا يكفل العدل إقامة مجتمع متوازن يحيى حياة طيبة مطمئنة، وهذا ما يشهد به تاريخ الأمّة الإسلاميّة، لكن بدأ تراجعه عمليّا مع طغيان النظرة الجزئية عند التشريع والتي تسببت فيها عوامل خارجة عن إطار النص، منها تكريس سلطة الفرد وغياب الرؤية الشمولية التي تنظر إلى النص والإنسان بزواياه المختلفة، مع أن القرآن يربط تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسّس عليها والتي تخاطب الفرد ومجموع المسلمين، ويحثّ على إعمال العقل والتفكّر في كلام الله، ومراعاة النظرة الشمولية عند استنباط الأحكام.وقد سلك في تشريعه للأحكام وإثباته للمقاصد مسلكا متكاملا محكما، مثلا الإسلام مبني على مبادئ يستحيل التشكيك فيها كالعدل والرّحمة، وإذا كان هناك شيء من ذلك فإنه يعود إلى جهله وسوء تطبيقه.

1. قيمة العدل في استنباط الأحكام:

تتميّز الشّريعة الإسلامية بمرونتها العالية في استيعاب الحوادث الطارئة والجديدة في كل زمان ومكان بما لها من أصول وقواعد كليّة، ويتمّ استنباط الأحكام وفق الخطوات المنهجية الآتية:

أ- النظر في طبيعة المسألة وتصورها تصورا صحيحا[1](فقه الشرع)، فالاجتهاد الشرعي في المسألة لا يكون إلا بعد تصوّرها والإحاطة بها من جميع الجوانب، ومعرفة جميع أبعادها وظروفها، وذلك يقتضي العلم بالأحكام الشرعية ومقاصد الشارع في تشريعها.

[1]- والمقصود بالتصور حصول صورة الشيء في العقل وإدراك الماهية من غير الحكم عليها. انظر التعريفات: الجرجاني، ص61.

ب- مراعاة المبادئ الكليّة للقرآن والشريعة الإسلامية التي تحفظ المصالح العليا وقيم ومقاصد الدّين، فلا ينظر بمنظار الرؤية الجزئيّة فقط، بل الكليّة الشاملة، لأجل الاقتراب من تحقيق أعلى مراتب المصلحة.

ج- فهم واقع النازلة،حيث يتم البحث في تحديات ومشاكل ومستجدّات الواقع المعيش لأجل مقاربة مقاصد الشارع وتفعيلها، أي تنزيل العلم على الوقائع والمسائل المستجدّة.

ويتقرر هذا المعنى في كلام ابن القيم: "فهٰهنا نوعان من الفقه لابد للحاكم منهما:

فقه في أحكام الحوادث الكلية. وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس يميز به بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطى الواقع حكمه من الواجب ولا يجعل الواجب مخالفا للواقع.[...]ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها وأن من أحاط علما بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة[1]. وإذا "ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالة وأبين أمارة فلا يجعله منها ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له"[2].

ج- تحقيق مناط الحكم[3] في القضية العينية، وذلك بالتحقق من كون الوقائع بظروفها وملابساتها تستحق الحكم الأصلي، أو تقتضي العدول عنه إلى ما هو أليق بها وفق قواعد الشرع.

د- مراعاة مآلات الأفعال،"فمهمة المجتهد لا تنحصر في إصدار الحكم، بل يجب عليه أن تتعدّى ذلك ليتمحور الفعل مع مآلاته، لأن الأحكام بمقاصدها، وقد سماه الشاطبي تحقيق المناط الخاصّ"[4]، وأشار إليه في قوله: " النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم

[1]- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزرعي، تحقيق محمد غازي، مطبعة المدني- القاهرة، ص5.

[2]- المصدر نفسه، ص 19.

[3]- وهو تطبيق المعنى الكلي على جزئياته، سواء كان هذا المعنى قاعدة شرعيّة أو أصلا لفظيا عاما أو مطلقا، فضلا عن كونه علّة نصّ جزئيّ. انظر تحقيق المناط وأثره في اختلاف الفقهاء: عصام صبحي صالح شرير، رسالة ماجستير- تخصص أصول الفقه، الجامعة الإسلامية – غزة، 2009م، ص26.

[4]- فقه الموازنات بين النظرية والتطبيق: ناجي إبراهيم السويد، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1-2002م، ص125-126.

على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم مشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية وهو مجال للمجتهد صعب المورد"[1].

فالأمر يستلزم منهجا تحقيقيا في مآل تطبيق الحكم على الوقائع والجزئيات، فإذا كان هناك تعارض متوقع بين مصلحة الأصل ومفسدة المآل، فيستثنى من عموم الحكم المراد تطبيقه والحكم عليها بحكم يتحاشى المآل الفاسد[2].

2. قيمة العدل في الترجيح:

بعد الاحتكام إلى هذه المراحل تأتي مرحلة الترجيح والموازنة، ومن خلالها تتم المقاربة والتسديد، وبذل الاستطاعة للتوفيق بين تطبيق الأحكام ومستلزمات الواقع على أساس الموازنة بين المصالح بعضها وبعض، وبين المفاسد بعضها وبعض، من حيث حجمها وسعتها، وعمقها وتأثيرها، وبقاؤها ودوامها، وكذا الترجيح بين المصالح والمفاسد إذا تعارضت، بحيث نعرف متى نقدم درء المفسدة على جلب المصلحة، ومتى تغتفر المفسدة من أجل المصلحة[3].

والفقهاء وإن اتفقوا في الجملة على قواعد الترجيح بين المصالح والمفاسد إلا أنهم قد يختلفون في تقديرها، وعليه يختلف الحكم بالشرعية من عدمها نتيجة الاختلاف في تقدير المصالح والمفاسد وترجيح الغالب منها.

ليس من السهل واليسير إصدار الأحكام بشأن القضايا المختلفة، فإضافة إلى مصادر التشريع الأساسية، هناك أدوات أخرى بمثابة المحرّك الدقيق والمرتقى الصعب عند النظر في الأحكام والمقاصد والقيم، والترجيح بين مختلف الجزئيات، هذا مع مراعاة الأسس العامة للاستنباط والفهم مثل النظر الكلي في المصالح العليا والكبرى، فلا يفضي مثلا تحصيل المصلحة الجزئية إلى تفويت مصلحة عظمى. وتظهر أهمية قيمة العدل في عملية الترجيح عند

[1]- الموافقات: الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة بن حسن، دار ابن عفان، ط1- 1997م، 5/177-178.

[2]- انظر تحقيق المناط وأثره في اختلاف الفقهاء: عصام شرير، ص135.

[3]-انظر أولويات الحركة الإسلامية: يوسف القرضاوي، الرسالة، 2000م، ص31.

الموازنة بين المصالح المتعارضة والمفاسد، فيعطي قيمة إضافيّة عند تغليب مصلحة ما أو حكم شرعي، أو عند درء مفسدة بعينها، وهذا من خلال الحرص على البحث عن معانيه وأبعاده في تلك المصالح أو الأحكام أو القضايا.ولا بدّ عند اعتبار قيمة العدل سواء في عملية استنباط الأحكام أو عمليّة الترجيح من مراعاة اعتبار التوازن وتحقيقه، ودفع الظلم والعدوان.

3. قيمة العدل الإلـــهي ومبادئ التغيير:

من أهمّ ما تحققه قيمة العدل في عصر ما بعد الحداثة الذي جاء بالكثير من التطورات والتغييرات هو الاقتراب من إقامة دين الله، فمن المعلوم أن الدول غير المسلمة التي تهتم بإقامة العدل تنال رضا الأفراد والمجتمع. والدول المسلمة التي تفتقر إلى العدل تحتاج أنظمتها ومفاصل الإدارات والقضاء فيها إلى الانتفاع من سياسات العدل في الدول القوية على مختلف الأصعدة، فهذا مسلك قوي لردّها إلى دين الله بالمعنى الواسع للدين. على سبيل المثال توزيع الثروات بعدل، والاعتناء بما من شأنه أن يحفظ كرامة الإنسان، ويحترم وعيه ويحافظ على صحته العقليّة والبدنيّة والروحية. فحتّى إن لم تحقّق هذه المطالب من خلال إقامة الدّين لظروف ما، فإن الاقتداء بالدّول الأقوى في مميزاتها البنّاءة والإيجابيّة كالحفاظ على العدل مدخل قويّ في مقاربة التشريع القرآني.

يساعد في ضبط الاجتهاد المعاصر استناده إلى ركن شديد، وهو العدل والميزان والفطرة السليمة، بعيدا عن الأهواء والآراء الدّخيلة، وفي تفعيل قيم القرآن والشريعة من باب تأصيل القيم الإنسانية المشتركة. وفي ظل ما يشهده العالم من تغير سريع على مستوى القيم الإنسانية، فإن الاجتهاد المعاصر مطالب أن يحل ما يطرأ من إشكالات وقضايا وتعارضات بين الواقع ومقاصد الدّين وقيمه، وتتبدّى قيمة العدل هنا كقيمة مركزيّة ومحوريّة تقارب بين ما ظاهره التعارض أو ترجّح ما يستحقّ الترجيح. فتحكيم العدل يؤهل الحكم الأفضل ويقوّي جانب الحكمة والميزان في تقرير الأحكام ومراجعة المسائل. "وعليه فحيث وقع التطفيف في ميزان القيم واشتبهت المصالح بالمفاسد وبالعكس، كما اشتبهت مقاديرها، وجب نصب ميزان العدل والاحتكام إليه وفق منهج سليم يستوفي المصالح الشرعية من غير تخسير ولا تطفيف"[1].

ومن أهم أدوات الرّجوع إلى إقامة العدل مراجعة مختلف العلوم وتاريخها وأحوال المجتمعات والحضارات وكيف تطوّرت سلبا أو إيجابا مع غياب العدل أو حضوره. فبإمكان "العقل المسلم برؤيته الواضحة القائمة على هداية

[1]- أثر فقه الموازنات في أحكام نوازل الأسرة: سميرة خزار-ليلى قالة،كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة1- الجزائر، المؤتمر الدولي الثامن، ص1176، مقال مرفوع من الشبكة العنكبوتية.

الوحي أن يجعل مواقع التفاوت والتناقض أدوات تحريك ونماء، ودواعي يقظة وإبداع وتجديد"[1].

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء: 135. فيتأكّد اهتمام القرآن بالعدل بنهيه عن الظّلم وتحريمه، وقد "أبدع الإسلام بحكم استلهامه للعدالة مبادئ لا نجدها في القوانين الأخرى مثل عدم سقوط الحق بالتقادم وعدم مشروعية تصرف بني على باطل مهما كان في حد ذاته سليما، حتى ولو كان الصلاة التي لا يجيزها الفقهاء على أرض مغصوبة، وهنا تطبق العدالة إيجابا وسلبا، فالباطل لا يكسب والحق لا يخسر. أيضا أعطى الإسلام لكل واحد الحق في المطالبة بتحقيق عدل انتهك أو مقارفة ظلم وقع عندما أوجب على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعل المسلمين عدولا يسعى بذمتهم أدناهم، وبالتالي يكون لكل واحد حق رفع القضايا دون أن يكون صاحب مصلحة مباشرة في الموضوع، لأنه وهو مواطن في مجتمع متماسك له مصلحة في تماسك هذا المجتمع وعدم انهياره"[2]. كما أعاد القرآن العدل إلى الله تعالى وجعله اسما من أسمائه، وربط بينه وبين الحقّ الذي هو اسم من أسمائه بحيث توجد بينهما علاقة تكاملية، يكون الحق هو العدل مجردا، والعدل هو الحق مطبقا وقد يكون الحق أوسع نطاقا، ولكن العدل حاكم على تطبيق الحق لأنه الحق مطبقا، ولأن كافة الحقوق في الإسلام مضبوطة بحسن التطبيق– أي بالعدل– فإساءة استخدام فرد ما لحقه يهدر تصرفه ويخضعه لمقتضيات العدالة. وانبثاق العدل من الله والربط بينه وبين الحق يعطيه قداسة وأصالة تحول دون إغفاله أو إهماله أو تسخيره[3].

[1]– انظر إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر: تحرير حسن مكاوي وآخران، ص243. عن قضية المنهجية في الفكر الإسلامي: عبد الحميد أبو سليمان، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1989، ص20.

[2]– نظرية العدل في الفكر الأروبي والفكر الإسلامي: جمال البنا، دار الفكر الإسلامي– مصر، ص 126–127.

[3]– انظر المصدر نفسه، ص131.

المطلب الثالث: قيمة العدل في البعد الهدائي للقرآن

يقدم العدل هدايته في كل مجالات الحياة، فيوجه وينظم مختلف العلاقات القائمة بين الناس، والقائمة أيضا بين الناس وبين بيئتهم المحيطة بهم، وبين الإنسان وربه سبحانه. وبما أن العدل يتعلق بمختلف الجوانب في حياتنا فأبعاده القيمية تظهر وتتجلى في السلوكات والأخلاق، فإن كانت متوازنة وحسنة فهي مؤشر إيجابي على فعالية قيم أخرى مع العدل متضافرة. وليس الأمر لإقامة العدل رفع الظلم عن المسلم فقط، بل يتعدّى إلى غير المسلم، ما يساهم في محاربة التطرّف.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾النساء: 58. فإذا كان المسلم في سعيه الحضاري يتحكم فيه مبدأ الطاعة في العبادة، فإنه يتحكم فيه أيضا مبدأ الطاعة في المعاملة والتي تعني تزكية النفس بمراعاة حق الغير.

"وقد تنوعت أساليب القرآن في العناية بالعدل والأمر به، فتارة يحثّ على العدل بذكر قيام الله جل وعلا بالقسط مما يدعو إلى القيام بأوامره والانتهاء عن نواهيه طمعا في الثواب وخوفا من العقاب.

وتارة بالأمر بالعدل والإلزام بتطبيقه في كل صغيرة وكبيرة، وتارة بالثناء على القائمين بالعدل وإعظام الجزاء لهم.

وتارة بتحريم الظلم والنهي عنه وذمه، وبيان ما يترتب عليه من العواقب الوخيمة والمفاسد العظيمة في الدنيا والآخرة، وذكر مصارع الذين ظلموا، وتصويرها تصويرا مفزعا موحيا بالخشية والاعتبار.

وتارة بالدعوة الأكيدة للظالمين إلى التوبة لصادقة وترغيبهم فيها، والعودة إلى دائرة العدل والإنصاف.

وتارة بذكر الوعد الشديد على الظلم وانتقام الله تعالى من أهل الظلم والإجرام.

كلها أساليب ربانية تهدف إلى تحقيق العدل وإقامة الحياة على دعائمه، وتطهير المجتمعات من الظلم والفساد"[1].

ويؤيد إقامة العدل ما جاء في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه. وما كان من سنة الله في نظام الاجتماع أن يهلك الأمم بظلم منه لهم، أو بشرك يقع منهم وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم.

[1]– انظر العدل في القرآن الكريم: عبد الله الحسين، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1413هـ، ص7.

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ الكهف: 59.

وقال سبحانه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ص: 26.

القرآن لا يكتفي بالآيات التي تحض على العدل، ولكنه في آيات أخرى كثيرة يحذر من الظلم ويقرنه بالشرك. كما أتى على ذكر مختلف أشكال الظلم، ومصارع الظلمة وآثار ديارهم.

1. العدل في النظام والسنن الكونية:

يتجلّى العدل في التوازن في نظام الكون الذي خلقه الله: اجتماعي،علمي،وحضاري. وقد سبق ذكر شموليته لمختلف الدقائق في حياة الناس كما سائر القضايا والعلاقات.

فيأتي القصد والاعتدال في الضابط الذي به يضبط القرآن كل سعي للاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، والمعيار الذي تقوم به كل الحركات، والفقه العمراني الذي وجه الحضارة الإسلامية. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾المائدة: 87. فالمسلم كما هو مطالب بالتمتع بطيبات الحياة، مطالب كذلك بالاعتدال وعدم الاعتداء في التعامل مع طيبات الحياة انتفاعا واستثمارا، ويأتي النهي عن التبذير بصورة مروعة. قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ الإسراء: 27[1].

والعدل كما يكون في الأمور المادية التي يسهل ضبطها وتحديدها، يكون في الأمور العقلية والمعنوية التي يدق وزنها، ويحتاج ضبطها إلى معاناة ومشقّة، فمن العدل المطلوب عدل العلماء مع العوام بأن لا يحملوهم على التعصّب الباطل، بل يرشدونهم إلى الأعمال التي تنفعهم في دنياهم وأخراهم، وهذا العدل يتطلّب منهم أن يتعرّفوا إلى الحاجات العقلية والنفسية والدينية التي يحتاج إليها هؤلاء العوامّ، ليستقيم أمرهم ويعتدل حالهم، فلا يقدّموا إليهم إلا ما يزيدهم توفيقا ورشدا في أمور دينهم ودنياهم[2].

[1]- قيم الإسلام الحضارية – نحو إنسانية جديدة: محمد الخطيب، ص 136-137.

[2]- انظر أخلاق القرآن: أحمد الشرباصي، مؤسسة الوفاء التجارية- مصر، ص57.

وتقتضي قيمة العدل أن الواجب في كل فرع من فروع الحياة لا ينبغي أن يشغل إلا مساحة معينة من الخير الممكن من نفس هذا الفرع، كي يتيح للفروع الأخرى الفرصة أن تشبع احتياجاتها وتحصل على نصيبها المشروع من نشاطنا. وهناك حدود عليا تدركها الضمائر السوية بحيث إذا تعدّت الفضيلة هذه الحدود لا يتبقى منها شيء يسمى فضيلة لأنها قد بدأت تضر بفضيلة أخرى[1]. والقارئ للقرآن يجد هذا المعنى مبثوثا في آياته، قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ ص: 26. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ لقمان: 18-19.

على الرّغم من أن الآيات المتعلّقة بالنظريّة الأخلاقيّة ليست بالكثرة والوضوح الذين تتميّز بهما الأحكام العملية، إلا أنّ القرآن قد تحدّث عن أسس النظريّة الأخلاقية. كتاب الله لم يكتف بأن سنّ قاعدة السلوك على وجه أكثر شمولا وتفصيلا، وإنما أرسى تحت هذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظريّة أعظم متانة وأشدّ صلابة. وشريعة الواجب القرآني ترتكز على التمييز بين الخير والشر من خلال الإلهام الداخلي المركوز في النفس الإنسانيّة قبل أن يكون شرعة سماويّة. قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ ﴾ القيامة: 14-15. وأيضا فهو قادر على أن يحكم هواه: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ ﴾ النازعات: 40-41. وقيمة العدل من قيمة الشريعة، عام ودائم، يكفل للبشرية مطامحها المشروعة في حين يعترض على نزواتها الجامحة[2].

من أبعاد العدل الهدائيّة نبذ كلّ ما يحيد المرء عن الصّراط المستقيم وعن استغلال ملكات العقل والتفكّر، فيأتي نهي القرآن بقوّة عن اتباع الهوى، والانقياد الأعمى. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآية- ص: 26. وقال سبحانه: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ

[1]- مختصر دستور الأخلاق في القرآن: محمد دراز،، إعداد المختصر: محمد عبد العظيم عليّ، دار الدعوة- مصر، ط1- 1996م، ص28.

[2]- انظر المصدر نفسه، ص5.

ءَاثَـٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزخرف: 22-23. وقد خلق المولى تعالى الإنسان مهيّأ ومؤهّلا للانقياد إلى الحقّ، قال سبحانه: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ التين: 4. خلق الإنسان ليحيا بمختلف العلاقات؛ منها الاجتماعيّة، النفسيّة، والروحية، وبنظام متكامل ومعتدل، وإذا طغى أي منها على حساب إهمال أخرى فذلك مظنّة تردّيه في الدّرجات قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ ﴾ التين: 5-6.

والإيمان وعمل الصالحات هو تحقيق للعملية التسخيرية بما يوافق دين الله، وهو واجب حيث أن تركه تضييع للخيريّة التي وصفت بها الأمة فضلا عن المهامّ الطبيعيّة والملحّة للإنسان ليبقى حيّا على هذه الأرض. ويتّصل بهذا السياق نهي القرآن عن تعطيل الثروات، وعن الإفساد والظلم.ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الجمعة: 9-10. ومعناه أن المسلم مأمور بعبادة الله وذكره تعالى كثيرا، وكذلك مأمور بالّسعي في الأرض للكسب والانتفاع من الخيرات التي سخّرها المولى تعالى له، وهذا من العبادة لأنه سعي في تحقيق العمارة. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ الملك: 15.

2. مركزيّة قيمة القوة في تفعيل البعد الهدائي للعدل:

يقول تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾الحديد: 25. يعلمنا المولى تعال أنّه أرسل الرّسل بالدّلائل والحجج، وأنزل معهم الكتاب، وأيضا الميزان الذي هو العدل والحقّ الذي تشهد به العقول الصحيحة في الأقوال والأفعال. والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود كما قال سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ

مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ هود: 17، وقال: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾الروم: 30، وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ الرحمن: 7؛ ولهذا قال في الآية الأولى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: بالحق والعدل من اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به قياما بدين الله، وتحصيلا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها. وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة والأحوال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام: 115 أي: صدقًا في الإخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾الأعراف: 43.

وأنزل سبحانه الحديد وجعله رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، وقرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهٰذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب وبالقوّة، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله [1].

فلا يمكن في الوقت الحالي ولطبيعة التغيرات التي مست العالم، والمتمثلة في اعتلاء القوة للعلاقات الأخلاقية وغيرها من العلاقات في ميادين أخرى بين الدول وبين الأفراد، لا يمكن الحديث عن إقامة العدل دون تحقيق القوّة. على سبيل المثال العدل لم يكن من القيم الحاكمة في الفكر الأروبي قديما أو حديثا، ولكن المجتمع الأروبي الحديث حقق صورا من العدالة بفضل الحريّة التي أفسحت المجال أمام الفئات المظلومة للانتصاف، فطريق العدالة لم يكن الحق ولكن القوة التي سمحت بالحرية. أما في الفكر الإسلامي فالعدل مركزي في المجتمع، ومع هذا فهو غير قائم. وقد أدّت إلى غيابه تراكمات على مرّ القرون، منها تراجعه عمليّا مع طغيان النظرة الجزئية عند التشريع والتي تسببت فيها عوامل خارجة عن إطار النص، ومنها تكريس سلطة الفرد وغياب الرؤية الشمولية التي تنظر إلى النص والإنسان بزواياه المختلفة، فتعذّر لذلك المواءمة وإحداث التطابق بين القيمة المعرفيّة للعدل في القرآن وبين احتياجات إقامته في الواقع، وتقهقر وعي المسلم إزاء تلك القيمة المعرفيّة، وتباعا فاعليّته في القيام العمليّ بهذا العدل. ولكن يحدث أن تكون هناك هوة في مختلف الأزمنة والأمكنة بين تدبّر القرآن وتفسيره وترتيله وبين العمل به لسوء ترجمة النص إلى واقع. وفي العمليّة هذه "يظهر القارئ والمفسّر كطرف ثالث، وبطبيعة الحال فإنّ المترجم

[1] – انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 27/8، وتيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: السعدي، ص842-843.

يحتاج إلى استيعاب اللغتين، لغة النص المترجم، ولغة الواقع المترجم إليه، كما ويجب الوقوف على حدود تأثير الواقع في المفسر وفهمه للنّص القرآني، فلا يمكن إهماله في قراءة المعرفة وإنتاجها من النّص القرآني"[1].

ومن أهمّ التأثيرات الحالية التي تلقي بظلالها على المفسّر والقارئ تحوّل التّفكير في العلاقات الدّوليّة من المثاليّة نحو الواقعيّة بعد الحرب العالميّة الثانية والفترة التّالية عليها، أي من القانون والتّنظيم إلى عنصر القوّة. وعرفت فترة الأربعينات سلسلة من الدّراسات في العلاقات الدّوليّة التي تركّز على منهج القوّة، فما يميّز التّاريخ المعاصر عن تاريخ العصور الوسطى هو سيطرة فكرة القوّة على فكرة الحقّ، وأضحى من الأهميّة بمكان إطلاق مصطلح القوّة بالتّحديد لوصف الوجه الدّولي لدولة معيّنة[2].

إن القوّة متغيّر أصيل في السّياسات الدّوليّة ففي غياب مجتمع دولي شامل فإنّ الجماعات داخل النّظام الدّولي يتوقّع منها أن تتصرّف على أساس عمل ما تستطيع تحقيقه بالقوّة المادّية بدلا من عمل ما يجب أن تعمله من النّاحية الأخلاقيّة، ولذا لا يجوز اعتبار القوّة بأنّها مجرّد نوع من الشّهوة المدمّرة، بل إنّها مزيج من الإقناع والإكراه، إذ أنّ أولئك الذين يستخدمون القوّة يفضّلون عادة تحقيق أهدافهم من خلال التّهديد باستخدامها بدلا من اللّجوء إليها فعلا، والتّهديد يستهدف الإقناع في حين يرتبط الإكراه بالاستخدام الفعليّ للقوّة[3].

فلا يمكن إهمال هذه المبادئ والمسلّمات في العصر الحديث وتأثيراتها الفعالة في هيكلة العلاقات أو خلقها أو إنهائها، وما يتعلّق بها تباعا. و"القوة بالمعنى العامّ هي قدرة الطرف الفاعل على تحقيق أهدافه، ومن صورها النفوذ، وهو قدرة طرف فاعل على تغيير قيم طرف فاعل آخر. وقد يتحقق هذا التغيير غير المرغوب فيه عن طريق الإكراه، وذلك بالتهديد العسكري أو بالتهديد بفرض عقوبات اقتصادية أو حتى بحيازة المعلومات عن طريق الابتزاز. أما التغيير المرغوب فيه فيتم ضمن صفقة تتم فيها مكافأة السلوك الجديد عن طريق منح دعم عسكري أو اقتصادي أو سياسي. ويكون النفوذ على أشده عندما يقوم طرف فاعل باستخدام النقاش السياسي لتغيير القيم السياسية لطرف فاعل آخر بحيث يتمّ تبنّي السلوك الجديد بشكل طوعيّ[4].

---

[1]- أثر الواقع الاجتماعي في تفسير القرآن في العصر الحديث: الجمعي شبايكي، ص ل من المقدّمة.

[2]- النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية : جيمس دورتي- روبرت بالستغراف، ترجمة وليد عبد الحيّ، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ص14.

[3]- المصدر نفسه، ص15.

[4]- انظر عولمة السياسة العالميّة: جون بيليس- ستيف سميث، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث، ط1- 2004م، 642-643.

لذلك تصبح القوة ضرورة وواجبا لحماية الخصوصيات الحضاريّة والاعتناء بحماية العودة إلى المرجعيّة القرآنيّة بقيمها ومقاصدها المتكاملة والمتناسقة فيما بينها. وهي تيسّر السبيل لإقامة العدل، عدل يعتني بكل ما من شأنه أن يحقّق التقدّم والاستعمار في الأرض كما أمر به المولى تعالى في القرآن.

3. البعد الهدائي للعدل ضمن مركزية القيم القرآنية:

للقيم مركزيتها في البناء الحضاري الإسلامي، وهي تحرص على الارتقاء بالإنسان في مراتب الكمال العقلي والخلقي من خلال دعوتها إلى تحصيل المعيّة الإلٰهية بالانضباط بمعيار الدين، والعمل على مقتضى الشرع الإلٰهي. فالإنسان دائر بين تلقي الخطاب من الله في كل شؤون حياته، وتحمل الرؤية من الله في كل أعماله. والقيم في تلك المعيّة الإلٰهية ترتقي من رتبة الأوامر والنواهي التي تقهر الإرادة إلى رتبة المعاني الجماليّة التي تملأ الوجدان[1].

كما تتضح مركزية القيم في البناء الحضاري الإسلامي من خلال دعوتها إلى ترسيخ الذات الإنسانية بمراعاة حق النفس تزكية لها، وتصحيح السلوك أصلا ومقصدا ووسيلة، والعمل على مراعاة حق الغير إنسانا وحيوانا ونباتا وجمادا. والحركة التي تتم في غيبة المقاصد الإنسانية الكلية التي تقوم على الاعتدال والاتزان ومراعاة حقائق النفس وحقائق الغير، فهي غير مقبولة، حتى الأحكام الشرعية التي تضبط حركة المسلم التعبدية لا تنفك عن القيم الأخلاقية، فجانبها الأخلاقي يؤسس الجانب الفقهي، ورسالة الإسلام القيمية رسالة استئناف واستصحاب ومواصلة، فهي تنظر إلى الأخلاق والقيم الخيّرة التي تحقّق المقاصد النبيلة وتضمّها إلى منظومتها[2]. ولا تتنكّر للقيم الإنسانيّة المشتركة كتلك التي تدعو إلى السلم والحوار.

يأتي العدل في طليعة القيم التي ترسّخ للسلم والحوار ومناهضة الظلم والعدوان، والارتفاع بالإنسان إلى مستوى السمو والحد من استبداده وتعسّفه. ولكن الحوار الذي ينبذ التطرّف والتعصّب ويقيم العدل حكما، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ هود 27-28.

---

[1]- قيم الإسلام الحضارية – نحو إنسانية جديدة: محمد الخطيب، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدراة البحوث والدراسات الإسلامية-قطر، العدد139، 1431هـ، ص26-28.

[2]- المصدر نفسه، ص29-31.

فهؤلاء قد تنكّروا للحجج البينات والدّلائل العقلية التي جاءهم بها نوح عليه السلام، وارتضوا بديلا عنها العناد واتباع الهوى، إضافة إلى محاولاتهم المتكرّرة كما تحدّث عنهم القرآن في مختلف قصص الأنبياء عليهم السلام صدّ من آمنوا عن دينهم والحجر على عقولهم والاستخفاف بهم.

إنّ للحوار أصول وضوابط حتّى ينصبّ حول الفكرة من حيث هي بصرف النّظر عن القائل، ذلك أنّ استصحاب منصب أو وضع المحاور (الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو...) يؤثّر سلبا في كثير من الأحيان في تحديد مقدّمات الحوار ونتائجه. ويظهر الخوف من المحاور في مستويات متعدّدة، فتراه متجلّيا في الموقف الفكري والحضاري[1] – وهذا ما ينافي قيمة العدل ويضادّ معانيه من توخّي المساواة والتوازن، ونبذ الظلم والاستبداد– " فتظهر تجليات الخوف في التسليم بأفكار الغالب اقتصاديا أو سياسيّا، كأن تتحول أفكار الإنسان العادي إلى مصاف النظريات والأفكار المعصومة بمجرّد تقلّد منصب رفيع لغرض جلب المغنم ودفع المغرم، وهو سبب في القلق الفكري والتعبير عنه بما يسهم في قبول الإملاء في القضايا الفكريّة والحضاريّة[2]. على سبيل المثال تبنّي مفاهيم ومصطلحات تغاير مفهومها الأصيل في المرجعيّة القرآنيّة، في حين أن "تداول اللغة وتبادل المعنى يتمّ على مواضعات اجتماعيّة وثقافيّة"[3].و"اللغة تعدّ المنفذ الرّئيس للتعبير عن الأفكار والمشاعر، وأي خطأ في النقل أو التعبير أو الفهم يؤدّي إلى إدراك معلومات المسألة وتصوّرها على خلاف ما هي عليه في الواقع"[4]. فالمصطلحات تصنع الوعي وتوجّه سلوك المستمع، والاعتدال في الرّجوع للمفردات التي تعبّر عن مختلف مقاصد القرآن هو الذي يحقّق رسالته الهدائيّة، لأن اللغة والمصطلحات الدّخيلة تسبّب مع مرور الزمن التّسليم بثقافة وقيم الآخر والانتصار لها.

والإسلام كما يحافظ على تشريعاته وأصالة الدّعوة إلى قيمه يدعو إلى الانفتاح على بقيّة الثقافات بالحجّة والموعظة الحسنة، وإذا كان على كلّ أمّة أن تؤثّر فعليها أن تبلور مشروعها الحضاريّ وتخرجه من غربته ليعمّ العالم[5]. وحتّى تعصم أفرادها من تمثُّل قيم لا تلامس الواقع ولا تجد السّند لها في الحياة الاجتماعيّة ومختلف الجوانب الحياتيّة

---

[1]– حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني: عمّار جيدل، دار الحامد– الأردن، ط1–2003م، ص56.

[2]– المصدر نفسه، ص57.

[3]– السيميائيّات والتّواصل: أحمد يوسف، "العالم مبني وفق أنموذج اللّسان" سابير– وورف، ص42.

[4]-تصور المسألة وأثره في الاجتهاد: عامر خليل إبراهيم، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية عدد 57، ص101.

[5]– انظر عالميّة الحضارة الإسلاميّة: عبد الأمير قبلان، 2001م، مؤتمر "كلمة سواء" السنوي السادس: " حوار الحضارات" (كلمات الافتتاح)، مقال مرفوع من موقع مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات.

الأخرى من اقتصاد، سياسة، فنّ، إعلام... إلخ، لا بدّ لها أن تتوفّر على آليات تنظيرية وتربوية واجتماعية.فمن شأن الهوّة التي تفصل المعرفة والعلم عن التمثّل الواقعي لها أن تستبدل القيم العلميّة والقيم الأخلاقيّة لدى مختلف فئات المجتمع وخاصّة المتعلّمة بالقيم السّائدة في ثقافة المجتمع.لذلك" فإن أي مجتمع يرنو إلى أن يكون له وجود مستقبلي بالنظر إلى موضوع القيم، ينبغي له أن يكون متوفرا على الآليات الآتية:

الآليات التنظيرية لتمكنه من:

. ضبط معالم وحدود مرجعية المجتمع وكذا منطقها الداخلي.

. ضبط مناهج قراءة المرجعية واستنطاقها والاستنباط منها وبلورة التمثل لها، وكذا ضبط مناهج تنقيح هذه المناهج وتفعيلها.

. ضبط مناهج التعرف على الواقع، محليا، وإقليميا، وعالميا، وكذا ضبط آليات التحسس على التوجهات الكبيرة العارمة التي تتبرعم فيه لتوظيفها إن كانت إيجابية، أو لاجتنابها إن كانت سلبية، أو لمقاومتها إن كانت مدمرة مخترقة.

. ثم ضبط آليات تفعيل القيم الإيجابية الموجودة وإنتاج الأخرى المفقودة استهداءً بعناصر الضبط المتقدمة.

وهذا يفيد أن الجهات التي تحرك هذه الآليات التنظيرية ليست بالضرورة هي وزارات التربية الوطنية، بل كذلك الجامعات والمنتديات، ومستودعات التفكير، والجمعيات، وهيئات العلماء ..إلخ.

الآليات التربوية والتواصلية:

لتمكنه من تعدية هذه القيم إلى أفراده بطريقة فعالة وإيجابية ومقنعة.

الآليات الاجتماعية:

لتمكن من العبور بثمرات الآليات السالفة إلى مختلف أنواع العمل العام الذي يتخذ المجتمع ككل ميدانا له (العمل الثقافي،العمل الجمعوي، العمل السياسي، العمل الاجتماعي، العمل الإعلامي)"[1].

[1]– انظر القيم الدينية والأخلاقية والمدنية–الاجتماعية: أحمد عبادي، مقال مرفوع من موقع مجلة الإحياء– المغرب، 1438هـ.

خلاصة:

إن السعي في إقامة العدل وتـــحقيقه واجبٌ، حـيث أمرنا الله بذلك أمرا يتطرّق إلى تفاصيل حياتنا ومعاملاتنا وعلاقاتنا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾النساء: 135.

فيأتي فضل العدل ووجوبه من حفاظه على تطبيق القانون وحماية الفطرة السّليمة بإقامة التوازن بين متطلبات الإنسان الروحية والمادية بصورة منسجمة ووفق النظام الذي خلقه الله عليه. وهو واجب على الجميع وحقّ للجميع، الحاكم والمحكوم، القوي والضّعيف، الغالب والمهزوم. ولا يخفى ما يسببّه إهمال إقامة العدل من تضييع أسس إقامة الحياة المتوازنة والكريمة. عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ، فكلم رسول الله ﷺ فقال: "**أتشفع في حد من حدود الله**". ثم قام فخطب قال: "**يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**"[1].

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، ح6406.

خاتمة

الخاتمة

في الخاتمة أستعرض أهم النتائج والتوصيات التي أسفرت عنها الدراسة.

بتنامي الاهتمام بالقيم ظهرت عديد النظريّات التي تبحث في طبيعتها، إلاّ أنّ تأصيلها لم يتمّ إلاّ في القرن التاسع عشر باعتبارها من المواضيع الفلسفية الأصيلة التي شغلت منزلة الصّدارة بين موضوعات الفلسفة. وتبعا لذلك قامت الدّراسات القرآنية بتناول هذا المصطلح" القيم" للبحث فيه من خلال القرآن.

اهتمت الدراسة بإبراز مفهوم القيم الذي يدور حول معاني الاستقامة، الثبات والدوام، وما يقوم به الشيء. لذا كانت " **إدراكا معرفيا وإرادة نفسية تستند إلى مرجعيّة محدّدة**"، وتجلّيها هو السّلوك العملي القولي أو الفعلي أو الوجداني.

كان من الواجب إلقاء الضّوء على أبعاد قيم الفلسفة الحديثة– التي همشت سلطان الإلـه وقزمت دور الدين وأبدلته بدين من عندها– على حضارة الغرب، وقد أسست لتحول عميق تجلى في الانتقال من حضارة العلم والتقدّم إلى حضارة الاستهلاك والترفيه، فهناك تنميط حضاري لا يحدث بمحض الصدفة بل وضعت له استراتيجية محكمة لتهيمن قيم الغرب وحضارته على قيم المسلمين ودينهم.

إن أخطر منفذ لتحقيق الاستلاب الحضاري هو أخلاق الخضوع؛ خضوع للماديّة ولمظاهر العلمانية الحديثة. فبرّرت الطليعة الغربية لنفسها حقّ المزيد من الهيمنة والتحكّم في البشر وتوجيه مسارات حيواتهم بما حققته من إنجازات لم تسبق إليها في نظرها، والرفاهية الماديّة التي وصلت إليها أيضا جعلتها تلغي من اعتباراتها الآثار السلبية لحضارتها. وبالمقابل لا نكاد نعثر في عصر من العصور على قوة منظمة بذلت جهودها في نشر الإسلام وتعميم دعوته وصيانة تشريعاته، حتّى لقد تراجعت قيمة الدّين والتديّن في نفوس المسلمين!

غاية التشريع تقويم الواقع بالعمل العلمي والعمل العلمي بالرجوع إلى ما أنزل الله. وقد ميّز الله الشريعة الإسلاميّة بصلاحيتها لكلّ زمان ومكان، مع الاحتراز في درجة التّغيير في ما يقبل التكيّف مع تغير الواقع وأبعاده على مختلف المستويات، كما وتتطلّب الحكمة مراعاة النّظرة الشمولية للمواضيع المقصودة، فلا ينظر إليها بمنأى عن باقي الجوانب التي تتصل بها. والمعيار الذي يقيم به الموضوع هو النظر إلى مدى خدمة التطوّر الحاصل؛ مدى خدمته للدّين.

بفقد التشريع أصالة الانتماء إلى الشريعة الإسلاميّة يختلط المشروع بالممنوع فيظهر الاضطراب في أشكال السلوك، وتتهم الفئات المجتمعيّة بعضها بالتقصير وبالتخلّف عن مجاراة الواقع بإشكالاته التي تتولّد فيه، وكل يدّعي جدارة منهجه يصفهُ بالأصلح والأصوب.

حتى يقف الدين عصيا في وجه من يريدون تخصيصه بأزمنة سالفة لجعله عجينة مطواعة يجب البرهنة أن فيه من التوجيهات والإرشادات الإلزامية ما يضمن سلامة الاستنباط منه والصدور عنه لمواجهة مستجدات الحياة ومسايرة السياقات التاريخية المختلفة، وأن ما يسوغ الاختلاف فيه هو الآخر يشغل مساحة يحددها الدين بدقة. والواجب أن يستند التشريع إلى القيم المصلحة التي من شأنها إبطال سحر قيم العلمنة على الفرد ومجتمعه ككلّ.

تأدية دور المشرّع بكفاءة يرتبط بقوة الدولة ورعايتها العلم والعلماء لما توفره القوة من أمن واستقرار يبعثان على التوجه نحو الارتقاء في التفكير والسلوك، فإن ضعفت الدولة انعكس الأمر سلبا على مجمل جوانب الحياة ومنها التشريع باعتباره انعكاسا للواقع.

أنواع القيم القرآنيّة قسمت إلى قيمتي القوّة والإرادة، فإذا كانت القيمة هي ما يتطلع المرء إليه وإلى تحقيقه على حسب القوة المتوفرة له ويضحي في سبيله بغيره من البدائل المتوفرة ضمن حدود الحريّة المتاحة له وقوّة إرادته؛ فيرجع أصل العمليّة في إتيان الخير وترك الشرّ، أو العكس، إلى القوة والإرادة.

إن المسلم مسئول وملزم بدين الله، فيه صلاحه، وشقاؤه بابتعاده عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: 2. وبعبوديته لله وخضوعه لإلزامات الدين تتحقق حريته، لأن الله هو الملك الحق الذي يأمرنا وينهانا فنطيع، وعلى المسلم أن يطلب أسباب ذلك، وتتجسّد هذه الحريّة بإقامة دين الله في هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ الحج: 41. فإن طلبت الحريّة في غير هذا الموضع صارت عبوديّة وقيدا، لأنها بذا تصل المسلم بغير مسبب الأسباب. وأما إن هرب إلى إنكار الدّين أو بعضه فهو يركن إلى هوى النفس، أو إلى سلطة أخرى، لأنه لا يمكن لأي إنسان أن يعيش بلا أفكار أو معتقدات أو سلوكات، فحتما هو يتبع مرجعيّة ما أو يخضع لسلطة ما.

إن أهم ما يحقّق الحريّة بالمعنى المذكور إقامة العدل في الأرض، فالالتزام العملي بالعدل من أهم العوامل المؤثرة في تكامل المجتمعات وازدهار الحضارات، وبالمقابل فالخروج عن جادة العدل والانحياز إلى الظلم والجور والاستبداد

من أهم عوامل سقوط الأمم وانهيار الحضارات.الله يبقي الدول والأمم مع الكفر ويؤجل حسابها للآخرة، ولكنه لا يبقيها مع الظلم والبغي في الأرض.يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود: 117.

العدل كقيمة شاملة وخلق، ينظّم باقي الأخلاق حتّى لا تعدل عن الصّراط القويم، ويكفل تحقيق أبعاده كما جاءت في القرآن الكريم، ولكن بمراعاة المبادئ القرآنية التي تخصّ العدل من مثل تطبيقه على كل المكلفين بغير تمييز، والاهتمام بتطوير الآليات التي تيسّر إقامته.

أولى القرآن عناية بالغة بالعدل، وأوجبه وجوبا مطلقا وأمر بتحقيقه في الأقوال والأفعال والشهادات والعلاقات والحكم...إلخ. وهو من أهم مبادئ الإسلام التي لا يدخل فيها الاستثناء ولا تخضع للضرورات، لذلك كان مرجعا معرفيّا يحتكم إليه ضمن المرجعيّة الدّينية.وحضور المرجعيّة مركزيّ في بناء منظومة القيم ولا يتناقض مع طبيعة القيم الكونيّة كالعدل، لأنّ المرجعيّة تحدّد المفهوم، وفي نفس الوقت تعمل على ترسيخه في المجتمع فإن لم يؤسس مفهوم العدل على أرضية من القيم والمرجعيات الثابتة، فسيكون عدالة عرضية تتحكم فيها المصالح النافذة، أو عدالة هشة يتفكك بناؤها كلما تطور مفهوم الناس عن الحقوق والواجبات.ومما يساعد في ضبط الاجتهاد المعاصر استناده إلى ركن شديد، وهو العدل والميزان والفطرة السليمة. فتحكيم العدل يؤهل الحكم الأفضل ويقوّي جانب الحكمة والميزان في تقرير الأحكام ومراجعة المسائل.

تطرقت الدراسة للعدل كقيمة معرفية، وبينت أنه نظام ثابت من حيث المبدأ شامل من حيث القضايا والمسائل، عام لكل الأفراد، تتخطّى قيمته الخيريّة للمسلمين إلى غيرهم حتى مع أعدائهم بضوابط معلومة.

ومع هذا يجب الاعتناء بما يحقق العدل، وأبرز قيمة تهيئ ذلك هي قيمة القوة. مما يؤكّد ذلك اعتلاءها – القوة –للعلاقات الأخلاقية وغيرها من العلاقات في ميادين أخرى بين الدول وبين الأفراد، فلا يمكن الحديث عن إقامة العدل دون تحقيق القوّة لأنّ ما يميّز التّاريخ المعاصر عن تاريخ العصور الوسطى هو سيطرة فكرة القوّة على فكرة الحقّ.

التوصيات:

أهمّ التوصيات التي يمكن استخلاصها من الدّراسة هي:

ضرورة استعراض القيم في الفلسفة الغربيّة، فغالبا ما نجد خطّا غالبا في الدّراسات القرآنيّة يتمحور أو يكاد حول حشد الشواهد من القرآن الكريم والسنة الشريفة مع أقوال المفسرين لهما، فلا يكادون يقدّمون بهذا الطّرح والعرض الجديدَ مقارنة بمن سبقهم، ولطالما بيّنتْ عديد النّظريّات والأفكار الفلسفيّة التي سادت لفترات زمنيّة طويلة أنّ ما ينفع في إثبات الحقّ ليس هو البناء النظري المتّسق بقدر ما هو تحصيل الاقتناع لدى المخاطب، فعندما تدّعي عدّة نظم مختلفة أنّ أصلها جميعا مقدّس بدرجة متساوية، فإنّ الفيلسوف لا يستطيع أن يقبل أيّ نظام إلاّ إذا كانت هناك حجج في صالحه لا تتوفّر للنّظم الأخرى.

ينبغي الاهتمام بتدريس المفاهيم الكبرى في القرآن بما يحفظ دورها وقيمتها، كالتصوّر الاعتقاديّ الذي يمثّل دين المجتمع فيتصوّر في ضوئه حقيقة الوجود وحقيقة الإنسان، ووضعه في هذا الوجود، وغاية الوجود البشري في الحياة، ثم يتّجه على هذا الأساس إلى تصوّر الوسائل التي يمكنه استخدامها لتحقيق غايته في الحياة.

الاعتناء بما يحافظ على فطرة الإنسان سليمة، لأنّ الاهتداء إلى طريق ما يعتمد على الاعتناء بالوسائل المفضية إليه. الفطرة السّليمة تحفظ صاحبها لما تتعطّل الآليّات التي تجعل العقل يوافق المنطق السليم، ويطلب المنفعة بدل المفسدة.

الغرب الحديث منذ بداياته إلى الآن، كان دائما مدفوعا إلى الأمام من طرف قوتين أساسيتين: إرادة المعرفة وإرادة السيطرة. بل إن الرغبة العارمة في المعرفة تعزز وتقوي الرغبة في التغيير، ومن ثم الميل نحو التوسع والتحكم في فضاءات متعددة. تمثّل قيمة القوّة فاعلا محرّكا، وقد يرقى لأن يكون موجّها حتّى لإرادات الغير إن لم يجد قوّة أخرى مواجهة له تحدّ من تقدّمه وتسلّطه. وهذا من أسباب تأكيد الاعتناء بالعوامل التي توفّر القوّة في الأخذ بالدّين وإقامته، فإن غابت هذه العوامل فستغيب تلقائيّا الإرادة الحقّة والمسئولة.

ينبغي الاهتمام بتقييم آثار عصر العلمانية انطلاقا من الواقع الحياتيّ، واستحضاره وأخذه بعين الاعتبار عند المقاربة بين القرآن والواقع، أي عند الترجمة وقراءة المعرفة وإنتاجها من النص القرآني.

وإذا كان على كلّ أمّة أن تؤثّر فعليها أن تبلور مشروعها الحضاريّ وتخرجه من غربته ليعمّ العالم. وحتّى تعصم أفرادها من تمثُّل قيم لا تلامس الواقع ولا تجد السّند لها في الحياة الاجتماعيّة ومختلف الجوانب الحياتيّة الأخرى من اقتصاد، سياسة، فنّ، إعلام... إلخ، لا بدّ لها أن تتوفّر على آليات تنظيرية وتربوية واجتماعية.

الفهارس العلميّة

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث
- فهرس الأعلام
- ثبت المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنيّة

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾	4	15
سورة البقرة		
﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ... ﴾	30	112
﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ... ﴾	48	156
﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾	60	177
﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾	123	148
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴾	143	179-163
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴾	168	179
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ... ﴾	170-168	177-140
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ... ﴾	183	35
﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾	212	130
﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ... ﴾	229	6
﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ... ﴾	229	5
﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ... ﴾	251	139
﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ﴾	256	104
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ ... ﴾	267	174
﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ ... ﴾	269	124
﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ... ﴾	275	175
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾	277	6
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ... ﴾	278	175
﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ... ﴾	282	151-106
﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾	286	7

سورة آل عمران		
﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ... ﴾	14	101
﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ... ﴾	18	154
﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾	19	20-17
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... ﴾	31	108
﴿ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ ﴾	75	6
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا ... ﴾	77	130
﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾	85	20-18-114
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾	110	129-124-165
﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾	113	6
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	130	175
﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	140	153
سورة النساء		
﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ... ﴾	3	151
﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾	5	6
﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾	34	4-6-127-142
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ... ﴾	40	155
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾	46	6
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾	58	149-185-191
﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ... ﴾	75	173
﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾	82	118

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ ... ﴾	98-97	138
﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ... ﴾	120-119	141-107
﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾	125	20
﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾	127	5
﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾	128	175
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ... ﴾	135	-153-147 200-190
﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ... ﴾	165-163	79
سورة المائدة		
﴿ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ﴾	3	115
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾	8	-151-5 -164-161 179
﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ... ﴾	16-15	107
﴿ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾	16	7
﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ... ﴾	33	174
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾	38	174
﴿ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾	42	175-157
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾	44	148
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾	45	148
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾	47	148
﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ... ﴾	48	116
﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ ﴾	66	-135-5 165
﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ	68	5

﴿ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾	87	192
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا ... ﴾	95	156
﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ ﴾	97	6
﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ .... ﴾	105-103	120
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾	105	152-106
سورة الأنعام		
﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾	1	157
﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ .... ﴾	6	90
﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ .... ﴾	31-30	177
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾	82	160
﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا ﴾	115	195-158
﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ ﴾	129	154
﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾	141	174
﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾	152	151
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾	153	7
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾	159	120
﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾	161	125-19-6

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	162	160-19
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .... ﴾	165	90
﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾.... ﴾	5-4	155
سورة الأعراف		
﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا .... ﴾	29-28	155
﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ .... ﴾	30	95
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾	37	106
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .... ﴾	41-40	153
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾	43	195
﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾	52	159
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .... ﴾	54	138
﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾	56	115
﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾	85	177
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾	96	176
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ .... ﴾	172	94
﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾	179	119
﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ .... ﴾	182-180	161
سورة الأنفال		
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾	39	18
﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾	57	23

سورة التوبة		
﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ .... ﴾	29	19
﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	31	73
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾	33	18
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ .... ﴾	35-34	176-174
﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ .... ﴾	36	125
﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾	103	169
سورة هود		
﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾	17	194
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا .... ﴾	27	132 176-
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا .... ﴾	28-27	197
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾	61	174
﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ .... ﴾	87	176-175
﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا .... ﴾	88	142
﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾	100	6
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾	117	204-171
سورة يونس		
﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ .... ﴾	14-13	166
سورة يوسف		
﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .... ﴾	40-39	28
﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾	40	125 ،28 ،7
﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾	76	15
﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	108	100-79

سورة إبراهيم		
﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾	34	87
سورة الحجر		
﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾	76	7
سورة النحل		
﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾	64	159
﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ .... ﴾	76	167
﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا .... ﴾	78	95
﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾	80	6
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ .... ﴾	90	-153-150 185-157
﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا .... ﴾	112	176-169
سورة الإسراء		
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾	9	124-105
﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾	11	87
﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾	15	156
﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾	16	109
﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾	27	192
﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	85	86
﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾	100	87

سورة الكهف		
﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾	17	107
﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ....﴾	29-28	109
﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ....﴾	36-35	88
﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ....﴾	42	89
﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ....﴾	49	155
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ....﴾	57	109
﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾	59	192
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ....﴾	105-103	-106-92 124
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾	105	-125-92 130
سورة مريم		
﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾	76	105
سورة طه		
﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾	71	140
﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾	119-118	172
﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾	123	118-108
سورة الأنبياء		
﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾	47	143-129

سورة الحج		
﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾	26	6
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾	41	-138-119 203-142
سورة المؤمنون		
﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ....﴾	106-105	143
سورة النور		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ....﴾	21	88
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ....﴾	55	-135-132 165
سورة الفرقان		
﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾	43	73
﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾	67	176
سورة الشعراء		
﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾	111	176
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾	129-128	172
﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾	182	7
سورة النمل		
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾	4	96
﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾	69	167
سورة القصص		
﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾	26	124
﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾	50	96
﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ	77	169

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾		
سورة العنكبوت		
﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾	38	168-96
﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .... ﴾	40	166
سورة الروم		
﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ .... ﴾	8	167
﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ .... ﴾	9	105
﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾	25	5
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ .... ﴾	30	-94-14 -125-99 195-126
﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾	41	-128-77 160
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾	43	126
سورة لقمان		
﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾	13	160
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ .... ﴾	19-18	193
﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ .... ﴾	21-20	91
﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم .... ﴾	41	162
السجدة		
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ .... ﴾	22	157
سورة الأحزاب		
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ .... ﴾	72	128

سورة سبأ		
﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .... ﴾	21-20	96
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ... ﴾	31	109
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ .... ﴾	34-33	91
﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ .... ﴾	54-52	129
سورة فاطر		
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾	1	94
﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ .... ﴾	37	140
سورة يس		
﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾	22	94
سورة ص		
﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾	22	157
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾	26	152-96 193-191
سورة الزمر		
﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾	2	203-138
﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا .... ﴾	71	156
سورة غافر		
﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾	26	17
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾	29	134
﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾	31	155
سورة فصلت		
﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ .... ﴾	15	132
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾	33	108
﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ .... ﴾	51-49	88

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ .... ﴾	51	87
سورة الشورى		
﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾	13	5
﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ .... ﴾	15	-151-147 159
﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ .... ﴾	43-40	162
﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ .... ﴾	48-44	107
﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾	52	109
سورة الزخرف		
﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ .... ﴾	23-22	194
﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ .... ﴾	23	91
﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ .... ﴾	24	91
﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ .... ﴾	32	90
﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ .... ﴾	51	133-73
﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾	87	94
سورة الجاثية		
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ .... ﴾	13-12	177
﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾	18	14، 129
﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ .... ﴾	23	129-96
سورة محمد		
﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾	1	106
سورة الفتح		
﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ ﴾	17	138
سورة الحجرات		
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ .... ﴾	9	185-151
﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾	13	124

سورة الذاريات		
﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾	21-20	168
﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾	56	131
سورة الرحمٰن		
﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾	7	195
﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ .... ﴾	9-7	167
سورة الواقعة		
﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ .... ﴾	46-41	172
سورة الحديد		
﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ .... ﴾	25	-147-135 -185-160 195
سورة الممتحنة		
﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ .... ﴾	9-8	185-150
سورة الجمعة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ .... ﴾	2	118
﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾	5	119
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ .... ﴾	10-9	195
سورة الطلاق		
﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾	2	151-6
﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾	7	7
سورة الملك		
﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾	2	131
﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ .... ﴾	9-8	156
﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾	14	123
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾	15	194-174

سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	4	35
سورة الحاقة		
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ .... ﴾	36-33	173
سورة النازعات		
﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ .... ﴾	41-40	193
سورة المعارج		
﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ .... ﴾	20-19	87
﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾	25-24	169
﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾	33	6
سورة الجن		
﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾	16	6
﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾	19	4
سورة القيامة		
﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾	15-14	193
سورة الأعلى		
﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾	11-9	97
سورة البلد		
﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾	10-8	168
﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾	10	164-105
﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ .... ﴾	16-11	173
سورة الشمس		
﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾	8	164
سورة الضحى		
﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾	7	107
سورة التين		

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	4	6-94 124-195
﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾	6-5	195
سورة البينة		
﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾	3	6-4
﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾	5	126-6
سورة العاديات		
﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾	8	175
العصر		
﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾	2-1	87
سورة النصر		
﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾	3-1	18

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
أتشفع في حد من حدود الله	200
إن الناس إذا رأوا الظا لم	152
إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق	9
إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي	8
البر حسن الخلق	103
سبعة يظلهم الله في ظله	152
لا ترجعوا بعدي كفارا	66
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق	161
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه	153
ليس هو كما تظنون	160
مثل المُدْهِن في حدود الله	153
يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله	35
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي	154
يا عدي اطرح عنك هذا الوثن	73

فهرس الأعلام

اسم العلم	الصفحة
أبيقوروس	31
أرسطو	31
إسبينوزا	53
أفلاطون	31-30-12
أوجست كونت	41
برجسون	110-46
بروتاغوراس	13
ابن تيمية	22
بن حنبل أحمد	21
داروين	53
درّاز	16
دوبريه	59
ديكارت	83
سقراط	30
عائشة	200-35
الغزالي أبو حامد	22
فرويد سيجموند	110
فولتير	82
لافيل	**29**
لالاند	137-23-21-10
ماركس	48
المحاسبي الحارث	22
المسيري	70-68-55
ملغرام ستانلي	139
المودودي	72-17
بن نبي مالك	32

نيتشه	11-38-39-45-53-60-61-71-110
نيوتن	44
بن هشام بن عامر سعد	35
هوبز	54

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

الكتب:

1. أثر العرب في الحضارة الأوربية: العقّاد عباس محمود، دار الكتاب اللبناني- لبنان، ط1- 1978م.
2. أثر الواقع الاجتماعي في تفسير القرآن في العصر الحديث: شبايكي الجمعي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة- قسنطينة، 2010م.
3. أثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكيات لدى الشّباب: بومعيزة السعيد، أطروحة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، 2005-2006م.
4. الاجتماع الديني: الخشّاب أحمد، مكتبة القاهرة الحديثة، ط3-1970م.
5. أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة: الدجاني زاهية، دار التّقريب- بيروت، ط2- 1416هـ.
6. أخلاق القرآن: الشرباصي أحمد، مؤسسة الوفاء التجارية-مصر.
7. الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام: حلمي مصطفى، بدون تاريخ، بدون طبعة.
8. الإرادة الإنسانية في ضوء القرآن الكريم-دراسة موضوعيّة: حلس محمد، أطروحة ماجستير، الجامعة الإسلامية-غزّة، 2009م.
9. أساس البلاغة: الزمخشري ، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1-1419هـ.
10. الأستاذ أبو الأعلى المودودي ومنهجه في تفسير القرآن الكريم: ترابي أليف الدين، رسالة ماجستير، مكة، 1403هـ.
11. الاستعمار أحقاد وأطماع: الغزالي محمد، نهضة مصر- مصر، ط4-2005م.
12. إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر: ملكاوي حسن- عكاشة رائد- أبو صعيليك عبد الرحمان.
13. إشكاليات فلسفية: بن عبد السلام حسين، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية-الجزائر، 2007م.
14. أصل الأخلاق وفصلها: نيتشه فريدريك، ترجمة حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت.
15. الأعلام: الزركلي خير الدين، دار العلم للملايين-بيروت، ط5-1980م.
16. الإنسان ذلك المجهول: كاريل ألكسيس، ترجمة أسعد فريد، مكتبة المعارف-بيروت، ط3-1980م.
17. أولويات الحركة الإسلامية: القرضاوي يوسف، مؤسسة الرسالة، 2000م.
18. البراجماتية: جيمس وليم، ترجمة محمد علي العريان، المركز القومي للترجمة- القاهرة، 2008م.

19. بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيق موسى الدويش: ابن تيمية، مكتبة العلوم والحكم، ط1-1408هـ.

20. البناء القيمي وعلاقته بالتنشئة الاجتماعية والدافعية للإنجاز: السيد إبراهيم، رسالة دكتوراه-جامعة الزقازيق- 2005م.

21. تأثير تكنلوجيا الاتصال على الروابط والعلاقات الاجتماعيّة داخل الأسرة الريفيّة: تواتي عبد الفتاح، رسالة ماجستير في علم الاجتماع- ورقلة، 2013/2012م.

22. تاريخ الفلسفة اليونانية: كرم يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ.

23. التحرير والتنوير: بن عاشور الطاهر، دار سحنون- تونس، 1997م.

24. تحقيق المناط وأثره في اختلاف الفقهاء: شرير عصام - صبحي صالح: رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية — غزة.

25. تربية مشاعر الأطفال في الأسرة: كولتشيتسكايا ي.إ، ترجمة عبد اللطيف أبو سيف، دار علاء الدين-دمشق، ط1-1997م.

26. التشريع الإسلامي- مناهجه ومقاصده: المدرسي محمد تقي، انتشارات المدرسي، ط1.

27. التشريع الإسلامي والغزو القانوني الغربي للبلاد الإسلاميّة: الجبوري ساجر ناصر حمد، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1-2005م.

28. تعدّدية القيم: عبد الرحمان طه، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية-مراكش، ط1-2001م.

29. التعريفات: الجرجاني علي بن محمد، مكتبة لبنان- بيروت، 1958م.

30. تفسير البحر المحيط: الأندلسي أبو حيان، دار الكتب العلمية- لبنان، ط1-1993م.

31. تفسير الشعراوي: الشعراوي، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، بدون تاريخ، بدون طبعة.

32. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2-1999م.

33. التفسير الكبير: ابن تيمية، دار الكتب العلمية- بيروت.

34. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ابن عبد البرّ، مؤسّسة قرطبة.

35. التيسير بشرح الجامع الصغير: المناوي زين الدين، مكتبة الإمام الشافعي- الرياض، ط3-1408هـ.

36. ثقافة سياسيّة: كامل ماهر - صالح أمين، مكتبة الأنجلو المصرية،1957م.

37. جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري محمد بن جرير، مؤسسة الرسالة، ط1-1420هـ.

38. الجامع الصحيح المختصر: البخاري، دار ابن كثير- بيروت، ط3- 1407هـ.

39. الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة — نموذج هابرماس-: أفاية محمد نور الدين، إفريقيا الشرق- المغرب، ط2- 1998.

40. الحداثة والسياسة والدين وسؤال القيم: عزماني عزّ الدين، مجلّة الإحياء، العددان 32-33، رمضان1431هـ.

41. الحريات من القرآن الكريم: الصلابي علي محمد، بدون تاريخ.

42. حوار الحضارات ومؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني: جيدل عمّار، دار الحامد- الأردن، ط1-2003م.

43. خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي: خلاف عبد الوهاب، دار القلم- الكويت.

44. دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي: القرضاوي يوسف، مكتبة وهبة- مصر، ط1-1415هـ.

45. الدين- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان: دراز محمد عبد الله، دار القلم- الكويت.

46. رحلة عقل: شريف عمرو، مكتبة الشروق الدولية-مصر، ط4-2011م.

47. روح المعاني: الألوسي محمود شكري، دار إحياء التراث العربي- لبنان.

48. سنن الترمذي: الترمذي محمد بن عيسى،حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض، ط1.

49. السيميائيّات والتّواصل: "العالم مبني وفق أنموذج اللّسان" سابير- وورف: يوسف أحمد.

50. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، بيت الأفكار الدولية- الرياض، 1419هـ.

51. صدام القيم بين الغرب والإسلام: زيادة رضوان، بدون طبعة وبدون تاريخ، الكتاب مرفوع من الشبكة العنكبوتية.

52. الضوء المنير على التفسير: الصالحي علي المحمد، مؤسسة النور-دخنة، بالتعاون مع مكتبة دار السلام-الرياض، بدون طبعة.

53. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد غازي، مطبعة المدني-القاهرة.

54. العالم من منظور غربي: المسيري عبد الوهاب، دار الهلال- القاهرة، كتاب الهلال، عدد206، 2001م.

55. العدل: قدردانقراملكي محمد، ترجمة حسن مطر الهاشمي، دار الكفيل، ط1-2016م.

56. عرض نشأة الأديان الوضعيّة ونتائجه في القرآن الكريم والمذاهب الوضعيّة الحديثة: بن عطية عدنان، مذكّرة ماجستير، جامعة الجزائر، 1439هـ.

57. العقل في القرن العشرين: سان برتران – سرنان، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة- سوريا، 2000م.

58. العقل واللغة والمجتمع- الفلسفة في العالم الواقعيّ: سيرل جون، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1-1427هـ.

59. العقيدة من خلال الفطرة في القرآن: آملي آية الله جوادي، دار الصّفوة- بيروت، 2009م.

60. علم الاجتماع الديني: الخريجي عبد الله، رامتان- جدة، ط2-1410هـ.

61. علم نفس الجماهير وتحليل الأنا: فرويد سيغموند، دار الطليعة- بيروت، ط1-2006م.

62. العمدة في فلسفة القيم: العوا عادل، دار طلاس- دمشق، ط1- 1986م.

63. العمل الديني وتجديد العقل: عبد الرحمان طه، المركز الثقافي العربي- المغرب، ط2-1997م.

64. عولمة السياسة العالميّة: بيليس جون - سميث ستيف، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث، ط1-2004م.

65. الغرب والعالم: رايلي كافين- المسيري ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب -الكويت، 1986م.

66. الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعيّة: شلبي محمد مصطفى، الدار الجامعية-بيروت، 1982م.

67. فقه الموازنات بين النظرية والتطبيق: السويد ناجي إبراهيم، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1-2002م.

68. فلسفة القيم: رزقبر جان، بدون طبعة، بدون تاريخ.

69. الفلسفة المعاصرة في أوربا: بوشنسكي، ترجمة د. عزّت قرني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، 1992م.

70. في ظلال القرآن: قطب سيد، دار الشروق، 2013م.

71. قاموس القرآن: الدامغاني الحسين ، دار العلم للملايين- لبنان، ط4-1983م.

72. القرآن إعجاز تشريعي متجدّد: الزين محمود، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث- الإمارات العربية المتحدة، ط1-2004م.

73. قصّة الفلسفة الغربيّة: هويدي يحيى، دار الثقافة للنّشر والتّوزيع- القاهرة، 1993م.

74. قصة النزاع بين الدين والفلسفة: الطويل توفيق، مكتبة الآداب- مصر.

75. القلق وإدارة الضغوط النفسيّة: عثمان فاروق، دار الفكر العربي- القاهرة، ط1- 1421.

76. قواعد الفنّ: بورديو بيير، ترجمة إبراهيم فتحي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 2013م.

77. قيم الإسلام الحضارية - نحو إنسانية جديدة: الخطيب محمد، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدراة البحوث والدراسات.

78. القيم الإسلامية في المناهج الدراسية: الصّمدي خالد، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو.

79. القيم الإسلاميّة في المنظومة التّربويّة-دراسة للقيم الإسلاميّة وآليّات تعزيزها: الصّمدي خالد، منشورات المنظّمة الإسلامية للتّربية والعلوم والثّقافة- إيسيسكو-، 1429هـ.

80. القيم في القصص القرآنيّ: حريري محمد أحمد، رسالة دكتوراه الفلسفة في التربية، جامعة أم القرى- مكّة، 1988م.

81. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

82. لسان العرب: ابن منظور، دار صبح- بيروت، ط1- 1427هـ.

83. ما وراء الخير والشرّ: نيتشه، مؤسسة الفارابي، ط1.

84. المجتمع البشري في الأخلاق والسّياسة: راسل برتراند، ترجمة عبد الكريم أحمد، مكتبة الأنجلو مصرية- القاهرة.

85. المخ ذكر أم أنثى: شريف عمرو -كامل نبيل، مكتبة الشروق-مصر، ط2-2011م.

86. مختصر دستور الأخلاق في القرآن: دراز محمد عبد الله، إعداد المختصر: محمد عبد العظيم عليّ، دار الدعوة-مصر، ط1-1996م.

87. مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة: رشوان محمد مهران، دار الثقافة للنشر والتوزيع-مصر، ط2-1984م.

88. المذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع محمد، مكتبة مدبولي، ط1-1973م.

89. مذاهب فكرية معاصرة: مزروعة محمود، مكتبة كنوز المعرفة-المملكة العربية السعودية، ط2-1427هـ.

90. المستصفى من علم الأصول: الغزالي أبو حامد، تحقيق محمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1- 1413هـ.

91. مسند أحمد ابن حنبل: ابن حنبل أحمد، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط2-1420هـ.

92. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: بن نبي مالك، دار الفكر- سورية، ط1- 1988م.

93. مشكلة الثقافة: بن نبي مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر- سورية، ط4-2000م.

94. المصطلحات الأربعة في القرآن: المودودي أبو الأعلى، دار القلم- الكويت، ط5-1391هـ.

95. معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربيّة، مصر، 1409هـ.

96. معجم الفلاسفة: جورج طرابيشي، دار الطليعة- بيروت، 1987م.

97. معجم كلمات القرآن: خضر محمد زكي، ط2-2012م.

98. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ.

99. مفاتيح الغيب، الرازي فخر الدين، دار الكتب العلمية-لبنان، ط1-2000م.

100.المفردات في غريب القرآن: الأصفهاني الراغب، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة- بيروت.
101.مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: كوش دنيس، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، ط1-2007م.
102.مفهوم العدل في الإسلام: خدّوري مجيد، ترجمة دار الحصاد، دار الحصاد-سوريا، ط1-1998م.
103.المقدمة: ابن خلدون، مطبعة الشرفية حضرة.
104.منظومة القيم المرجعيّة في الإسلام: الكتاني محمد، بدون تاريخ، الكتاب مرفوع من الشبكة العنكبوتية.
105.موازين القرآن الكريم: بليق عز الدين، دار الفتح للطباعة والنشر- لبنان.
106.الموافقات: الشاطبي، تحقيق أبو عبيدة بن حسن، دار ابن عفان، ط1-1997م.
107.موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم: المودودي أبو الأعلى، دار الفكر الحديث- لبنان، ط2-1386هـ.
108.موسوعة الفلسفة: بدوي عبد الرحمن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط1-1984م.
109.موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: المسيري عبد الوهاب، دار الشروق- القاهرة، ط2-2005م.
110.موسوعة لالاند الفلسفية: لالاند أندريه، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات: بيروت-باريس، ط2-2001م.
111.نظرات اقتصادية في القرآن الكريم: شوقي دنيا أحمد، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب-جدة، 1428هـ.
112.النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية: دورتي جيمس - بالستغراف روبرت ، ترجمة وليد عبد الحيّ، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.
113.نظرية العدل في الفكر الأروبي والفكر الإسلامي: البنا جمال، دار الفكر الإسلامي- مصر.
114.نظريّة القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقيّة: ميمون الرّبيع، الشركة الوكنية للنشر والتوزيع، 1980م.
115.وفيات وأنباء أبناء الزمان: بن خلكان شمس الدين بن أبي بكر، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت، 1900م.

المجلات والدوريات:

116.بناء الحضارات ومنظومة القيم المرجعية: بابانا العلوي أحمد ، 2013، مقالة إلكترونيّة.

117.بناء مقياس للتنافر المعرفي وتقدير خصائصه السيكومترية لطالبات جامعة أم القرى بمكة المكرمة: اللحياني مريم حميد-العتيبي سميرة محارب، مجلة الدراسات التربوية والنفسية- جامعة السلطان قابوس، مجلد9 عدد3- 2015م.

118.بيان القرآن الكريم لأثر العدالة الاجتماعية والتوزيعية في إصلاح المجتمع: علي يحيى محمد- صالح ساجدة: مجلة مداد الآداب، الجامعة العراقية- كلية الآداب، عدد خاص بالمؤتمرات 2018-2019م.

119.التأصيل الإسلامي لمفهوم القيم: ملكاوي فتحي، مجلة إسلامية المعرفة: العدد54، خريف 1429هـ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

120.تصور المسألة وأثره في الاجتهاد: إبراهيم عامر خليل، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية عدد 57.

121.الصورة والحضارة: التمثيلات البصرية والهويات الجماعيّة: دوبريه، مداخلة قدمت ضمن أشغال الندوة التي نظمت بمراكش في 12 نوفمبر 2005. انظر جريدة الاتحاد الاشتراكي، تغطية بتاريخ 2005/12/15م.

122.عالميّة الحضارة الإسلاميّة: قبلان عبد الأمير،2001م: ، مؤتمر "كلمة سواء" السنوي السادس: " حوار الحضارات" (كلمات الافتتاح)،مقال مرفوع من موقع مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات.

123.العزلة والاغتراب في المدن-الجانب المظلم من الحضارة في لوحات إدوارد هوبر: عادل مريم، مقالة إلكترونيّة.

124.العقل وعلاقته بالنصّ الشّرعي: ياسين محمد نعيم، مجلّة الشريعة والقانون، العدد41، محرم 1431هـ.

125.العلوم الإسلاميّة: الاستيعاب والتّجديد، عبادي أحمد، مجلّة الإحياء، العدد 29، 1430هـ-2009م.

126.عن سيكولوجية الانصياع والطاعة-تجربة ميلجرام: القمص بيشوي: ، 2015م، مقال مرفوع من الشبكة العنكبوتيّة.

127.عن مفهوم الغزو الثقافي: التركي عبد الله بن عبد المحسن، بحث منشور في المجلة الإسلامية الصادرة عن رابطة الجامعات الإسلامية، المغرب.

128.القيم الدينية والأخلاقية والمدنية-الاجتماعية: عبادي أحمد، مقال مرفوع من موقع مجلة الإحياء-المغرب، 1438هـ.

129.مفهوم القيم: الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث- المغرب.

130.مقال في العدل الاجتماعي: خليل عماد الدين، 2006م، الإسلامية-قطر، العدد139، 1431هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	
شكر وتقدير	
المقدمة	أ
الفصل الأول: في مفهوم القيم ودورها في البناء الحضاري.	
المبحث الأول: مفهوم القيم.	**3**
المطلب الأول: مفهوم القيم في القرآن.	**4**
1. مفهوم القيم لغة	**4**
2. مفهوم القيم في القرآن	**5**
3. محددات القيمة	**7**
المطلب الثاني: المفهوم الفلسفي للقيم.	**9**
1. الاختلاف في تحديد مفهوم القيم	**9**
2. مدلولها في اللغات اللاتينيّة	**10**
3. انتقال مدلول القيمة إلى الفلسفة	**11**
3-1-مفهوم القيمة الفلسفي	**12**
3-2-تداول الفلاسفة لمدلول القيمة	**12**
المطلب الثالث: مصادر القيم.	**14**
1. الدين	**14**
1-1-مفهوم الدين	**14**
1-2-المعاني التي تدور حولها كلمة دين	**14**
1-3-الاختلاف حول مفهوم الدين	**16**
1-4-إطلاقات الدين في القرآن	**17**
1-5-المعنى الخاصّ للدين في القرآن	**19**
2. العقل	**20**

2-1-مفهوم العقل	21
2-2-موضوعية العقل	23
3. الثقافة	23
3-1-مفهوم الثقافة	23
3-2-المقاربة التفاعلية للثقافة	25
4. العلاقة بين مصادر القيم الثّلاث	26
المبحث الثاني: المعادلة المعرفية للقيم.	27
المطلب الأول: القيم في الفلسفة القديمة.	27
1. أهميّة استعراض القيم في الفلسفة الغربيّة	28
2. القيمة في الفلسفة القديمة	29
3. أهم الفلاسفة القدماء	30
المطلب الثاني: القيم في المرجعية الإسلامية.	33
1. جدليّة القيم والمرجعيّات	33
2. حضور القيم في التراث الإسلاميّ	34
3. نشوء الاهتمام بالقيم	36
4. مفهوم المرجعيّة	36
المطلب الثالث: القيم في الفلسفة الحديثة.	37
1. أثر الفلسفة العربيّة في الفلسفة الغربيّة	37
2. الفلسفة المعاصرة	38
3. فلسفة نيتشه	39
4. ابتعاد الفلسفة عن الدّين	41
5. الفلسفة والعلم	43
6. الاتجاهات العامّة للفلسفة المعاصرة	45
6-1-الفلسفة البراجماتية	45
6-2-الفلسفة الروحية	46

6-3-الفلسفة التحليلية	46
6-4-الفلسفة الوجودية	46
6-5-الفلسفة البنيوية	47
6-7-النّزعة الرومانسية	47
6-8-المادّية الجدليّة	48
المبحث الثالث: دور القيم في البناء الحضاري	50
1. مفهوم الحضارة	51
2. تشكل القيمة ومساهمتها في البناء الحضاري	52
المطلب الأول: دور القيم في البناء الحضاري لدى الغرب	53
1. أبعاد قيم الفلسفة الحديثة على حضارة الغرب	53
1-1-العقلانيّة الماديّة	54
1-2-مفهوم العلمانيّة	55
2. أبعاد قيم العلمانية في البناء لدى الغرب	56
2-1-دور قيمة الصّورة في البناء الحضاريّ	58
2-2-دور قيمة الطغيان والظلم في البناء الحضاري لدى الغرب	60
3. قيمة سلب الإرادة/التبعية والخضوع	62
المطلب الثاني: دور القيم في البناء الحضاري لدى المسلمين	64
1. قاعدة البناء الحضاري	65
2. تخلّف المسلمين عن قيم القرآن في البناء الحضاري	66
3. مسؤولية الحفاظ على قيم المرجعيّة الإسلاميّة	68
4.قيمتا الخضوع والسيطرة	71
4-1-قيمة الخضوع	71
4-2-قيمة السيطرة	71
الخلاصة	74

الفصل الثاني: البعد القيمي للقرآن.	
مدخل	77
المبحث الأول: قيم الميزان وقيم التطرف في المجتمعات.	78
المطلب الأول: الواحديّة والشرك.	79
1. الدين الأوّل في القرآن الكريم	79
2. الدّين الأوّل في المذاهب الوضعيّة الحديثة	81
3. التمثّل القيمي للتديّن	84
4. طبيعة التصور القيمي للبديل المطوّر للدّين	85
4-1-العوامل النفسية الفردية	86
4-2-العوامل الاجتماعية	90
المطلب الثاني: الفطرة والتطرف.	93
1. مفهوم الفطرة	93
2. تخلّف قيم الميزان للفطرة	96
3. إرادة المجتمع	98
4. مظاهر تخلف الإنسان العصري وانحطاطه في المدينة العصرية	100
الخلاصة	103
المبحث الثاني: الهدي القرآني والتّشريع.	104
المطلب الأول: هدي القرآن الكريم.	104
1. ضرورة الدّعوة إلى الاهتداء كما جاءت في القرآن	105
2. أسباب الهداية والضّلال	106
3. الهدي والضلال من منظور العقل	110
المطلب الثاني: علاقة التشريع بالقيم.	112
1. مفهوم التشريع	113
2. ارتباط التشريع بالقيم	114
3. دور القيم في بناء وتأسيس توازن النظام التشريعي	115

4. مراعاة القيم في تطوّر التّشريع	118
الخلاصة	121
المبحث الثالث: القيم في القرآن	122
المطلب الأول: مصطلح القيم في القرآن	123
1. الدّين	125
2. قوامة الرّجل على المرأة	127
3. يوم القيامة	129
المطلب الثاني: أنواع القيم القرآنيّة	131
1. القوّة	132
2. الإرادة	135
3. الحريّة	137
الخلاصة	141
الفصل الثالث: البعد القيمي للعدل.	
المبحث الأول: العدل بوصفه خلقا إنسانيا في القرآن.	146
المطلب الأول: العدل في القرآن.	148
1. مفهوم العدل	148
2. مجالات العدل	150
3. أنواع العدل	152
3-1-العدل السياسي	152
3-2-العدل الاجتماعي	152
3-3-العدل المالي	153
3-4-العدل الأخلاقي	153
4. عدل الله في القرآن	154
5. أوجه العدل في القرآن	156
6. مرادفـات العدل	157

المطلب الثاني: البعد الأخلاقي للعدل في القرآن.	159
1. العدل والواحديّة	160
2. شمول العدل	161
3. الوسطيّة والتوازن	163
4. تضييع العدل	165
5. البعد الحضاري للعدل	165
6. البعد الجمالي لقيمة العدل	167
المطلب الثالث: أثره الاجتماعي والاقتصادي	169
1. التكافل الاجتماعي	169
2. الازدهار الاقتصادي	170
3. العدل في الإنفاق	172
4. المآل القيمي للعدل الاجتماعي والاقتصادي	173
5. العدل في تسخير الأرض للإنسان	177
المبحث الثاني: العدل بوصفه قيمة معرفية للنصوص القرآنية.	178
المطلب الأول: البعد القيمي للعدل.	179
1. العدل مرجع معرفي	179
2. أثر القيمة المعرفية في توجيه العدل	181
المطلب الثاني: قيمة العدل في استنباط الأحكام وفي عملية الترجيح	185
1. قيمة العدل في استنباط الأحكام	186
2. قيمة العدل في الترجيح	188
3. قيمة العدل الإلـــهي ومبادئ التغيير	189
المطلب الثالث: قيمة العدل في البعد الهدائي للقرآن.	191
1.العدل في النظام والسنن الكونية	192
2.مركزيّة قيمة القوة في تفعيل البعد الهدائي للعدل	194
3.البعد الهدائي للعدل ضمن مركزية القيم القرآنية	197
خلاصة	200

الخاتمة	202
الفهارس العلميّة	
فهرس الآيات القرآنية	207
فهرس الأحاديث	222
فهرس الأعلام	223
ثبت المصادر والمراجع	225
فهرس الموضوعات	232
الملخصات	

الملخصات

ملخّص الدّراسة:

تناولت هذه الدّراسة البعد القيمي للقرآن – دراسة لقيمة العدل– وقد جاءت في ثلاث فصول:

الفصل الأول: تحدثت فيه عن معنى القيم في اللغة والاصطلاح، والفلسفة. حيث بينت أن القيم في الاصطلاح تعني " **إدراكا معرفيا وإرادة نفسية تستند إلى مرجعيّة محدّدة** ".

وناقشت مفهوم القيم في دين الله كمرجعيّة المسلمين. ومفهومها في الفلسفة المعاصرة باعتبار أنّها المنتصرة للعقل، والمنتصرة للعمل، والمنتصرة للرّوح.وهي التي كان لها الدور الفعال في البناء الحضاري لكنّها آلت بأفرادها إلى حالة اغتراب كبير.

الفصل الثاني: تناولت فيه:

1– قيم الميزان وقيم التطرف في المجتمعات الإنسانيّة، وقد تمثّلت في الدراسة:

بالواحدية مقابل الشرك: فالدّين الأول في القرآن هو دين عبادة الله الواحد الأحد، ولكن تطاول العهد بالناس إلى أن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا باتباع الهوى وسلطان الشيطان.

بالفطرة مقابل التطرّف: إن الاهتداء إلى طريق ما يعتمد على الاعتناء بالوسائل المفضية إليه، فيتحتّم الاعتناء بحمل الناس على العودة إلى الفطرة في مختلف مناحي الحياة.

2– الهدي القرآني والتشريع: ينظم التشريع حياة الفرد ويستند إلى المقاصد والقيم المتكاملة التي تساهم في تحديد الأداة المعرفيّة في التعامل مع هداية الوحي.

3– أنواع القيم القرآنية: قسمت إلى القوة والإرادة.

الفصل الثالث:

تطرّقت فيه إلى قيمة العدل في القرآن، وأهميته في تحقيق الميزان، فيأتي كقيمة هدائيّة محافظا على تطبيق القانون وحماية الفطرة السّليمة بإقامة التوازن بين متطلبات الإنسان الروحية والمادية بصورة منسجمة ووفق النظام الذي خلقه الله عليه. وكقيمة معرفية فهو نظام ثابت من حيث المبدأ شامل من حيث القضايا والمسائل، عام لكل الأفراد، تتخطّى قيمته الخيريّة للمسلمين إلى غيرهم حتى مع أعدائهم بضوابط معلومة.

Summary

This study deals with the value of justice in Quran. It is demonstrated in three chapters:

Chapter One: Deals with linguistic, terminological and philosophical meaning of values.

The latter also has a meaning of integrity, stability and permanence.

Terminologically, it means the cognitive knowledge and self-willingness that is based on a specific reference.

As it is mentioned, the sources of values that are displayed in religion, knowledge and culture. Thus, the religion of Allah, is the reference for Muslims in their values.

Chapter II: States:

The values of balance and extremism in human societies which were represented in this study as follow:

Monotheism versus polytheism:

The first religion in Quran is the religion of worshipping the one and the only GOD "Allah", nevertheless, people associate companions with Allah that for which has sent down no authority; following their desires and the power of Satan.

Instinct versus extremism:

The guidance to the straight Path depends on some means that lead to it. This make people return back to the instinct (Fitrah) in all aspects of life.

Quranic guidance and legislation:

Legislation regulates the life of the individual and is based on purpose and values that contribute to the renewal of the knowledge in dealing with revelation

Types of Quranic values: Divided into strength and will

Chapter III: Deals with the value of justice in the Quran and its importance in achieving the balance, coming as a guiding value preserving the implication of law and the protection of the right instinct by establishing a balance between man's spiritual and materialistic needs a harmonious way according to the system Allah created .

As a knowledgeable value, justice is a fixed and universal system in both matters and issues, for all individuals; Muslims or their enemies.

Résumé:

Cette étude traitait de la dimension de valeur du Coran - une étude de la valeur de la justice - et se composait de trois chapitres :

Le premier chapitre : Dans le premier chapitre, l'étude a porté sur le sens des valeurs dans le langage, la terminologie et la philosophie. Elle a montré que les valeurs dans la terminologie signifient "la conscience cognitive et la volonté psychologique basées sur une référence spécifique".

Ella a discuté du concept de valeurs dans la religion comme référence pour les musulmans, et de son concept dans la philosophie considérant que cette dernière est victorieuse pour l'esprit, l'âme et l'action ;

et qu'elle a joué un rôle efficace dans la construction de la civilisation, mais qu'elle a conduit ses membres à un état de grande aliénation.

Le deuxième chapitre : l'étude a porté sur :

1- Les valeurs de la balance et les valeurs d'extrémisme dans les sociétés humaines, qui ont été représentées dans l'étude :

Monothéisme contre polythéisme : La première religion dans le Coran est la religion de l'adoration d'Allah, le Seul et Unique, mais avec le les gens se sont tournés vers le polythéisme en suivant les désirs et l'autorité de Satan.

Instinct versus extrémisme : Trouver une voie dépend de prendre soin des moyens qui y mènent, il est donc impératif de veiller à faire revenir les gens à leur nature dans divers aspects de la vie.

2- Orientation coranique et législation : La législation organise la vie de l'individu et s'appuie sur des finalités et des valeurs intégrées qui contribuent à renouveler l'outil cognitif face à l'orientation de la révélation.

3- Types de valeurs coraniques : divisées en force et volonté.

Chapitre III :

L'étude a traité de la valeur de la justice dans le Coran et de son importance dans la réalisation de l'équilibre, elle se présente donc comme une valeur directrice qui préserve l'application de la loi et la protection du bon sens en établissant un équilibre entre le spirituel et le exigences matérielles, d'une manière compatible avec le système qu'Allah l'a créé. En tant que valeur épistémologique, la justice est un système figé dans son principe, global en termes d'enjeux et d'enjeux, général pour tous les individus, et sa valeur bienveillante transcende les musulmans aux autres, même à leurs ennemis, avec des règles bien connues.

Democratic Popular Republic of Algeria

Ministry of Higher Education and Scientific Research

Amir Abd-el-Kader University of Islamic Sciences

Constantine

Faculty of Usūl al-Dīn

Ordinal Number…… ....

Identification Number

Department of alkitab and sunah

The moral dimension of the Qur'an
-A study of the value of justice-

A thesis submitted to obtain a doctorate of sciences (Ph.D):

Specialty: alkitab and sunah

Elaborated by the student :

Ben Atia Mona

Supervised by the Professor:

Djemai Chebaiki

The discussion jury members

Name and First Name	Scientific Rang	Original University	Function
Pr. Huoda Harrak	Professor	Amir Abdelkader University	Chairman
Pr.Djemai Chebaiki	Professor	Amir Abdelkader University	Supervisor and Reporter
D. Hicham Chougi	MCA	Amir Abdelkader University	Membre
Pr. Noura ben Lahcen	Professor	Université Haj Lakhdar-Batna-	Membre
Pr. Issa Bouakaz	Professor	Université Haj Lakhdar-Batna-	Membre
Pr. Muhyiddin ben Ammar	Professor	Université Haj Lakhdar-Batna-	Membre

University year: 1444 -1445h / 2023-2024